سعيد تقي الدين

مؤلف مسرحيتي

« لولا المحامي » و « قضي الامر »

نخب العدو

درامة في ثلاثة فصول

الثلج الأسود

وقصص أخرى

اشهر حكايات المؤلف

سعيد تقي الدين

مؤلف مسرحيتي

« لولا المحامي » و « قضي الامر

نخب العدو

دراما في ثلاثة فصول

الثلج الأسود

وقصص أخرى

اشهر حكايات المؤلف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
في سائر اقطار الدنيا

عنوان المؤلف

SAID TAKY DEEN

Manila

Philippine Islands

تم تأليف هذه المسرحية في مانيلا – عاصمة جزائر الفيليبين
في العام ١٩٣٧

وتم طبعها على مطابع الكشاف في بيروت في اول شهر ايلول
من العام ١٩٤٦

المؤلف

مَا تُرَى حَدَّثَتْ رُوَاتِي بَعْدِي
اِنْ رَمَانِي ٱلتَّارِيخُ فِي مِيزَانِهِ ؟!

تقدمة

إلى الذي نهض بي حين كاد الدهر ـ شبابي،
أقدم هذا الكتاب.

TO THE HOLY, WISE AND FAIR

« B. J. D. »

THIS DEFERRED EFFORT IS DEDICATED

AND

TO THEE MY ALMA MATER

THE AMERICAN UNIVERSITY OF BEYROUTH

WITH THE FERVENT WISH THAT YOU MAY NEVER
LENGTHEN THE BREADLINES OF THE WORLD
WITH ANOTHER CAMPUS HERO

Said Taky Deen

دد - "الدكتور نجيب"

اكرسه الى

رجل العلم النابغة، والإنساني العظيم، الذي عطر الإسم اللبناني السوري في الشرق الأقصى

المرحوم الدكتور
نجيب متري الصليبي

ابتهال

•

ربّ يسّر لهذه الرواية مُخرجاً يفهم الفن ، وممثلين يحذقون الدرامه ، ومسرحاً غنياً ، وجمهوراً حشداً .

ربِ أدخل على قلوب النساء من بني قومي الجرأة فيمثلن ادوار النساء في « نخب العدو » .

ربّ لقد انشأت هذه الرواية قطعة فنّية ، وحادثة مسرحية ، فلما ان جفّ حبرها ، قرأتها فاذا هي رسالة الى بني وطني —

ربّ طهر بها قلوبهم ، فصير شيعهم شيعة ، وطوائفهم طائفة ، وجماعاتهم جماعة ، فيمسي عداؤهم حباً ، وتنازعهم تعاوناً وشرذماتهم كتائب ، وقبضاياتهم جنوداً .

ربّ وسع آفاق ابصارهم فيروا الضيعة فوق الحيّ ، والمقاطعة فوق الضيعة ، والوطن فوق الجميع .

ربّ يدك في هذا الجهد في الناحية الضعيفة من ادبنا فليقصف التصفيق كالرعد عند نزول كل ستار ، ولتدو القهقهة لنكاتها ، ولينسجم الدمع في فواجعها ، ولتحبس الانفاس في مآزقها ، ولتجلس النظارة على اطراف الكراسي توقعاً لحوادثها .

رب خلدها على المسرح خلّد .

مقدمة «نخب العدو»

كدت ان افتتح هذه المقدمة بهذا القول :

« اطرح الرياء ، وابتعد عن الخيلاء ، فاصارحك انني اقدم الى المسرح العربي برائعة يفتخر بها اي دراماتي كان ، في اية لغة واي زمان . اقول هذا ووراثي في اختبار الفن المسرحي، دراسة، وملاحظة ، وتأليفاً ، خمسة عشر عاماً ، تعرفت خلالها الى معظم البارزين في هذا الفن ، على المسرح ، وفي الكتاب ، وعلى الشاشة البيضاء .

وانْدار في خلدك انه قد تدحرجت من فمي كلمة ادعاء ضخمة، فانا ادعوك الى المقابلة فأنت بإزاء رائعة افريجية وقابلها « بنخب العدو » حادثة، ومواقف ،ونكات، واشخاصاً ، ومفاجآت ، وحركة ، وتضاد ، وشبكة فنية ، وسلاسة ، تجد « نخب العدو » تضاهي اجملهن في كل شيء ، وقد تكون دون بعضهن في روعة المأزق ، ولكني واثق من ان غايتها هي اجمل غاية رواية تعرفها بدون استثناء وعلى الاطلاق . (انتهى التبجح)

غير اني وجدت مثل هذا القول بعيدا عن سلامة الذوق والكياسة وقد يكون غير صحيح ، وها انذا لا املك وانا اراجع قراءتها بعيدا عن المسرح ، من ان

اسائل نفسي « أهذه هي الرائعة الاوتوبيوغرافيـة التي كـنت اهرع اليها كلما اصابني فشل جديـد ، فأعزي نفسي بقولي : لا بأس ان « نخب العدو » ستخلد اسمك . اسائل نفسي بكثير من الشك « اعظيمة هذه الرواية بقدر ما كنت اتمنى ؟ ام هي عادية ، ام هي – ويا للعياذ بالله – جهـد فاشل ؟ اتعرى من عواطفي واقول لـك ولنفسي بصدق ، وبالالم الذي يلابس الحيرة ، لا ادري ، لا ادري ، فالدرامة خارج المسرح كالسمكة خارج المياه . والرواية التمثيلية ، كما يدل عليها اسمها ، هي اداة تمثيل وليست اداة مطالعة ، وليس للقاريء ان يقيم نفسه قاضياً عليهـا . هوذا طاولتي تحمل اربعة مجلدات ضخمة تضم كل درامة ناجحة بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٣٦ اذكر انني لم اجلس لقراءة احداها الا شعرت كأني مرغم على تجرع دواء كريه .

وبعد فانا الفت هذه الدرامه وبيني وبين مسرحي خمسة آلاف ميل ، وبيني وبين جمهوري اثنا عشر عاما . ثم اين هي من المختبر العظيم – المسرح – تتكيف بالتمرين ، وتصاغ على التجربة ، فلا يراهـا الناس الا بعـد ان تُمرَّن ، وتُهذَّب ، وتراض ؟ انني لا اعرف في تاريخ الدرامه رواية كذا كانت ظروف ابداعها ، فان جاءت برغم هذه المصاعب ناجحة ، وكان في حيويتها عناصر الخلود ، واعيـاني اذ ذاك المال لقطعت الطريق اتعب لي ثمن تمثال اقيمه لنفسي . وما دام لكل قصة قصة ، فهذه قصة « نخب العدو » :

الفت في صباي مهزلتـين هما « لولا المحامي » و « قضي الامر » كان من سوء حظي انهما نجحتا . وهاجرت لبنان والادب الى التجارة فكان من سوء حظي اني اصبت النجـاح المالي عـاجلا . ووجدت طريق كانت مغبرّة ، فتبخرت الثروة ، واطفأ البعد والانقطاع عن الانتاج ، اسما ادبياً كاد يلمع ، فاذا لا خيل عنـدك ولا حمير ، ولا ادب ولا مال . وخلال هذه الاعوام مرّ بي من الحوادث والاختبارات والاشخـاص ما لا تحشده الايام في عشرات السنـين . وكنت اثناء ذلك غـير مواظب على شيء الا الدرامة ، وفي مخيلتي عشرات القصص ومئات المشاهد ، اكثرها بخار وضباب . وحدث ان المهاجر اللبناني جروز معضاد مانت له همة في « البلاد »

فجاء يستكتبني مقدمة لرسالة تعزية يحييها المهاجرون « ترجومة »، فعجز بياني عن تلك المحاولة العظمى وجاء من اخبرني ان المواطنين المهاجرين يتضاحكون ويقولون انني اجهل الكتابة حتى لا اقوى على خط « ترجومي » ،وان احاديثي هما كتبته في صباي هي من قبيل التباهي الكاذب .

« سنرى ! » قلتها لنفسي صارفاً باستاني .

في تلك الساعة عاهدت نفسي على ان انتشلها من هوة الخمول . في تلك الليلة عقد دخان سكائري غيوماً في غرفتي ، وتذمر الجيران من رائحة البن في مطبخي ، وتمخضت بر « نخب العدو » . وجدت في تلك الليلة ان بين يدي ثروة من مذكرات دونتها في احلامي النهارية ، وفي اسفاري ، ورجعت الى اوراق صباي استوحيها ثقة بنفسي كادت تتلاشى ، وكحلت عيني برؤية صورتي يطرز اطارها في الصحف عبارات التقريظ ، وناديت نفسي مشجعاً « الى الامام ! تقدر ان تؤلف . تقدر ان تؤلف » . والله لاؤلفنها هذه الليلة ! هذه حوادثها واضحة في رأسي ، وموافقها لا ينقص الا ان اضعها على الورق . ها هي العبارات تثور والكلمات تتسابق الى الجلوس على القرطاس . لأؤلفنها هذه الليلة ! قلتها لنفسي وانا اجتر انتصارات غابرة . ومشى بي بصري في مقالة مدح من قلم توفيق قربان الي « ونرجو ان يماشي سعيد تقي الدين في تآليفه المستقبلة مبدأ النشوء والارتقاء » .

« النشوء والارتقاء » – ها ! ! تلك العبارة كبحت جنوني ، وردت المنطق الى تفكيري . النشوء والارتقاء . تقدم على مهل . كن امينا للذين تفاءلوا بك . درامه ، لا تكتب في ليلة . الى فراشك يا غلام ! اذكر ان احب خلانك اليك يقول لك انك مجازف متهور . لولا هاتان الخصلتان لكنت اليوم غنياً . لا تجازف بادبك كما جازفت بمالك . الرواية لا تكتب بليلة . كن صادقاً لفنك وتوجه الى الناس بنهاية التهاية من مقدرتك . ان هذه المواد التي بين يديك قد تظهر لاول وهلة وافرة فاقتطف منها اطيبها وازم الحامض والمهتري .. قد تكون هذه آخر قفزاتك في الحياة فتطلع قبل ان تقفز – حذار المهاوي .

وما زلت احذف واكتب وامزق وازيد وانقص الى ان تجهزت هذه الدرامة .

فن مبذو مقاهر : قد يكون ولعي بتأليف الدرامه انه وقع مني على طبع مجازف . فالشاعر مثلا ينظم ابياته في لحظات او ساعات فان جاءت شعرا ، شعرا ، رددها الناس عاماً فعاماً وجيلا فجيلا . اما المؤلف المسرحي فيصب فنه وروحه وخبرته ، ويقوس ظهره ناحتاً حجارة قصر يشيده — لماذا ؟ ليبيت فيه جمهوره ليلة ، بل ساعتين او ثلاث ساعات من ليلة . يالله من فن مسرف ! القصاص يؤلف له نوفلّة او قصة قصيرة في وسعك ان تقرأها في فراشك او في القطار او حيث تستطيب ، وحين تكون نفسيتك في شوق الى قراءتها . اما الدرامائي فيشتغل ويستشغل جيشاً من مخرجين وممثلين ودهانين وووو ويقول للناس تعالوا الي في الليلة الفلانية واسمعوا الى ما احدثكم به ، وانظروا ما اعرضه عليكم . انتم القضاة وليس لحكمكم استئناف ولا تمييز . لا ابالي في اية حالة نفسية انتم . اريدكم في الساعة كذا ان تجتمعوا ، والساعة كذا ان تنصرفوا . انتم لكم ذهنيات متباينة افرادا ، ولكم نفسية خاصة مجتمعين ، ومن المحتم عليّ ان افهمكم افرادا وجماعة ، وهو فرض لا يفترض طريق فنان سواي .

الدرامائي رجل الشارع : فهو يحكم الحال فنان غير اختصاصي . فالمصور مثلا يقدر ان ينصرف الى التصوير فقط ، بل في وسعه ان يجنح الى فرع من فروع التصوير . وله ان لا يفهم شيئاً سواه وليس في ذلك ما يعيبه ، بل ان نوابغ الفن المجازي جاؤوا فقراء في دراسة الدنيا وشؤونها . اما الدرامائي فتنوع اشخاص روايته ، واختلاف مشاكلها ومواقفها يحتم عليه ان يفهم كل شيء من العلوم والناس والتجارب ان لم يكن من الالف الى الياء فعلى الاقل من الالف الى الباء ، فلا تتخيلن الدرامائي فناناً كلاسيكياً تهدل شعره ، وتاهت الى ما وراء الافق نظراته ، بل هو ابن الارصفة يسحب الارانب من القبعات ومن حصافة الرأي اذا صافحته ان تعد اصابع يدك لتتأكد انها لا تزال في مكانها .

كنت في « نخب العدو » اساتذ نفسي ، واساتذ الشهيرين من الاطباء ، هل العلم يضحك من نظريتي التي وضعتها على فم « الدكتور نجيب » من ان المفاجأة العظمى تشفي العمى العصبي ؟ هي نظرية ولدها خيالي ايمكن ان تكون او تصير حقيقة علمية ؟ ابتسم الاطباء وقالوا من حظ المرضى انك لم تمتهن الطب . الى ان وقعت بين يدي مجلة اميركية ، فاذا بعض انواع العمى الذي يسببه الغضب يشفيه الخداع ، او اليقين . وعقبها بحث آخر في مجلة ثانية تذيع ان الموسيقى تشفي بعض العميان ومن تبسط في درس تلك المقالتين يجد ان حادثة عمى « وسيم الحموي » في « نخب العدو » وشفائه ليست من الغرابة بقدر ما تبدو لاول وهلة ، بل انها ربما كانت او صارت حقيقة علمية . اتركها في « نخب العدو » يا غلام واسبح في احلامك النهارية وادَّعِ انك اصبت في الطب فتحاً جديدا . بل انظر الى نفسك في مرآة مقعرة وقل لقد تنبأ « جول فرن » بالغواصات والطيارات . انا جول فرن الطب ! وليس على الادعاء ضريبة .

و لماذا لم تنشأ عندنا الدرامه ؟ اقول ان في شعبنا مواهب ادبية والهاماً صافياً . اقول ان ما ينتجه اليوم بعض شعرائنا هو من اصفى الشعر وابدعه . اقول لجماعة بيروت – وفيهم كل قريب وحبيب – لقد اصبحتم ولا يعجبكم العجب فلا تقتلوا بمرارة نقدكم شاعرية اخوانكم . وبعد فالنقد فن زائف ومهنة طفيلية . فاصرفوا همكم الى الانتاج وشيدوا لنا القصور والجسور ، تتعلم منها فن البناء اكثر من تعلمنا اياه في خرائطكم الزرقاء . ولماذا لا تتأكدون من وجود الغلال على البيادر قبل ان تغيموا فبارك الغرابيل ؟

اما طوفان النقد في سوريا ولبنان ، فراجع الى اسباب عدة اترك منها ما هو معروف وشائع ، واذكر ما اعتقد انه على الغراء جديد . فالنقد يوهم صاحبه ، ولو ضمناً ، بالتفوق على المنقود . انا انقدك اذن انا افضل منك . وما دام حب التسود غريزة انسانية فلا عجب اذا تفشى داء النقد . ثم ان في قرارة النفس الانسانية في كل شعب وقطر ، ولا احتكار في الموبقات ، خيالة لوثم يفسح النقد عنه . فلا عجب اذن

اذا شاع . زد على ذلك ان النقد يضع بين يدي الاديب او المتأدب موضوعاً جاهزا فلا حاجة الى حك الرأس والتنقيب عن موضوع يبحثه الكاتب . كذلك ليس من انتاج مهما عظم الا وفيه نواحٍ ضعيفة يسهل اكتشافها فتسري نشوة الظفر في عروق الناقد مكتشفها . كذلك التطرف يولد التطرف . القياصرة خلقوا البلاشفة ، والمديح بلا وزن ، سبب النقد الاعمى ، وسيأتي يوم تقترن فيه خطواتنا ، في الطريق الوسط السوي . ولكننا اغربنا عن الموضوع وكان « لماذا لم يكن عندنا درامه ؟ »

من مصائب ارثنا الادبي خلوه من الدراما ، ومن مصائب حالتنا القومية انه ليس عندنا جمهور ، فشعبنا ليس موحد التاريخ ، انظر الى بعضنا يقول بالاسلام والعروبة وآخرين بالمسيحية والفينيقية . هذه قريتنا فيها الفلاح الصلب الفطري وفيها المتأمرك ، والمتبرزل ، والمتفرنس ، الخ . . . عندنا الف حزب وحزب ، والف دين ودين ، والف معبد ومعبد . وفي آخر الزمان فشت الروابط العائلية « كالرابطة الشرندحية » لعائلة شرندح ، والرابطة العلوشية لبني علوش ، كأننا بدلا من ان نسير في نشوئنا وارتقائنا الى صهر العائلات والطوائف في قالب الوطن ، اخذنا نتقهقر في تحذيبنا القومي الى فك سنسلة الوطن الى حلقاتها الصغرى .

ثقافتنا ليست موحدة ، فهي علمانية ، لاهوتية ، عربية ، افرنسية ، اميركية ، او خليط من بعضها او كلها . انوابنا تتقراوح بين العمامة والقبعة ، وبين البنطلون والشروال . اعيادنا ، وايام الراحة عندنا ليست موحدة ، كذلك لهجاتنا ، واساليب معيشتنا ، وطرق تفكيرنا . تاريخنا يرشح بالحروب الاهلية ، ونحن في بيروت ، مدينة العلم والنور ، تلك الشرفة التي نطل منها على الدنيا والتي زيناها للدنيا ، وفي عام ١٩٣٦ (يلي ب . م . وليس قبله) تذابحنا مسلمين ونصارى — ويا للعار ! — وضبنا اموال بعضنا بعضا . اني مثل هذا الشعب « جمهور » بمناه المسرحي ، الجمهور الموحد التهذيب والشعور والعاطفة ، المتشابه الاذواق ، المتحاكي العفويات ؟ الجمهور الذي يضحك لنكتة ، ويستفزه تلميح الى حادثة ؟ سل لي اربعة او خمسة من عشرائك ان ينشدوا نشيدا ، تسمعهم يبدأون موحدي النغمة والكلمات ، فاذا

انتهوا من المقطع الاول من الاغنية اختلط عليهم النغم ، واختلفت الكلمات ، واصبح كل يغني على ليلاه . هل في القوم الذي يعجز اي اربعة منهم على الاتفاق ولو على انشاد اغنية « جمهور » ؟ تقول لي ان الدراماتي يجب ان يخلق الوحدة في جمهوره بحيث يبدع له شيئاً يستطيبه المعصم ، والمطربش ، والمبرنط ، والحافرة ، والمحجبة . اجيب ان هذا التنافر بالاذواق والتربية والعواطف يجعل الامور المشتركة بين جمهورنا ضئيلة الى حد ان توقع المؤلف في خطرين ، فاما ان يرضي الجميع فيأتي بالسخيف ، او ان يرضي شيعة دينية او سياسية او طبقة فكرية دون اخرى وفي ذلك هلاكه . وهذه المشكلة لا تواجه اي دراماتي كان في اي بلد من بلدان الدنيا ، وهذا احد اسباب انعدام الدراماتيين عندنا ، اذ ان خالق الرواية التمثيلية ، بسبب عسر جمهورنا ، يجب ان يخلق عبقرياً لا عادياً يتدرج هو او من بعده الى الابداع . اي انه يجب ان نظفر من لادراماتي بالمرة ، الى دراماتي نابغة . ارجعت تتطلع الى المرآة المقعرة يا مغرور ؟

والسبب الاخر الكسل . اين يقضي ادباؤنا اوقاتهم ؟ اني مختر قاتهم ومكاتبهم ؟ اغلب ظني انهم في المقاهي والملاهي منغمسون ، فهل تعجب ان جاء مجموع انتاجهم ، بقطع النظر عن نوعه ، يوضع بين دفتي كتاب واحد او اثنين او ثلاثة او اربعة ؟

« الادب لا يطعم خبز » جملة يقولها من حملة الاقلام حتى من تعرف انت انه بغير الخبز يملأ معلفه . « الادب لا يطعم خبز » ولكنه يطعم ما هو اشهى من الخبز . فهو يشبع كبرياءك ويذيع امرك بين الناس ، ويروي عطشك من الشهرة ، وهذان الجوع والعطش هما مهازا الانتاج الادبي . بلى ، لو ان الانتاج الادبي ربح مالي عندنا لوفرت محاصيلنا القلمية وكذلك لو لم تتبذل وسائل الاذاعة الصحفية ، الى حيث يشتهر الكاتب بمقالة واحدة ، لما وقف ادباؤنا في انتاجهم عند هذه الدرجة الدنيا بحجة ان الادب لا يطعم خبزا وانا لن نستغل عقولنا وهممنا الى غاية مواهبها الا اذا ابتعدنا عن الصحف وابتعدت الصحف عنا .

قلت لك إن تأليف الدرامه فن مقاعر مسرف ، وازيد انه ليس بالفن الذي يدر على صاحبه الربح الأدبي من صبت وشهرة . انت تنظر الى هـذه الرواية وتقول اقرأها بساعة ، واشهد تمثيلها بساعتين ، فمن المنطق ان تستنتج ان تأليفها سهل غير مجهد . ولكن صغر الساعة لا يعني ان صنعها هين . اقسم لك انني طرحت من مواد هذه الرواية ما يؤلف ١٧ رواية ، وقرأت لها مجلدات تملأ مكتبة ، واقنيت في ميكانيكية صوغها الشهور . القصاص مثلا له ان يسرد حكايته في الف صفحة او مئة . وله ان يملأ اوراق المطابع اذا اراد ، يقدر ان يقفز بك من مشهد تحت سنديانة الضيعة الى غرفة على ظهر الباخرة . اما الدرامائي فيجب ان يزحم في ساعتين او ثلاث قصته ومشاهده بحيث يجيء اختزالها واضحاً وطبيعياً . وعليه ان لا ينسى انه يكتب لمسرح فقير ، ولمخرج ، وممثلين يجهلهم ويجهل مكانهم ومتى يجتمعون وفي اي محفل . عليه ان يعرف كيف واين يزرع الحادثة وكيف واين يستغلها . وعليه ان يحيك شبكة حوادثها بحيث تأتي شبكة غير مشبكة . والنكتة ؟ والحركة ؟ والفاجعة ؟ والحوار ؟ والاشخاص — وهؤلاء من هم ؟ وما هي مظاهرهم الجسدية ، وقواهم الروحية ، وماذا يفكرون وكيف يتكلمون ؟ وعليه اولا وفوق كل شيء ان يستوثق من نفسه انه ملهم ، موهوب تلك المنحة النادرة — النكتة .

الدرامائي يجب ان تكون له حنكة السياسي ودهاؤه . فان كنت تبشر بنظرية جديدة ، او تدعو لعقيدة غير عادية ، او احببت ان تصدم الناس بنتاج عقلي غير مألوف ، فكن شاعرا يطير في طيات وحل الاثير منشدا « تنهادى الرياح في مهجتيا » . او فيلسوفاً ينطق بمثل الحكمة « الحياة اغـاريد الحناذير ، واغاريـد الحناذير هي الحياة » او مصورا يصور قطيع فيلة تتدلى خراطيمها من شعر الاقرع وذيل الصورة بـ « غبار الهرم » ، او فكن عالمـا يؤلف ١٠ مجلدا في « الدعوة الى الزواج المختلط بين الانسان والحيوان لتحسين نسل السويرمان » . ولكن لا تقترب من المسرح فالدرامائي رجل الغوغاء ورجل العامة ورجل النخبة من الناس معا . وهو كالصحافي رجل يومه قد يلقي بنظرة سريعة الى خلفه فيلمح الماضي ، وربما يمشي وراء

انفه قليلا فيبصر من المستقبل ومضة ، ولكن افقه دائرة قطرها يداه يقول هذا عالمي اوالفه اليوم ليجتمع به اليوم . بالطبع استثني العبقري الذي يؤلف لليوم فيتمسك بانتاجه الغد ويدفعه هذا ان ما بعده ، وهكذا دواليك حتى يخلد .

اللغة : من الابحاث ما تتوكه الالسنة فتتقزز النفس لتبذله من هذه الابحاث هي اللغة التي صارت في العالم العربي قوتبول الجدل في السنين الاخيرة . ولكن هذه المقدمة تستوجب ان البط هذه الطابة ولو مرة واحدة بالرغم مني . فكنتي في هذا البحث شطران . اولا من الحق مضغ الكلام وسن الشرائع والدعاية لهذه النظرية او تلك . انت تقول يجب ان تؤلف بالعامية . الحق معك تفضّل والف بالعامية فان راج مؤلفك وثبت على الدهر وشاع ، كانت العامية هي اللغة التأليفية المثلى . انت تستنكر العامية وتنتقض لذكر كلمة افرنجية تسربت الى الفصحى . هيات قوانينك وجنودك تمنع الناس عن استعمال كلمة « الافلام » و « التراموای » . لماذا التشاحن النظري وعلام هذا الحرب بالنظارات اذن ؟ في رأيي – وليس اسهل على المرء من ابداء الآراء – انه من الجريمة ان تؤلف باللغة العامية لسبب بسيط هو انه ليس عندنا لغة عامية شاملة . في الاقطار العربية مئات اللهجات واللغات ، فاجعلها تعتمد ؟ وابن الحكيمة في طرح تراث مئات السنين ، والتعلق بوراثة عامية معدمة اذ ليس فيها كتاب واحد ، وكيف تريد ان نتصرف عن عالم ثقافة عربي عدده ملايين الى لغة شيعة قد لا تتجاوز الالوف . على ان الدفاع عن الفصحى في التأليف لا يعني منع التفاعل بين الفصحى والعامية . خذ مثلا في الفصحى :

قالوا اللقاء غدا بمنعرج اللوى وا طول شوق المستهام الى غدِ

هذا ليس افخم في ميكانيكية تركيبه من :

قالوا الكردي فزّ الحيط هذا الكردي وهذا الحيط

« خذ حذرك »، كنت اعتقد انها عامية حتى قرأتها في القرآن الكريم . في سني ان افعل عبارة سمعتها في حياتي تلفظ بها رجل حط به الدهر فاضطر الى التعامل مع بعض سفط الناس فالتفت اليهم في ساعة حنق وصاح « لما سكنت مكاري ما عاشرت

هيك بقال ». ماذا عليك لو فصّحت مثلا مثل هذه العبارة الجميلة تناولتها من اللغة العامية باصابعك من غير ملعقة ، وانا اكفل لك انك لا تحتاج الى غسل يديك .

في لغتي المسرحية تعمدت وربما لم اتعمد لغة طبيعية سهلة ، لها صدى موسيقي الادب العالي ولكن فيها جلبة الشارع وضجيج ساحة القرية . اللغة هي من المشاكل الكبرى في التأليف المسرحي عندنا ، وهذه المعضلة لا تواجه فيها اعلم اي مؤلف مثلما تواجه المؤلف العربي ، لسعة الخليج الذي يفرق العامية عن الفصحى ، ولتعدد لهجات العامية . ولكننا سنتغلب على هذه المصاعب ، نقهرها بالتأليف والانتاج وليس بعلم النظريات ، ومضغ الكلام ومط البديهيات ، وبالتحذلق في كيف يجب ان نكتب او لا نكتب .

المصوصية في الادب : تلخص اجوبة الادباء حتى الساعة اذ يتّهمون بالانتحال ، او الاقتباس ، بكلمة واحدة هي « بيكذبوا » ، عساي اختط للكتبة طريقاً جديدة اذ « اعترف » بكيف آخذ عن الغربيين ما قد نكتشفه في هذا المؤلف .

امامي كتاب ميخائيل نعيمه في « جبران خليل جبران » . ان المتضلع من الانكليزية ، المتغمس في معاشرة الاميركان ، المعجب بقوة افصاح لغتهم العامية ، يشعر اذ يقرأ كتاب نعيمه بصدى بعيد في نفسه يسائله « اين قرأت هذه العبارة ؟ متى مررت بتلك الاستعارة ؟ من اسمعني هذا الرأي ؟ اسمعه في صفحة ٣ يقول « انا استعد للانصراف من محل الخمر فيه كل يوم ساعات بكاري من حياتي لعدد محدود من موسمات الريالات » لا ريب ان المؤلف كان يسمع شتائم الدمغيين (١) في الحملات الانتخابية في اميركا يقولون في اخصامهم (You have prostituted the governement) تعبير جديد قوي الافصاح تاق نعيمه الى تعريبه ، فلما ان جلس يقص علينا آلام زمن افناه في بيت تجاري ، صرف باسنانه وشتم – آ – شتيمة – عاهر – موس – جاءت « موسمات

(١) تعريبي للفظة Demagogues ويعجبني من اللفظة العربية ان شفها (دم) .

الريالات » ونعيمه ككل فنان ، يدين بمذهب التضاد، ويحذق استغلال المعاكسات . ركضت اليه لفظة بكارى ، وهي ضد مومسات ، فجاء ظافرا في العبارة كلها . غير انه فشل في صفحة ٨٥ في قضية « عضّاض » فالجملة الانكليزية الشائعة التي تقابل « برد قارس » هي (Biling Cold) . قال نعيمه لنفسه لأدخلن على العربية تعبيرا جديدا « برد عضّاض » ها ! كلمة عض قادته الى « ناب » طبعاً الناب للعض ، والناب عضو من اعضاء الجسم فزلق الى « رجل » فانت الجملة يوم برده عضاض . . . انيابه من ذهب . . . رجلاه من زجاج . . . فشل على طول الخط يبدأ ، « عض » لان الضاد حرف دافيء . ولفظة قارس افضل في اداء معنى البرد من عضاض . واصغ اليه في صفحة ٣٢ يقول كأنه « محمول على سحابة » فهذا التشبيه الجميل في العربية هو من عاديات الاصطلاحات الانكليزية (Soiling on a cloud) .

وفي صفحة ٤٨ يقول « نجوت من الصرف والنحو والمعاني والعروض والقوافي » فكأنه اختزل بسبع كلمات مقالة شهيرة لفزال امبركي نسيت اسمه ولم انس عنوان مقاله (you will get me your education) والكتاب حافل بمثل هذه الاقتباسات بعضها ناجح والبعض ، كما ينتظر فاشل ، فهل تتهم نعيمه بانه تسّال اذا حاول عمدا او بغير عمد ان يغني العربية بهذه التعابير والافكار الوهاجة بل هل في وسع نعيمه ، او اي من الناس ، تثقف بالافرنجية ولعله هاش ودرس وفكر افرنجياً ، ان يجلس الى ورقة فيتمرى من ثقافته ودراسته ويخترع كل كلمة وعبارة وفكر ؟ وهل من الحكمة ان يقول كذلك اذا هو قدر ؟ وهل من العار ان جاءت الاقتباسات وهي نكاد نكون من مبتذلات اللغة الافرنجية . ان ابن الفاهرة لا ينقص من شهيته للعنب كون العنب فاكهة مبتذلة في لبنان .

اريد ان اهمس اليك انك اذا كنت تحسب مثل هذا التعريب او الاقتباس او الاصح التفاعل سرقة ، فانا في « نخب العدو » « حرامي » .

تسألني ولماذا اخترت كتاب نعيمه في جبران واقتطفت منه الامثال ، فهل

سندشت (١) اسمك بين كوكبين ليستضيء بلمعان جاريه فيراه الناس ، ام لتتحدى المقابلة فيذكر اسمك وجبران ونعيمه في نَفَس واحد . اجيب ، ولك ان لا تصدقني ، ان «جبران خليل جبران» هو الكتاب العربي الوحيد الذي قرأته خلال ما يزيد عن عقد من السنين فكان من الطبيعي ان تجيء منه استشهاداتي . وانا لا يقتصر تكسبي على الكتب بل اتعداه ، فاني مولع بمطالعة المؤلف الذي له قدمان وعينان واذنان ، والذي اسمه انسان . لم اجيء بهذا الاعتراف اعتذارا عن جريمة اقترفتها بل لأوضح ما يجب ان يكون اشيع من البديهيات وهو ان الاختراع الصرف الطاهر ، يكاد يكون مستحيلا . ذكر دوماس-وقانا الله شر الاستشهادات- وقد عيروه بتهمة الاقتباس ، ان اول المقتبسين هو الله اذ خلق الانسان على شاكلته ولم يبتدع رجلا جديدا . فلا يقومنّ غدا لئيم يتهمني باللصوصية اذ حتم الصدق علي هذا الاعتراف . و « نخب العدو » بالمعنى الشائع هي مبتكرة حوادثها وحوارها وكل شيء فيها . ولئن مررت بعبارة تلبس الثوب الافرنجي فتأكد ان روحها عربية مثل « لو امطرت الدنيا دولارات ، للبس وسيم مشمعاً » هذه عبارة لي بعتها لمجلة بثلاثة دولارات . بل اني اندب الكثير من الافكار والعبارات التي تتسرّب الي بالافرنجية ولا يمكنني تعريبها اما لتلاعب لفظي او لفقدان بعض الكلمات

---

(١) سندش من السندوش وهي عشبة خضراوية ، ورقها كالهندباء حامض ، كانت العرب تغمسها بالرب وهو سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها وتفل السمن ، فتضعه بين قطعتين من معجون الرخة اي البلح فيأكلونه وعنه اخذ الافرنج كلمتهم (Sandwich) . جاء في « الحواسة العزقولية » وهي المخطوطة الفريدة التي يملكها الاستاذ اسعاف النشاشيبي :

« دخل عسيل الرعماط على مجلس الامير حندوش الزندعي فلقي رجلا حدبارا (هزيلا) يدعى خميط وقد تصدر مجلساً حفل بكل درفاس (الضخم من الرجال) فارتجل مشيرا الى خميط :

لحاك الله شرا من حِدبْر يسندش نفسه بين الدرافس

والاصطلاحات في العربية ، يحضرني من هذه العبارات قولي ، History is libre money it sometimes spoils people to inherit too much of it فهذه عبارة عن تعريبها لعدم وجود ما يقابل (Too) بالانكليزية .

لم اذكر كل هذا لأدل باضطلاعي من الانكليزية او لأوهمك انني في تلك اللغة كاتب ، بل لاني اشعر ، وبعض العبارات تتبرقع بالافرنجية ، بظنك ان هذه العبارات منهوبة . وما جيلتي في تعريبها وقد ولدتها افرنجية ؟

بلعن دين : هل انا اول من وضع هذه الشتيمة على الورق ؟ ان كنت ذلك الكاتب فانا لست بخجول . لا اريد ان ابرىء نفسي او فعلتي هذه بالقول ان كبريات مجلات اميركا وصحفها بدأت في السنوات الاخيرة تطبع العبارات السفيهة ولكني اقول ان « بلعن دين » هي شتيمة . غير انها ليست بالشتيمة القذرة ومن منا لا يستعملها ؟ وانا اذا استعملت « بلعن دين الورق » لم اشتم شخصاً ولا ديناً . فلماذا لا اذكر عبارة بليغة في تأدية المعنى ، وأرجع الى مثل « لحاك الله » بدلا منها ؟ الا لحاني الله حتى لأتعثر بلحيتي ان امكنني استعمال « بلعن دين » واعتضت عنها بـ « لحى الله » . اما كلمة « قحبة » فهي قاموسية وهي « العاهرة » بعينها . ولكني آثرت الاولى لانها فصيحة وعامية معاً ولان اتين القاف الصلبة اذا جاورت فصيح الحاء اقرب الى اداء معنى الفحش والزنا من « عاهرة » وهذه كلمة موسيقية عذراء مثل « طاهرة وشاعرة وساهرة » .

والسبب الآخر في فشل الدرامه عندنا هو ان هذا الفن يقتضي التعاون في ابلغ درجاته . فالنحات والشاعر والمصور والموسيقي لا يحتاج الى رفاق . اما الدراماتي فهو حين يفرغ من حبك دراسته ، ينتهي من بناء اول درجة من سلم ينطح الجوه المخرج والممثلون والاوركسترا والخياطون حتى والجمهور هم الرفقة المتممون لكل درامة . فالسبب الذي من اجله لم نتعاون ولم نصر امة حتى اليوم ، هو السبب الذي من اجله لم يثبت امام جمهورنا مسرح ولا درامه . متى اردنا اخراج درامه فالكل يريد دور البطل . ثم لا نتمرن كفاية اعتدادا بانفسنا ، والاعتداد

هو « سبور » قومي عندنا . ثم لا يتعاون الممثل ورفيقه الممثل . ثم لا نجتمع في ساعة الاجتماع ، ثم — وكم ثم نطلب حتى تعدم رواية وواحدة تكفي للهدم ؟ لهذا لا يستغرب ان معظم الروايات يمثلها التلامذة اذ ان الحسد والتباغض والكسل تكون على اقلها في عذارى نفوسهم . اما من الوجهة التجارية فان سوق الدرامه موجودة عندنا اذا قام عندنا مؤلف وتعاونت معه فرقة اذ ان شعبنا شعب يتعطش للهو ، متعشق للادب ، وهذه دور السينما والفرق الاجنبية تستغل شعبنا رابحة . الدرامه لا تشبع الا بالتعاون ونحن شعب متخاذل . خذ حملة الاقلام عندنا . لقد قردوا الادب بحرب اهلية اثاروها بينهم وانصرفوا عن الانتاج الى القشاش والانتقاص وتحديم بعضهم بعضاً . تسألني وكيف نكتب ؟ بل انت لم تسألني ولا تريد ان تسمع . ولكن صبرك لحظة ، فلن اقول لك انني اكثر التدخين والقهوة ، وانني يجب ان اكون في حالة جسدية تامة ، وانني اروض ذهني بسماع الموسيقى او التطلع الى حسناء او قراءة ادب عال ، او استعيد ذكرى مفرحة او ظفرا غابرا ، او اتمسى بحلم جميل . هذا كله ليس بالجديد عليك ولكنك لعلك لم تسمع ان اجمل ما كتبته كان بعد لعبة بوكر خاسرة . فان اعظم مثير لهمتي ، وجامع لافكاري ، ودافع بي الى العمل هو توبيخ الضمير اذ اقترف موبقة ، او اقصر في تنفيذ واجب ، فيصيبني من الندم والتحسر ، ما يهيجني الى التكفير عن اثمي باتتاج شيء اعتقده ثميناً . لا بأس عليك اذا سكرت مرة بشرط ان لا تصبح سكيرا . وبشرط ان يبقى ضميرك حياً فتتطلع بالمرآة في صباح اليقظة بعد مساء السكر فتخاطب الوجه في المرآة « هذا شحوب الضعة في اصفرارك ، وهذه الحياة تتناثر من زئبق عينيك . هيا يا مجرم كفّر عن معاصيك بعمل مجيد » انا لا اجد من دافع الى العمل مثل ضمير حي يشعر بالندم . فان انت امنت من وجدانك بالصلابة ، فليس اقنع لك من اقتراف الخفيف من الاثم حيناً بعد حين .

غير انني لا « اجلس لأكتب » ، فكل ما اضعه على الورق انقله من مذكرات في دفتري او خاطري جاهزة افكارا وعبارات وكلمات ولست اقعد الا لأؤلف بينها وقد

ازيد او انقص ولكن الفكرة الرئيسية جاهزة بكل معداتها . اما « نخب العدو » فقد ولدت اشخاصها اجنة وكبروا وكبرت معهم وعايشتهم هـاتين السنتـين ففي مقدرتي ان اقص عليك سيرهم ، ولو اني رسام لصورتهم لك . لا انسى منذ ايـام اذ لقيت في الشارع مواطناً فهرعت اليه اسلم عليه سلام الاحباب. قال « يا افندي ، اشكر لك بهجتك بلقائي ولكنني انا من جبال القدس، فيها قضيت كل حياتي، ولم اصل هذا المهجر الا البارحة ، ولا اعتقد ان الله انعم علي بلقائك قبـل اليوم » فانصرفت اسائل نفسي من هذا الرجل ؟ يستحيل ان لا أكون اعرفـه ، الى ان انبثق النور امام عيني - بلى «هذا شمدس جهجاه» ، كما تخيلته في « نخب العدو ». حتى احتزم الليل صارت تهبط علي في شكل درامه – على مسرح ، وامام نظارة ، يرتفع الستار عن حادثة ، وينزل على حادثة .

تسألني وهل انت تخلق اشخاصك خلقاً ام هم احياء منقولون . اجيب ان كلا الامرين ميسور وموافق ، فرب صورة فوتوغرافية لفادة يقصر عن إستيحاء نظيرها من خياله اعظم الرسامين . ورب دون كيشوت نعرفه أشد اضحاكاً في مهازي مغامراته الحقيقية من دون كيشوت الاصلي . وما دام في وسعي ان امسخ، واشوّه، وان أكوّن من شخصيتين او اكثر ،شخصية تلائم قصتي فلماذا اسمّر نفسي الى طريقة واحدة ؟ ولعل اقرب اشخاص الرواية الى الاشخاص الحقيقيين هو دور « الدكتور نجيب » الذي كرسته لذكرى الرجل العظيم المرحوم الدكتور نجيب الصليبي .

اما الدرامه فتنشب في رأسي غوغاء من مشاهد واشخاص وحوادث ، فقد يخلق المشهد شخصية ، او الشخصية حادثة ، او الحادثة عبارة ، او العبارة قصـة . اي مؤلف يدري كيف يؤلف ؟ انا كثير الاستنجاد بعقلي الباطن ، فكل ما صعب علي ، لا أيأس منه، بل اودعه عقلي الباطن ، واقول « المروءة يا هذا ، اخوك الواعي عجز ، وانا في حاجة ماسة الى تلك اللفظة او الحادثـة فاشتغل بها ومتى ظفرت نادني». وفي هدأة الليل ، او في التاكسي ، او في اي مكان وزمان تفاجئني اللفظة او الحادثة، اطلق لمخيلتي العنان ، فتزخر امامي مشاهد واصوات وموآكب غريبة شتى – تاليون

امام الاهرام ، لتدبرغ يقطع الاتلانتيك ، نعش حبيب حي ، باخرة تغرق ، حرب اهلية في السودان ، معركة في حانة سكير في مدرسة ، طفلة بين عجلات الترامواي ، مدرسة تحترق ، ابيات من الشعر - حسن الزيلعي على المنبر ، والمحامي صياح العبود مضرب عن الطعام في السجن . ومن هذه المشاهد الجنونية المتناثرة ، تنبت جرثومة ، فنرسة ، فشجرة . اطلق لحصان فكرك العنان فقد يفر ، ويكر ، ويمرض ، ولكنه في غاية الامر يركض بك الى هدف معلوم .

ولئن تركت هذه الرواية في نفسي من حسرة فهي انني ارغمت على خلقها قزماء ولم اتركها تنشأ هيفاء ممشوقة القوام . ليت جمهورنا واسع الصدر ، بعيد عن التعصب اذاً لجاءت « الحموي والحمصي » بيت « الحموي وعبد النبي » ، مسلمين ونصارى ، وحمامهم الاسلحة وتركتهم يتقاتلون ، ويتناحرون ويتشاتمون ثم الفت بين قلوبهم ، فاذا هم عصبة دفنت الاحقاد ولكنني اؤلف لمسرح ، ولا اريد ان العب بالعقائد ، فأي احمق يجسر ان يضع على افواه اشخاص روايته كلمة قد يفسرها جاهل انها تحقير لجماعة ، او مدح لمذهب على حساب مذهب ؟ هذه الرواية على ما اعلم هي المحاولة الاولى في العربية لبث دعاية الالفة في مؤلف ادبي ، ولا عجب ان جاءت المحاولة مبتورة بحكم الفن مغمغمة بسبب توتر الاعصاب . « الحذر هو ثلثا الباس » .

تستفهمني سرا عن مذاهب اشخاص « نخب العدو » . اجيب لو اني اعرف انا دين احدهم لعرفته انت وما اضطررت الى سؤال . حينما شرعت ادون مذكراتي كان « الحموي والحمصي » « الحداد والنجار » . وهما اسمان مشتركان بين جميع الطوائف ، غير اني خشيت ، وكل معارفي الحدادين مسيحيون ، ان يأتي بنو الحداد في « نخب العدو » ولو على الرغم مني نصارى . فاستبدلت الاسمين اذ انا لا اعرف في الدنيا لا « حموي » ولا « حمصي » . ان من بحث الاديان في لبنان وسوريا وجب عليه ان يمشي على الاخصين ويضع المخمل في الكفين ، ويطلي بالعسل الشفتين ، فأين التسامح عندنا أين ؟

هل هذه الدراما محلية ؟ اصيح بك بشراسة جبلية لا ! ففكرتها الرئيسية هي انسانية شاملة طرقها قبلي - عفوك يا قاريء - شكسبير في روميو وجوليت ، وعالجها

الاغريق قبل شكسبير في روايات عدة ، ولكن جاءت حوادثها في « وادي الارز » وفي مهجر من مهاجر بني وادي الارز فلا يعني انها « ارزية » اذ ان الحوادث تتطلب مكاناً ما تقع فيه ، والحكم على محليتها او على شاماليتها يكون بموضوعها وحوادثها وافكارها وليس بمكانها . غير اني لا انكر اني لو ابحت لنفسي ان اشرد عن الفن قليلا واغراني من كثرة السذج تلقيهم فخامة العبارة الجوفاء ومواقف البطولة الفارغة ونعتهم « بالوالدة » المجون ، وهو في نظري ارقى انواع الادب وأعسره ، اذ فيه دراسة وعظة وترويح للنفس ، لعريتها من حلاوة نكات ونزعت عنها الكثير من مألوف الكلام ، وارسلتها في الناس طنطانة والبست كلا من اشخاصها حلة ذات لون واحده وحقاً لقد نظرت في ان افعل هذا وقلت لماذا اصور نفسي في عيون الكثيرين روائياً لبنانياً ، او سورياً ، وفي اسهل ميسوري ان احذف الفليل ، وانفخ القليل واملح المشاهد بشيء من بديعيات القول ، فيرضى الذين يحسبون الشحم عضلا - وهم كثرة - ويقولون هذا دراماتي عربي بل عالمي ! وهممت ان آزين « نخب العدو » على النحو الذي ذكرت فأبصرت حبري قد اصفر جبناً ويدي بدم الاثم ترتجع ، وهتف بي ذلك الهفهاف القابع في زاوية نفسي « ستأتي طنطنتك مزيفة ، وللصدق حيلة على الظفر لا تفهمها ولكنها فائزة في نهاية الامر فالزم التراهة ، وان كان الابداع نصيبك فسيأتيك متفجرا من الهام نفسك لا حلة عارية منسوجة من خيوط تفكيرات »

الى المخرج : ليس ادعى الى التفاهم من الصراحة فأخبرك فيما يقرب الوقاحة انني امقتك . ان بيني وبينك من البغضاء الغريزية ما بين الام وصهرها . تحدث الام نفسها فتقول هوذا النفس التي انبثقت من نفسي والتي ربيتها بدموعي وتنهداتي وغمرتها بحنوي يقصيها عني غريب . ويقول الصهر هذه حبيبتي التي اخترتها من بين فتيات الدنيا تحاول امرأة انانية خرقاء ان تحتفظ بها دوني . هكذا انا الد هذه الدرامة وانت تتمتع باخراجها . وهي طوع يديك وليس لي بعد طبعها امر ولا نهي .

أفهمت لماذا ابغضك ؟

ولكن هذه الغرابة بيننا قد فرضتها الطبيعة علينا فلنحاول اذن ان نكون

صديقين .

لك ان تتمدد باسمك على برنامج الحفلة قرب اسمي وليكن بطوله وعرضه . فانت شريكي في هذا الجهد الادبي ، لك قسمة النجاح ، وعلى رأسك نصف عاقبة الفشل . لا احسدك على مكانك اذ انك في مأزق أصعب من مأزقي . انت تواجه قضاتك وسيقرأون حكمهم عليه بحيث تسمعه . اما انا فأتلقى الحكم غياباً . فهكذا يتضاعف عليك ألم الفشل ، او حلاوة الفوز . ولقد بعتك نصف الامل بالفوز ، بنصف الخشية من الخذلان . ارفع الستار عن سريرتك واعترف انك في باطن قلبك تكرهني وتستخف بانتاجي ، وتعتقد بتفوقك علي . انا من رأيك فلا ريب انك اخبر بالدرامة مني وان قلمك اكتب من قلمي . رجوتك اذن ان تتفضل وتخلق لنفسك درامة من غير ان تشوه كتابي فكل حرف في روايتي هو قطعة من روحي فلا تعذبني ببتر حرف منها وارفق بي فلا تغير ولا تبدّل فيها شيئاً . لا تحاول تطبيبها فهي صحيحة في عيني . انا ولوع بالاحباء اولادك – حفظك الله وحفظهم – غير اني لا أودّ ان اتبنّاهم فارحمني ولا تُسَنْدِشْ ابتسام افكارك بين ابناء فكري وبناته . ان جمعية « الرفق بالابالسة » هي جمعية نبيلة الغاية من المروءة ان تتبرع لها بريع حفلة التمثيل ولكن افعل ذلك سرا ولا تذعه فاني اريد من القوم ان يدفعوا ثمن تذكرة الحضور عن شوق لمشاهدة « نخب العدو » وثقة منهم ان اجرة الدخول تساوي لذة مشاهدتها ، فلا اريدك ان تقول الناس تبرعوا بمالكم للمشروع الفلاني وهذه « نخب العدو » تنكة اجمع بها احسانكم .

كذلك انا معجب بالآنسة مرتا (مدموازيل مارغو) البولاقي ، وأتشنج نشوة اذ اسمع صوتها الملائكي ، واذوب طرباً لعود الاستاذ جاد الله البحناوي ، ويغمى علي ضحكاً لطقطوقة صديقينا « حويشان وزبدي » فأرجوك ان تقيم لهؤلاء الفنانين النابغين حفلة خاصة يعرضون بها بضائعهم واترك ليلة « نخب العدو » « لنخب العدو » .

تمنطق بمتراليوز ، وتأبط رشاشة النار ، فاذا نهض شاعر المدينة ، وبلبل المغردين « صديقنا » سلوم الاندبوري وارتجل بضعة ابيات تناسب المقام ، فلقمه النار وازرع

بالرصاص جسده ودمه في عنق . زين المحفل بالالوية والازهار ولتشعّ في جوانبه الانوار وليكن مستقبلوك فتياناً عتاليت (١) بسّامين ولتعزف الاوركسترا حيناً بعد حين ، واخلق في الفاعه جوا فرحا كأن القوم في مهرجان، اذ لو قطب الجمهور لكان في عبوسهم مأقك ومأتي .

لا تضرب بالعصا على المسرح قبل رفع الستار ، بل اخترع لحناً عسكرياً هزلياً ينفخ من بوق قبل ان يسفر برفع المسرح عن مشاهدك . حذار القنابل حذار ! فلا تنطق ممثليك بلهجات خاصة اذ ان « نخب العدو » هي سلسلة عِقَد كفاح بين اشخاص وفئات ومبادىء ومواقف فلا تفسحن المجال للئيم او جاهل يقول لقد اردتني او اردتنا بذلك الشخص او تلك الكلمة .

بقي ان تذكر ان البغضاء لون من الوان المحبة فاغسل بالعطر شاربيك وهات منهما قبلة ! ...

---

(١) جمع عتليت اي (Athlete) وذلك اوفق من « رياضي » لالتباس هذه بين الرياضة والرياضيات يقال عتلته فهو منعتلت وعتليت .

سيرة المؤلف

بقلم المحب بر حسني العبادة

سعيد تقي الدين

قلت للمؤلف وقد ربض بما يزيد عن المئة وعشرة كيلو من جسده على كرسي يقتر من تحته ويصيح : حدثني عن حياتك من يوم ان بكيت لاول مرة الى هذه الثانية التي اراك بها باسماً ، بـ « نخب الهدو » فخورا . اجاب يوشك ان تكون الايام قد اضطهدتني الى حد اني احتاج ان احدث الناس عن نفسي بدلا من ان يتولى ذلك عني المؤرخون . قلت خل عنك المرارة ولا تصغمن قراني بخيلائك ، فانا محسن اليك اذ اسألك ان تتحدث عن نفسك فليس في الدنيا من لا يجيد التحدث عن نفسه ويستطيبه ، وعد بي الى الخامس عشر من ايار سنة ١٩٠٦ واعلمني ما الذي حدا في ذلك الاحد باهل « بعقلين » الى الجداء ، وما بال دوي البارود يحين القانون ، ولاي جليل امر هزجت الرجال وزغردت النساء في فجر ذلك اليوم . قال نبذت سائر الدنيا وتحيرت بعقلين ، الشوف ، لبنان ، بلدة اسقط جبا رأسي ، ولو

اعطي لي ان اتفحص الف مرة لما تزلت الا بمقلين دار مولد . اما الفرح لقدومي ، فخلال الفه الناس اذ يفرحون بالطفل حين يولد قبل ان يثبتوا انابة سيكون ام ابنه . على اننا بدأنا نفهم الامور ، فانت اليوم لا تجد ان بني بمقلين اقاموا لي التماثيل في شوارعها ، ولا علقوا صوري في متاحفهم ، ولكن غيبتي الموت في غدي ، فقد تسمعهم يتدبون مني الاسد والنابغة ، ولكنك تحس في اجوف ندبهم مرارة الخيبة في طفل مرد نجيباً وشب شبه نابغة ، وجاء في موسم القطاف كاشجار زيتونهم في سنوات الجدب تزهر ولا تثمر .

قلت انا طالب سيرتك لا فلسفتك ، فاطرد محدثا .

ولدت من ابوين ينتميان الى عائلتين طيبتين من عائلات لبنان . ان لم تكونا من ذروة الجبل فهما بدون ريب من اعالي سفحه . ولكن تلك الرفعة ما ابدتا اموال ولا ممتلكات . فجاءت القابلة اكثر من تقودنا فقد دعيت بال « بيك » و « الشيخ » منذ طفولتي ولا ينفك اصدقائي عن اغاظتي اني في تجاربي اهاود من يدعوني « مستر » و « سنيور » واصلخ بالسمر من يناديني باسمي عاريا .

قلت لقد استقبلني رجال الضيعة بدوي البارود فنشأت ولوعاً بالدوي ولو انه قرقعة تنك فارغ . ولكن بدأت احس مرارة الفشل المالي تستقر في نفسي وتحرق جوانبها فليس لما يجلبه المال من راحة وبذخ بل لما يصحبه من « دوي » .

شب ابي ، وابوه من قبله قاض ، على حب الوظائف ، شأن ابناء « العيال » من لبنان . واذا انا اغفلت ذكر بعض مزايا ابي من مثل اباء وشدة بأس ، وفروسية شأن اكثر ابناء قومه ، واردت ان اذكر الصفة الغامرة نفسة لقلت انها الطموح . ولكن ضغط ابناء القمة سدّ ما كان اعلى السفح الى اعلى السفح حيناً ودحرجه الى الوادي أحياناً . وابي اليوم وقد بلغ من العمر مرحلته الهادئة لا يزال يتطلع الى القمة ويجز قبضة جبارة ، ويصرف بصفين من اسنان اصطناعية ويقول ان لم اكن قد بلغت الذروة انا ، فسارى احد ابنائي يدق بيرقنا هناك . فيجيبه صدى صامت – يمكن ان جلس ابي على الكثير من كراسي الحكومة فما عدق بانوابه شيء من اقذارها ، وخرج

طاهر اليد ، ومن طهرت في وظائف الحكومة يـده نظفت جيبه ، فما ارتشى ولا هادد مترهماً ولا حالف مجرماً ، وما اشترك بتهريب ، لهذا لا اذكر انه مر بنا يوم لم نكن به في حاجة قصوى الى المال وما نزال . واني لاذكر قولا سمعته من أمي – وهي الامومة مجسدة– بنيّ ان الله ربط على باب دارنا ذئب الفاقة واكبر همنا في الحياة ان نطرده عن الباب. بلى ، لم ينهشنا ذلك الذئب ، ولكن لعـاثه ابدا يمرّ منا الوجوه،وعواءه يملأ منا القلوب ، وفي ايام الحرب كاد يقبلنا بانياب حداده

– ولماذا اشرق وجهك اذ ذكرت ايام الحرب ؟

قال لقد ذكرت عمنا امين نقي الدين وقد اشرف في ذلك الحـين على تهذيبنا حين نبت العشب في ملاعب المدارس الاجنبية،فان جريمة اتجاه ميولي الى الادب تنقى عليه اذ كان يملأ البيت شعراً واحاديث ادباء ويغرينـا على ارتكاب الشعر ، واقتراف النثر .وكم من ليلة اعوزنا الطعام فاولم لنـا عمنا امين من « مختارات الزهور » و « كليلة ودمنة» عشاء فاخرا نجتر ّه ترويقة في الصباح .وعنه اخـذت وجهة نظري المالية ، فهو يحسب ان المال قنبلة ديناميت ، اذا اشتبكت عليها اصابعك فارم بها الى اقصى ما تقدر مخافة ان تنفجر في يديك . واغلب ظني انـه اليوم في بيروت ما برح يرى في المال سلعة يملكها سواه ولا ينبطه عليها .

اما المدارس فقد نزلت منها في بحور مشتبكة التيارات ، متدافعـة الامواج ، فمن رهبـان يخرفون الدلم حفرا وتقريلا ، الى شيوخ يجذبون بالفلق والعصا ، الى مدارس تبشيرية افرنجية تزيد بازرقة حتى التأنث ، الى راهبـات يسألنني في صمت لماذا لا تنتصر يا كافر . وقد حملت من هذه الجنائن الزهور ويابس العشب والتبن والتراب، ودفنتها الى تلك المطحنة الكبرى في رأس بيروت فصهرتها وصهرتني الى فتى صلب ، براق ، بالحياة فوار ، يحاول الركض الى كل الجهات في آن واحـد فيجد نفسه بعد العناء انه لم يبرح مكانه ، كثير الاصدقاء ، كثير الاعداء ، لا اعلم بلدا نزلته وليس فيه من لا يفتديني حتى بروح حمانه ، او من لا يود مصرعي ولو شفا بحبل يحبكه من شعر اسنانه . وفيّ ، ودود ، حقود ، شديد الثقة بنفسي الى درجة

الاعتداد ، مسرف حتى التبذير ، كثير المطالعة والاطلاع حتى لتكاد تضايقك وفرة معلوماتي . فكه الحديث ولكني مبتور العبارة فما انا بالمتحدث القصاص . مغامر في التجارة حتى اكاد ان اسمّى فيها مقامرا . كثير الحركة ولو لغير فائدة . حشري من اعلى طبقة ، افضل ان افك العقدة باسناني من ان افكها بيدى . متفائل ، كثير احلام اليقظة ، عقلي كقطيع من الماعز منتشر على الهضاب والاودية ، ولا يجتمع الا ساعة المغيب حين يقبّل حجري ورقي . يقال لي لو اني لمست قواه ، وشددته الى بئر في حقل مُسيَّج لجئت من ثمار الحياة اكثر ما جنيت حتى الان . سريع التنفيذ الى درجة الهوس . عاطفي ، كثيرا ما ترى الدمع في عيني لذكرى حادثة طمسها الزمن ، او شخص غاب .

قلت للمؤلف لقد اعياني تتبع خطواتك يا استاذ . فهلا بدأت الحروف الابجدية بالالف بدلا من الباء وهلا سرت في حديثك سيرا متسقاً فبدأت الطريق من اولها ، فاني اراك تقفز من نصف الطريق الى آخرها ثم ترجع القهقرى ثم تدور على نفسك . اتفق عليك ان تصاب بدوار . فسر في طريقك كما يسير الناس .

قال اشكرك لتذكيري فقد فاتني انني لا اسلك طريقاً ما كما يسلكها الناس .

قلت انك مصيب فانت افضل من الناس جميعاً ، ولكن بربك تابع حديثك وقل من حكمياتك ، وخفف من مضمّن مباهاتك .

اجاب متابعاً سيرته «كنت في القرية بسبب مقام اهلي فوق معظم صبيان القرية فحرمت من الاشتباك بقتالهم والعاجم ، فانا في طفولتي «محمي» . لم اكن بالغلام الصلب الذي تتوقعه ممّن ربي في جبل لبنان ، وفي الثوف من جبل لبنان . ونشأت بفضل هذه الحماية وديعاً وزادت وداعتي حتى الجبن اذ كنت بعد ذلك التلميذ الدروزي الوحيد في مدرسة ساحلية كل تلامذتها مسيحيون وفي زمن كان الدين فيه المعركة المسجلة الوحيدة التي بها نعرف الهوية . فلقيت من ضروب الاضطهاد قبل الحرب من تلامذة تلك المدرسة ما لا ازال ارجف لذكراه . لذلك شببت واكبر طموحي ان اخضب يدي بدماء المسيحيين ، وكنت اوثر ان تكون ضحاياي من

الموارنة فاذا اعتبرتني اليوم وزوجتي مسيحيـة . وخلص خلاني يحملون اسماء مثل ميشال ، مارون ، عازار ، جورج علمت اي فشل لقيته في الحياة .

وكر ثالث صيف على الجزيرة العالية وانا عن المدارس منقطع ، وابي منفي في الاناضول ، وليس في سوريا ولبنان مدرسة مفتوحة ابوابها الا الجامعة الاميركية ، وليس عندنا مال والجامعة عن بعقلين بعيدة . وحدث انني كنت اسرع المشي في البيت فعثرت قدمي بعتبة الباب فوقعتُ وطارت من شفتي شتيمة تجـديف سمعتها امي ، فاكبرتْ ان يزلق كبير صبيانها الى اداب صبيان الازقـة ، وان يثب على السفه والجهل ، فصاحت « لارسلنك الى المدرسة واو بعت سقف البيت » .

المخوف الذي سمناه تقدمت ساعة اعدامه فكان لي من صوفه سـوتر (جرزي) واهوت على سجف البيت فصيرت لي منها قميصين وستة مناديـل ، وذهبتُ ببعض البسة ابي واعمامي الى الخياط فقلبها وقلّصها الى بدلات لي . وزرت الكنـدرجي فدكّتر بعض الاحذية الى ان استقامت على قدمي ، واقتطعنا قبراطـين من اهرام طربوش خالي فاذا الطربوش يتوج رأسي متقلقلا كتاج ملك بعد ثورة ، وبطنتُ بالورق بعض القماش فصيرت منها محفظة دراهم وان لم يكن هناك من دراهم على أنها محفظة على كل حال . هكـذا تهيأت في خريف ١٩١٧ الى الرجوع الى الدراسة ، متوهماً انني ساجر ببروت باناقة ثيابي .

حين يفخر اللبنانيون بتاريخهم وينشدون الاغاني في ابطالهم ، تراهم لا ينشرون صفحة مجيدة يجب ان تكون من المع صفحاتها . تلك اسطورة لم يكن ابطالهـا امراء ولا مشايخ ولا بكوات ولا عمقت جذورها في ظلام ماض بعيد ، ولا نفخها الغلو ، وزركشتها الاكاذيب ، بل هي بنت الامس ابطالها اكارون ، اطعموا جياع جنوبي لبنان في زمن الحرب حين سوّر الاتراك والالمان جبلنـا بسياج من حراب وجنود ، يمنعون الغلال والقوت عن افواهنا ، ويصدون ما قـد يتسرب الينا من مدن سوريا الداخلية وقراها . اذ ذاك نهض في جنوبي لبنـان فتيان وكهول تزنروا بالرصاص ، وشدوا على الدواب ، وراحوا يتسللون الجبال ، ويقطعون السهول ،

لا يصدم ثلج ولا حر ولا عواصف ، ولا اوبئة ، يستترون بالليل عن عيون الجند وغزاة البدو ، يتشلبون اتقاء للخطر ، ويستأسدون اذا الخطر واجههم ، فاذا بلغوا حوران بعد جهاد اربع ليال رجعوا الى جنوبي لبنان بالخطة وزغردت اجراس بلدهم منشدة « لا جوع في جنوبي لبنان ونحن صيامه » ولا يزال بين احيائهم من يحمل في صدره رصاصة بدوي ، او جرحاً من جنود الاتراك ، او يفص بدمعة ذكرى رفيق تخلف عن القافلة تجندلا برصاصة . وكانت «بريطانية» تلك القوافل قافلة بمقلين واست ادري كيف ندعي الادب ولا تستفزنا مغامرات تلك القافلة الى ملحمة ، او رواية ، او قصة . من اشاوس تلك القافلة شيخ مهم لنسمه « ابا سلمان » خدع الهرم بصلابة جسد خفيف ، وموه على الناس محمرديان حلق شعر رأسه ووجهه فلم يسبق لهم حجة بان يقولوا له لا تنضم الى القافلة فانت شيخ مسن . كنا في ثالث اعوام الحرب حين حزم « ابو سلمان » ضرعي زيت من نتاج املاكنا وبوأني بينها اريكة بغلته « ذئبة » وانحدر بي الى بيروت ليبيع الزيت ويشتري لي به ثقافة سنة في جامعة بيروت الاميركية ، رحم الله من قال لي حين رجعت الى الضيعة في آخر تلك السنة المدرسية « يا غبن الزيت » .

حين ودعني « ابو سلمان » على بوابة الجامعة وكنت ابري قلم رصاص بسكين صغيرة جزيئية قال مشوقاً « كن الاول في صفك تحصل على وظيفة كبرى متى كبرت » . ثم هدد فزاد : ان لم تكن الاول في صفك ، شمت بنا وبك اعداؤنا بنو . . . . ولمح زمرة من اشقياء التلامذة البيروتيين يتغامزون علينا ويتضاحكون فصاح بصوت مخيف « من لا تقوى عليه بالكف عاجله بالعصا ، واذا تكاثروا عليك فالسكين الذي تبري به القلم ، في وسعك ان تقطع به الوريد » . وغابت عني «الحماية» حين غيب منعطف الطريق تلك العمامة البيضاء . وهدأت تلك الزمرة حتى تلاشت اصوات اجراس «ذئبة» فشى الي منهم فتى فيمينه سوط وهو اليوم صديق لي حميم وطرح علي ذلك السؤال العظيم الذي يتلجلج على لسان البيروتيين متى ارادوا التهكم من جبلي – «حضرة الشيخ ، من اي ضيعة ؟ . . . – تمنيت تأدب ذلك الفتى فاجبته اني

الشيخ فلان من بعقلين –امبرة الضياع . قال ولماذا لا ينبت للخنازير اجنحة ؟ اجبت لا ادري . فشتمني فضربت سوطه برأسي ضربة خضبت يده بدمي ، ففر الجبان وثبت في ساعة العراك صريعاً على الارض .

ما امر ذلك العام الاول في كلية بيروت وما كان اوجع التحقير في ندائهم « يا جبلي » ، وما آلم ضروب الذل والقساوة التي سحقت نفسي . « يـا جبلي ! » عبارة تهز حتى اليوم كياني لما رافقها من الهزء والتهكم والسخرية . فكم من مرة – وانا منذ طفولتي كثير احلام اليقظة – فررت الى عالم الخيالات المؤنس المخدر من مظالم الحياة الواعية ، فاقنعت نفسي ان هزة زلزلت جبل صنين فقلبته على بيروت فطمس كل من فيها . اجلس اليوم ونفسي كئيبة المحسر في غربتي اني بعيد عن الكثير من بهجات الحياة وازهى ما في الحياة من بهجة في نظري اليوم « بيروت » . حقاً ان الحياة تسير على سنة لا تتغير وهذه السنة هي التغير .

وفجأة تفجر في صدري بركان لم ادر بوجوده ، وانبثقت من جسدي شجاعة لا اعلم مصدرها ، فانقلبت من فتى خجول جبان معتزل الى شرس ، خشن ، بطاش ، حتى لقد دهيت لبدغتي (١) « سعيد الانكشاري » .

قاطعت المؤلف متبرماً قائلا قص عليّ شيئاً من حياتك الادبية وعفا الله عن بطولتك المدرسيه – قال – بل اندفع ، بل انفض علي محدثاً :

كانت حياتي الادبية في قصرها وجمالها شبه غمزة حسناء ، وكان صامت وعدي بالاستمرار والاجادة كاذباً كأكثر وعود الحسان . فاول كبائي التي سحرتني رؤيتها مطبوعة مقالة كتبت في السادسة عشرة من عمري عنوانها « رياضياتنا ورياضياتهم » ارسلتها الى « البرق » ذات يوم خميس بتوقيع مستعار « حماد » وقد كاد يغمى علي اذ جاء يوم الاثنين فاذا بالمقالة افتتاحية بصدر « البرق » . ومنذ ذلك الحين كثرت مقالاتي في صحف بيروت ودمشق وفي بعض مجلات مصر واكثرها موقع بـ « حماد » و « بشار » ويسرني أنه قام في بيروت من يستعمل هذين التوقيعين .

(١) نسبة الى بدغان وهي قرية لبنانية كثر عراك اهلها حتى كاد يُفني بعضهم بعضاً .

لذلك يسهل علي أن الصق بهم جريمة مقالات ذلك العهد .

الى ان كانت « لولا المحامي » – « رواية تمثيلية عصرية » كما اعلنت عنها برامج الحفلات في عشرات المدن والقرى اذ مثلت في العراق وسورية ولبنان وامبركا الجنوبية وربما تكون قد مُثلت في امبركا الشمالية . ولقد مدحتها الجرائد بمقالات ضافية كتبتها او استكتبتها ، وبيننا وبين الصحافة صداقة قديمة فنستمنهم ولا ندفع ، ويستكتبوننا ولا يدفعون . وربما مات من بني نقي الدين من لا يملك ذراع ارض يتمدد فيها ولكن لم يمت منهم بعد من لم يملك حقلا في جريدة يتمدَّد فيه مغمورا بعبارات مديح مزهرة .

ليس لي ان أبحث في « لولا المحامي » وهي – ولك أن تقول فيها ما تريد – جهد مدرسي لتلميذ عمره ٢٢ سنة ، ولكنني اريد ان أتساءل اي جهد في سوريا ولبنان خلال عام ١٩٢٣ بقي على هذه الـ ١٦ سنة الا « لولا المحامي » التي لا تزال تمثل ، واريد ان استدلّ من بقائها حية حتى اليوم انها – على كثرة مواطن الضعف فيها – عاشت بسبب انها جهد رئيسي وان الجهود الضعيفة المبعثرة هي جهود صحفية لا تعمّر – يا ايها المتأدب عن « المقالة » فاجنحن انها لأسفنجة مصورة .

– وما الذي أوحى « لولا المحامي » يا استاذ ؟

– الذي اوحى « لولا المحامي » هو الذي اوحى « نخب العدو » .

– يعني ؟ ؟

– حُب الظهور . وان كانت الاولى اذا قيست بالثانية . . .

– فأرة ازاء جبل !

– بل كوخ ازاء قصر !

في وسعي ان اقول لك انني دراماتي بالفطرة تغرد المشاهد امام عيني وتهمس المكالمات في اذني على غير علم مني ، وفي مقدرتي ايضاً ان ادّعي واندلل بكثرة معلوماتي وسعة دراستي في الفن التمثيلي ، وازركش عباراتي بالاستشهادات البراقة ، ولكنني اصارحك – ولا يهمني ما تستنتج – ان السبب العاجل الذي اوحى « لولا

المحامي » و « نخب العدو » هو حب الظهور . استدرك فأقول الحاجة وحب الظهور . اما الحاجة فلانه اعوزتنا الروايات التمثيلية في ايام التلمذة فاضطررت الى تأليف « لولا المحامي » وشجعني نجاحها الغريب على اتباعها باختها « قضي الامر » وقد فاقتها نجاحاً (١) وها انا اجد نفسي بعد اثني عشر عاماً من غيابي عن لبنان ، اكاد ان اصبح نكرة ، فان ذكرت صحيفة نبأ تمثيل « لولا المحامي » شفعت كلامها بان مؤلفها هو ابن فلان او اخو فلان . ارجو ان لا تتهمني بالقحة اذا انا آثرت الصدق وتنعتني بأني لست بالروائي المفهم ، فلئن كنت ممن يحبون المقالات تتبرج بالاستشهادات الافرنجية . . .

قلت مقاطعاً : وما الخطأ بالاستشهادات الافرنجية ؟

– اقوال الناس كشهود الزور يمكنك ان تستنطقهم القول الذي تريد ، فاذا احببت مثلا ان تثبت ان السياسة هي موضوع شعري ، لجاء في متناولك عشرة اعلام يقولون ان السياسة توحي الشعر وعشرة في اهمية منزلة الأول ينكرون ان السياسة توحي الشعر ، اذن فما الفائدة من الاستشهاد ؟ ثم ان في كثرة دلف اقوال الغربيين الى كتاباتنا اعترافاً منا بضعفنا ، كأن الحقيقة لا تكون مقنعة الا اذا نطق بها الكسندر طلستوخسكي الروسي او جون ج . م . ز . جونسون الانكليزي بل كأن الكاتب يقول للقاريء : « انا رجل وضيع وربما اكون كاذباً فلا تصدقني بل صدق فلاناً وهذا قوله » . وهل من الواجب ان ازيد ان الاستشهاد صار « تدللا من الكاتب بسعة اطلاعه » .

قلت كنت على همة ان تستشهد فافعل ذلك على شرط ان تكون الاخيرة . قال كدت ان اعلمك ان « جون ديوي » اعظم فلاسفة اميركا يقول « ان اقوى محرك في طبيعة الانسان هو حب الظهور ، اما الذي احببت ان اخلص اليه فهو انه اذا سهلت وسائل الظهور انطفأت نار الانتاج ، فكم من ضحية اردتها صحفنا قتلا بالمديح .

(١) لم تطبع بعد لانها لا تستحق الطبع .

اعرف مهاجرا في ازمة ١٩٣٠ كان يفرح اذا انكسر مدين وله عليه مبلغ ضخم كي يظهر في مأتم المكسور وهو ارفع الداشنين صوتاً . واعرف فتى تظاهر بالجنون استلفاتاً للانظار وكان كلما عطف عليه اصدقاؤه واقرباؤه بانظارهم وآسوه ، تعمم بالتفات الناس وازداد تظاهرا بالجنون حتى كاد يصبح التظاهر حقيقة ، الى ان اشار طبيب اختصاصي على ذوي « المجنون » ان لا تأجوا له ، فلما اعرضوا عنه « شفي » الفتى من جنونه . هذان مثلان عن الغلو في حب الظهور ، وانني اعزو قلة انتاج ادبائنا الى سهولة وسائل الاذاعة في بلادنا ، فقصيدة واحدة ، او خطاب ، او ديوان ، يكفي لان تنشر ذكرى احمدنا بين الناس وتظهر صورته في الصحف . فترتخي انانيته وتتخدر اعصابه وتقعد به مظاهر النجاح عن الجد الى الوصول الى النجاح الحقيقي . ان قليلاً من التشجيع ضروري ولكني اراهن انه لو اتفق الصحافيون على الاغضاء عن ذكر الادباء سنة واحدة لتضاعفت جهود مؤلفينا واغتنت مكاتبنا .

كنت بعد « لولا المحامي » وبعد مئات الخطب والمقالات احوز المواد لرواية ثمثيلية ثانية اذ اتفق لي ان دخلت في عام ١٩٢٤ مخزن امين ابي ياغي في بيروت . وقبل ان تتعود عيناي ظلمة المخزن ، بعد وهج الشمس ، اذا بشخص فتان المظهر ، يقفز من مقعده في زاوية المحل ويمشي اليّ بـ « اهلا بالنابغة » ويمز يدي بحرارة . فركت عيني – لا ما انا بالحلم – هـذا امين الريحاني بعينه . خرجت من المخزن « مبتجاً » بـ « اهلا بالنابغة » مورفين انانيتي سنة كاملة من غير انتاج ادبي اذ رجعت عن خطة تأليف الرواية الثانية . ما تبقى بعد من الادب يا سعيد وقـد دعاك امين الريحاني « نابغة » . سنة من العمر اضاعتها عبارة مديح .

قلت ان في نفسي لعجباً منك . اسمعك كثير التحدث عن الدكتور فيليب حتي فمالك اغفلت الآن ذكره .

قال بلى تلك زوبعة عقلية نزلت بي فاقتلعت وزرعت وقد تهذبت عليه ثلاثـة اعوام فعليه قوي تفكيري حتى كنت برهة من الزمن ببغاوائه »

بعضها لا يزال في سماء بيروت يطير ناصل الاجنحة واسطوانة من اسطواناته التي تردد اغانيه العديدة ، ومنها من لا يزال يدور على نفسه منشدا اغاني حتى ، غير اني ارتددت عليه وها انا اسجل تردي على تعاليمه فقد افهمنا – في جملة ما افهم – ان التاريخ لا يعيد نفسه ، وها انا شطحت في هذه الديار منذ اثني عشر عاماً خالي الوفاض مفلساً ، واراى التاريخ اعاد نفسه بي مرتين منذ ذلك العهد .

*

قال المؤلف يترل الستار على حياتي الادبية بعد « لولا المحامي » و« قضي الامر» ويرتفع فجأة فاذا بطلنا – اي انا – على مسرح اعددت نفسي لكل مسرح اله – التجارة ، في جزائر الفلبين من الشرق الاقصى ، يريد ان ينقص القوت من افواه الاسود ولو لم يكن هنالك اسود . كان سلاحي في كفاحي الشباب والجد والطموح والذكاء – اي نعم الذكاء وساقص عليه اخباره – وكانت اعدائي الذكاء والجد والطموح متحالفة مع غدر الايام وغدر الناس ، وهوس الشباب وغلوّ التفاؤل ، والاسراف ، واثنان الناس من غير روية ، والاغراق في الطموح الى تطلب المليون بالمجازفة بالالوف فصمدت في عالم التجارة كاني راكب منطادا واهويت كاني قافز من طائرة وانا اليوم اصعد الجبل الف ذراع في اليوم وازلقه الف ذراع في لحظة . عيناي في الذروة وقدماي في الوادي – مهشم الجسد ، سليم الروح ، اعتاض عن نشوة الظفر بلذة الجهاد والامالي . اهل التجارة يعتقدون اني اديب كبير وبنو الادب يتوهمون اني تاجر ماهر وانا واثق ان الاثنين على خطأ وصواب .

صحت بصاحبنا مهلاً يا حضرة المؤلف اهزك بسؤال لتمشي خطوة ، فاذا انت ترمح ميلاً . فهلا حدثت قراءك – اذا اوقع الله بين يديك من قراء – بشيء عن بركات الحياة . قال لا اجيد الكلام عن البركات واعاف كلمة ب . ر . ك . لانها تفكرني بشيء مستكن ونفسي قلقة مشدودة الى رؤاص ولكني اقص عليك انباء اللمعات الاربع التي غشيت روحي ، ونشرت العشرات في سبيلي .

– وما هي ؟

– اولها لعنة « الذكاء » .

قلت تضايقني يا محترم . الا تخاف ان يرمي قارئك بكتابك اذ يراك تنعت نفسك بالذكي ؟

اجاب اصارحك ان قارئي ذكي يعرف ان في رياء التواضع المصطنع من الخيلاء والتدلل ما هو ابشع من المصارحة وان كانت مباهاة . وانا جاد اذ اقول لك ان الذكاء لعنة والانسان يفخر بما يكسب وليس بما يوهب ، والذكاء احبّه موهبة . اقول لك ان الذكاء لعنة . الا تسمعهم في لبنان اسبق ما ينعتون بالمديح احدهم بقولهم « فلان ذكي » كانهم قالوا انه كامل بكل معاني الكلمة . ان الذكاء لعنة لانه اقل الزايا اهمية . فالمثابرة ، والجد ، والاقتصاد ، والحرص ، والحذر ، والتوفير ، هي اهم من الذكاء بكثير ، ولكن الذكاء صفة وهاجة تبهر العيون ، واخصها عيني حاملها ، عن التطلع الى غيرها وتوهمه انه لا يحتاج الى سواها وبهذا كانت لعنتها .

كنت اماشي احد ماليي مهاجرينا ممن اصابوا النجاح المزدوج من ثروة واحترام الناس ، فسألته في ساعة تشتاق فيها النفس الى البوح الى النفس باسرارها ، ما هو سرّ نجاحه . قال يا بني ان في سؤالك جوابي . فلو كنت شخصاً غير عادي ذا ذكاء ونبوغ خاص لما سألتني هذا السؤال بل لعرفت من ذكائي جوهر نفسي . اما وانا رجل عادي بدماغه ، فقد جئت متوازن الجهود ، متسق التفكير ، وحالفني شيء من الحظ الى الوصول بي الى النجاح الذي انا فيه . انظر الى فلان وفلان . وهنا كرّ علي مسبحة اسماء ، كلهم اذكى مني واوفر علماً . ابن هم الان ؟ ان ذكاءهم ولد جم ثقة نفس صرفتهم عن تطلب الخصال الاخرى التي هي في النجاح اكبر شأناً .

قلت اقفز بي الى موضوع آخر او فاختصر .

اجاب المؤلف حباً و كرامة فانا للاختصار محب ، ولكني ككل دراماتي يفهم ان كتابه خليق ليمثل لا ليقرأ ، ويجب عليه ان يعوض على شاري الكتاب بشيء يُقرأ فصبرك ان وجدتني امط هذه المقدمة . وها انا اذكر تلك اللعنات الباقية

التي كبلتني . فثانيا لعنة الطموح . ولا تنس ان هذا الحديث هو اوتوبيوغرافي لذلك لا اقول شيئاً في كيف ان الطموح قد يتعجل ضحيته الى اختصار طريق النجاح فيسبب احياناً السرقة ، والجريمة او الاحتيال ، ومرارة النفس ، ويغمس عواطفك في سيال التحرق من الفشل .

– يعني ان روحك تسكنها العذارى من بنات الطموح لا بغايا فتياته ؟

– اخرس . . .

– عفوك انا واثق من كذبك ولكن سرّ في حديثك . قال ان الطموح يتعجل خطى المرء فيسبب في كثير من الاحيان هلاكه . وهذه اودية الحياة ملأى بالمشمين من الطموحين الذين ارادوا اعمارهم ان تكون قفزا من قمة الى قمة ، وما قطنوا الى ان معظم الذين يصلون القمة يتسلقونها مشياً على الاقدام .

– وزحفا على البطون .

– بل دبيباً على الذقون . وان دودة الارض في مثابرة دبيبها لأقرب الى مرماها من الجندب في قلق قفزاته .

صحت بربك عجل مخافة ان تفلس من التشابه فترجع بي الى مثل الارنب والسلحفاة .

والطموح – تابع صاحبنا – يشوّش على الانسان تفكيره فهو بكل شيء غير راض ، على الحياة ناقم ، مجازف بالقليل والكثير .

قلت عجل واغسل يدك من اللعنتين الاخيرتين . قال « لعنة الثقافة »

– يا غبن الزيت !؟

– ربما فالمثقف انسان ، رجل مثقف نصف ثقافة فهو بنفسه مغرور يعتقد انه فوق الناس وهو دونهم بدرجات غير انه بعيد عنهم في كل حال . ورجل مثقف ثقافة صحيحة ، فهو بذوقه ، واطباعه ، ومطالعاته ، وتفكيره ، فوق الجمهور ، اي عنهم قصيّ ، والناس يتبرمون بالاثنين . ولا تنس ان الحسد – على الرغم من كتب علم النفس – غريزة شاملة ، والمثقف محسود فهو مناوأ . بل ان حساد الثقافة

اشد اندفاعاً في مقاومتهم المثقف من حساد المال يقاومون الغنيّ لان الغنى ميسور، ولو نظرياً عن طريق اليانصيب، اما الثقافة فمن حرمها شاباً فقدها على الاجمال كُهلا وشيخاً، وسلاح الغنى يذل العدو، اما سلاح الثقافة فلا يقهر الا حامله . قلت لعنت ساعة تحدثنا هذه اللعنات فهاتِ لعنتك الاخيرة ، واختصر يا استاذ ان الاختصار هو روح الحكمة .

قال بل ساختصر ففي البحث في هذه المصائب المفرخ الجراح وهاأنذا اذكر اللعنة الاخيرة عارية — لعنة النجاح الباكر .

ويبينا لقد اخذت ببلاغة محدثي . وكدت انصرف من بين يديه مشدوها بمظاهر عمق تفكيره اولا فورة من النور غلبت على ناظري فاذا بجليسي يظهر امام بصري بحلة جديدة فقلت .

يا صاحب « نخب العدو » ،من الناس من اوتي براعة تنسيق السفسطة والباسها ثوب الحكمة ، وحاشاك الله ان تكون منهم ، ولكن هلا ذكرت الذكاء يقترن بسائر الفضائل ، وهلا عرفت الطموح يذكي مزايا النفس وينهض بها ، وكيف غاب عنك ان الثقافة وحلتها ملايين ، هم من قادة الدنيا ، وكيف تغسر ان المسح اسماء الدنيا من احياء واموات، اصابوا النجاح الباكر فشجعهم على الاسترسال والانتاج.

اجاب ، وقد بلع بريقه وحدجني بنظرة عداء ، مكانك فانت تبحث في النابغين، ونحن نتكلم عن سعيد تقي الدين .

— سؤال اخير يا استاذ . هل افهم منك انك في الحياة ترفع العلم الابيض وتعترف بالانكسار ؟ أنسيت لاعوام خلت كيف كنت تتطلع في الحائط وتصيح بي « بيني وبين الفوز هذه الروزنامة » ؟

— ولا زلت اعيد هذا القول .

ولكن عبارتك هذه ترهلت ، فاين هي اليوم تتدلى من فمك غثة ، منها بالامس تندفع من شفتيك لاذعة بنار الاقتناع ، مصقولة بريق من عينيك . بل اين انت اليوم وقد برز بطنك ، وهدأت خطواتك، وصارت كلمة « الحظ » تقترب الى

حديثك ، فهل اوفيت على مرحلة العمر اذ يعترف المرء بفشله بان يلوم « الحظ » من دنياه ؟ وهذه الذكريات التي اصبحتَ تلهج بها أليست هي الدليل القاطع على هرمك ، فمن شاخ اكثر التحدث عن ماضيه اما الفتى فحديثه ابدا عن غده . هذا مقياس العمر الوحيد. قال، غريب امرك يا هذا ! تشهد غماري في الجبال عن الذهب مفتشاً وتتهمني بالهدوء ؟ اما رأيتني اقضي الاسابيع في الغابات ، اخوض انهارها والتحف سماءها . مقتاتاً بقشر جوز الهند اجر ١١٠ كيلو من جسدي ، اذا كان هذا هدوءاً فما هي الحركة ؟

قلت يا محترم ، أمندفع انت في هذا الغمار ، بذلك الاقدام الذي رافق فتوّتك ، ام انت فاعل هذا تبرئة لضميرك امام نفسك كي لا تتهم همتك بالخمول ؟

قال انت جائر واوقح من مخبري جرائد اميركا .

وقد انتهت المحادثة .

فصافحت يمين المؤلف بيساري وانصرفت تاركاً محدثي ينعم باوهامه — وما ارفق الجهل باصحابه — حاسباً انه تمخض هذه السنين الطوال فولد رائعة وانه نام عام ١٩٣٤ قزماً ونهض سنة ١٩٣٧ عملاقاً وهو لا يدري انه :

« ناخ نوخة جمل وقام قومة هرّ » .

أشخاص نحب العدو

ليسوا وحدات مستقلة ولكنهم افراد من مجموع . كل واحد منهم له مزاياه الجسدية ، والعقلية ، والنفسية ، وله تاريخ حياة حافل بالحوادث فتعرّف اليهم كما يظهرون لك . خذ

— ام وسيم —

تعبد بعد الله ، وربما قبله ، ولدها وسيم . وتبغض قبل الشيطان « بني الحمصي » — قتلة ابي وسيم . شديدة العزم ، شديدة الذكاء ، والارادة . قوية الشكيمة . جزيئة ، ورعة ، تخاف الله وتستنجده ، وتصلي له ، وتأتمنه ، كأنه صديق قديم . والصديق يبغض عدوّ صديقه ، فالله فاتك في غاية الامر ببيت الحمصي ، حام لوسيم . تبغض كل من ليس من دينها ، او حزبها او ضيعتها . عبثاً تحاول تحويل اقتناعها اذ ان قوة النفس قد ارهفته ، فلا مساومة في معتقداتها . حزبية ، حذرة ، يقظة ، كثيرة الجد ، ذات انفة وكبرياء ، طاهرة من المجرفه . ضربة السيف لا تؤلمها ولا تفهم كيف تؤلم سواها .

حلفت ان تخنق « هدى الحمصي » بذائرها ، ولو رجعت « هدى » غير مقصوصة الذائر ، لماتت على وصفة « ام وسيم » . ثيابها جبلية ، نظيفة ، و كذلك اثاث بيتها . امارة بحديثها ، ابداً تصيح ، مدمدمة ، محتجة . كثيرة التحدث مع نفسها بصوت عال منذ الصغر . وزادت بها هذه العادة بعد ذهاب « ابي وسيم » فأي ارملة أحبت رجلها لا تشعر بالوحدة بعد فقده ، واي علامة للوحدة ، مثل تحدث الانسان لنفسه بصوت عالٍ ؟

خفيفة الخطى ، على شيخوختها ، نحيلة الجسم ، صلبته . ابغض الامور اليها الاكل والنوم . اقامت لابي وسيم تمثالا في عيني وسيم . فليس من مزية مستحبة في الدنيا لم يتحلَّ بها « ابو وسيم » . اما كيف كان ابو وسيم يضربها فامرٌ لا تحدث به الناس . ربما مثل « ام وسيم » امهات قيصر ، ووشنطن ، ونابليون .

— زليخه —

هيفاء كمحدلة الطريق ، صوت كأنه زمور . بهيمة بشرية . ضخمة الصدر ، هائلة الحدين ، منبوشة الشعر ، حولاء ، متدلية الشفتين . عبدة النفس بلهاء . احتل انفها زكام ابدي ، فهي ابداً تمخط بتنوريتها . ولكن في قبحها ، وخشونة سلوكها ، تناسب جمٌ بان يكون جمالا . قل عن زليخة ما شئت ، ولكنها خفيفة الدم مهضومة .

- ابو مرعي -

يقول لك فتيان « وادي الارز » ويبتسمون « ابو مرعي » ، عمي ابو مرعي ، بطل غير مجرَّب . قذيفة ديناميت لا تدري اذا كان بارودها مبللا . هائل الجثة — اما الهمة فلا تسلمها . لماذا لا يأخذ بثأر اخيه ابي وسيم ؟ وان كانت الظروف غير مناسبة ، فما باله ابداً يمصق كلمات من نار كلها توعد ، ويدمدم كلمات من دَمْدَم ؟ من الذي شهد بطش ابي مرعي ؟ اين كان حين « وقعة العين » و « معركة السنديانة » وحين تنادى الشبان ، في اخر الحرب ، وقاتلوا مفرزة من جنود الاتراك مهزومة ،

اين كان ابو مرعي ؟ وما هذه الواقعة في بيروت بينه وبين اربعة من« بني البترون»؟ من شهدها ، وشهد البطش الذي يدعيه ؟

وقد يكون شُكاته على خطأ او على صواب، ولكن اذا لم يشهد الناس منه بطولة فمن هذا الذي عرف عنه جبناً ؟ ابو مرعي – ككل رجل عظيم – فيه الكثير من اللمز والتناقض غير ان المعترف به عن ابي مرعي ، هو انه لبق في معاملة ابناء الحكومة. كل دعوى له او عليه ، ابو مرعي يربحها ، نبيل تجاه عائلته يموّنها ويقوم بحاجاتها . يحمل عصا الناطور شهرا ، وينتزعها منه ابنساء الحمصي شهرا ، والحرب بينه وبينهم سجال .

نار البغض لا تلتهب في نفس وسيم وهذا نقص لا يسامحه عليه ابو مرعي . ليس فيه من عيب جسدي الا انه ثقيل السمع .

— الدكتور نجيب —

تمشّط الدنيا فلا تجد له مثيلا .

صعب على الناس ان يفهموا الدكتور نجيب لانه عاش ثلاث الخمس والستين من حياته وانصرف عن الدنيا ولم نظهر نفسه عارية امام احد . فنحن نستنتج خصاله بما نرى من اعماله . محاولة صعبة وقد تكون غير مضبوطة . ولكن مـا الحيلة وفي الناس مئات يدعون صداقته ، وليس فيهم واحد آخاه . نراه في آخر مراحل العمر تطغى ارادته القوية على الجسم المتهدم فيسير بمشية عسكرية منصوبة توهمك القوة ، حتى تلمح كتفين خدلا ، وفكا يتراخى في غير ابّان الحذر ، فتعلم ان الرجل يقترب من مرقده الاخير . يحدثك عن مستقبله ، وعما سيقوم به من الاعمـال ، فهو سيزيد على المستشفى الكبير الذي يرأسـه جناحاً في السنة القادمة ، وجناحـا بعد خمس سنوات ، وعلى المختبر أشعة أكس بعد شهرين ، و . . و . . بعد عشر سنين ، وعلى الوف الكتب التي يقتنيها ، الوفا اخرى . فتسائل نفسك ترى ايعتقد هذا الانسان انه سيعيش الى الابد ؟ وتحاول ان ترمي عليه هذا السوال ، فتصطدم بنظرتـين من

عينين نصيحان « قف ».

تحسبه مبشرا حتى يتكلم، فتسمع من صوته نبرة امر طبيعية كأنه خُلق ليأمر. وشددت هذه النبرة سنوات قضاها استاذا في جامعة ، وسنوات كان خلالها ضابطاً في جيش .

لعل اعظم ما قام به عجيبتان – الاولى ان الجرائد العربية دعته نابغة وعبقرياً وكان بحق نابغة وعبقرياً اذ انه كان بدون ريب اعظم طبيب وامهر جراح عرفته بلاد سكانها ١٨ مليوناً .

والعجيبة الثانية ان ألسنة مواطنيه لم تنله بهجو فقد تعالى عنهم الى حيث لا يطاله لبيطهم . يعمل الخير بدون مباهاة كأنما فعل المروءة ، كتنظيف الاسنان ، شيء ضروري مألوف . يباشر سكان الذروة من المجتمع . ويجلس الى موائد العوام ، ويفعل هذا غير متصنع .

ولكانت سيرة حياته ناقصة لو جاءت فوزاً مستمراً لم يتخلله فشل . فالذي لا يعرفه الكثيرون أنه انقطع عن ممارسة الطب سنوات خمساً ، وانزوى الى منجم كانت نتيجته المالية فاجعة . في برهة تلك السنوات ابتدأ الناس يتحدثون عنه كه رجل كان » . لم تعد الايدي ترتفع للسلام عليه بالعشرات حين يسير في الشارع . ومن عرف عنه كيف كان يزدري المال ، وكيف كان ينفقه باسرع مما يكسبه – وكان يكسبه بالالوف – تصوّر كم كانت اليمة عليه تلك السنوات . الغا هل شكا ؟ هل تأوّه ؟ هل انزلق الى عالم الذكريات ؟ هل كان في لبسه وسخاء يده ، ونظراته ، شيء يدل على فشل ؟ جاءته تلك السنون ، في غسق العمر ، وفي غسق العمر ، قام الدكتور باعظم اعماله واسترد مكانته العلمية والاجتماعية ، وقفز في سلّم الحياة الى ارفع درجاته وقد ساعدته على ذلك – ولاعار – الاقدار . اذ انه في الساعة التي كان الدكتور بها يفكر كيف يسترجع مكانه ، كان مواطن يحمل المسدس لينتحر . فلما ان وصل الدكتور نجيب وجد . . . قد اطلق الرصاص على رأسه ، فاخترقت الرصاصة الصدغ الايمن وطارت من الصدغ الايسر ، وراح الدماغ يرشح

من الجانبين . الدكتور نجيب شفاه ، وشفى اسمه من صدأ بدأ يعلق عليه في هيكل الشهرة ، وابتنى مستشفى ، كان محجة كبار الاغنياء الذين يبذون شراء اغلى ما في الدنيا ، والمعدمين من الفقراء الذين لا يدفعون الا الشكر اجرة . وكان الدكتور يبهظ الاجرة على الغنيّ ولا يكتثر منها – على خطأ الناس في تقدير ثروته – الا شكر الفقير . فلم يخلف من المال ارثاً الا مكتبته وادوات طبّه ، وضمانة حياته . أرزانة تلك التي قطبت جبينه ام هي كآبة ؟ ما هذا الذي يحال شيخنا كأنه حزن عميق ؟ اي فاجعة مرّت به لم يأت خبرها الناس ؟ هو لم يقصر على الطب اعماله بل ألّف كتباً علمية ، ونظّم صفوف مواطنيه المهاجرين في جيش تفرق قبل ان يحتشد ، ورجع الى بلاده في محاولة سياسية لم يكلّلها النجاح . فهل استصغر ذلك العظيم محيطه ، والحقل الذي اشتغل به ؟ لقد احتك بشخصيات عالية ، فهل قايسها ، بصمت ، بشخصيته فوجد في نفسه تفوقاً ، فتأوه وقال لماذا اخذت زاوية انبرها ، وكان في وسعي ان املأ الساحة شعاعاً ؟ انا لا ادري الجواب ولا اعرف ان في الدنيا من يدريه ، ولكنّ استنتاجي يقودني الى الاعتقاد ان قد كان في الرجل طموح الى الظهور بمظهر عالمي كبحته الايام ، وان هذا الحزن الذي غاص الى اعماق نفسه ، هو نتيجة اقتناعه ان حياته – على شمول اعتقاد الناس باهميتها – كانت فاشلة باقتصارها على ميدان صغير جال فيه .

تحدثه عن لبنان وسوريا فيستسيغ الكلمات عنها ، كنوم يطبش بطبق حلوى ، فاذا ما وصلت من تاريخها الى بعد الحرب ، اجفل وصمت ، شأن من فقد عزيزا ، لم يمضِ على وفاته وقت كاف ، حتى يبيح لنفسه التحدث عنه . فهل كان بسبب حبه لوطنه ، وشدة مباهاته ، ذا احلام سياسية عظمى نكبته بها الايام ؟ اجتهاد في الاستنتاج ، ولكنه محتمل .

اما المظاهر التي تطفو على نفسه والتي يبصرها العيان ، فهي ما شاع عنه من لطف ، وانس ، ولمامات غضب ، وديمقراطية ، وبذخ ، وحب للتفاصيل متناهٍ ، وغم في المطالعة ، وغرام بقهوة « سودا، كالشيطان ، ملتهبة كجهنم » .

بالطبع كان يكثر من محاولة تنظيف نظارتيه بمنديله .

ـ الاغا وابنه ـ

يتقدم العمرَ ، كما يتقدم البقرةَ ذنبُ البقرة . ليس من احد يدري كم اردتْ « الزائدة المعوية » من نفس بشرية ، حتى اكتشفها الاطباء ، وعلموا انها بقية مصران كان ذا نفع في الاجيال السالفة واما اليوم مصدر كثير من الالام ، والالتهاب ، والفساد ، والاضطراب ، وان الوسيلة الوحيدة لمنع اذاها هو قطعها .

كذلك لن ينسى لبني الشرق الادنى ان يعرفوا كم انزل بهم ، البكوات ، والباشوات ، والمشايخ ، والمقدمون ، والاغوات ، والامراء ، من مكروه ، ولن يقدروا ان يبدوا قتلام ، حتى يفهموا ان هذه الطبقة من الناس هي « زوائد » كان لها نفع في الماضي ، واما اليوم لا تقوم بعمل ما الا المضرة ، وان الوسيلة الوحيدة لمنع اذاها ، هو قطع نفوذها .

على ان بني الشرق الادنى ساثرون نحو التفلت من اذى هؤلاء الطفيليين سيرا هادئا ، سيطول زمنه لان العنف لا يرافقه ، ولكن نتيجته واحدة محتومة .

« فالاغا » في هذه الحكاية طفيلي يغزو موائد الشعب ويتصدرها ، لانهم لا ينفقون على من يتصدرها ، وهو يعتقد ان تفوق مكانة عائلته على الناس امر مسلم به ، هكذا كانت الامور ، وهكذا يجب ان تكون . يتعلق بمكانته ، التي تدر عليه عيشه ، تعلقاً غريزيا كاطفال الحيوانات بالثداء امهاتها . ويتوسل الى ذلك بتفرقة القوم وتضخيم احقادهم ، ولا يؤلمه ضميره ، فهو يلعب لعبة هذه قوانينها المشروعة . اراد ان يعد للمستقبل وطوارئه فارسل ابنه الى المدارس ليتثقف ، حتى اذا تطالّ الى مراكز الدولة رجل من العامة ، كان ابن الاغا احق بالوظيفة . ولكن ابن الاغا اسّوته حياة المدينة وفسقها فطيّر البقية من اراضي ابيه ، ولم يتثقف ، بغير اداب المواخير وكان خلال ذلك « العوام » من « وادي الارز » اصابوا المال في المهجر ، والثقافة في الوطن فاين هو الاغا الان ؟

هو حيث يجب ان يكون ورفاقه « الباشوات » « والمشايخ » « والبكوات » «والامراء» والمقدمون » والطنيليون جميعاً – في « لا مكان » .

وماذا تنتظر ان يقلب ابداً بين يديه الا مسبحته الصفراء ؟ .

– راجي البيروتي –

الفتى النحيل ، المنرفز ، القلق ، الضجر – راجي البيروتي ، هو ابن «ابيراجي» ولا اقول « ابو راجي البيروتي » ، اذ ان بيروت منذ فتحها العرب الى ان اقفلها الارمن ، لم ينشأ بها الا « ابو راجي » واحد – هو رئيس البحارة ، ورئيس المينا ، وهادي البواخر الى امين مراسيها . ويظهر ان « ابو راجي » هذا نبت من نفسه ، فليس في بيروت عائلة تدعى «البيروتي» ، سوى عائلته ، وعائلته هذه هي هو وابنه . وما عاب ابا راجي انه قصير القامة ، نحيلها ، فابو راجي « قبضاي » صبوح الوجه ، سموح الكف ، قاضي البحارة اذا اختلفوا ، دائنهم اذا افلسوا ، قائدهم اذا مشوا في امر ، محاميهم اذا نشأ بينهم وبين القانون سوء تفاهم . وهو بلا ريب امهر بحّار عرفته بيروت . اما كيف شيد ابو راجي قصره ذا الاربعة طوابق ، وكيف ملك عدة مراكب شراعية ، وكيف عاش باذخاً كالامراء ، فليس من الصعب تفهمه ، فبنو لبنان وسوريا يعشقون الاساحة ، وفي مصر حشاشون ، ورجال الامن بعضهم متساهل ، وبعضهم يغمض عينيه اذا امتلأت يده ، وفي المآزق « هم رجال ونحن رجال ، ولعينيك يا ابو راجي » .

وراجي طبعاً لم يخلق من ابي راجي وحده فاين هي ام راجي ؟ سؤال اذا القيته على حلقة بحارة يدخنون النراجيل في مقهى «الانيلوتي» صمتوا ، فاذا الحجت قالوا الموت غير نقّاد ولكنه في بعض الاحيان عادل ، والمدعي العام لم يثبت ان جثة المرأة كانت جثة ام راجي ، ولا ان جثة الفتى كانت جثة « خرطبيل الافقعي » . ولعن الله كل من عابث ، ويبصقون ، ولعن الله النساء اجمعين ، ويبصقون ثانية ، وابو راجي رجل شريف ، وبخاطرك يا افندي » .

كان راجي في الثالثة من عمره حين فقد امّه واعاضه ابوه عنها بمرضة . ولكن شديد عناية المرضة وكثرة الدمى التي اعطته اياها المرأة اليونانية « طاهره » تلك التي تسكن الطابق الاعلى مع ابيه ، لم تعوض عن حنان الام ، خصوصاً وقد نبا عن راجي « ابو راجي » ومن يدري ان لم يكن في اعماق نفس الاب شك عظيم ، مع ان راجي صورة ابيه المصغرة . ولكن يكفي ان يكون الطفل من دم تلك التي عابت ، « ابصق معي » حتى يكرهه ابوه ، وهنالك « طاهره » الفتاة اليونانية ، تشغله لياليه وفي المرفأ بواخر ، وفي عرض البحر عاصفة ، وفي مخدعه عواصف ، غير ان ابا راجي جواد ولعله اراد رشوة الخفير في نفسه حين اغدق على راجي المال فشب انيقاً يلبس على الكاتالوك كثير السيارات ، والعشراء ، مسرفاً ، خليعاً ، يقال ان لبس في مواخر بيروت مومس تجهل الوان بيجاماته ، وهو ربيب المدارس بالطبع . كان في المدرسة كغريب يسام في مأتم شخص لا يعرفه غير ان راجي ذكي الفؤاد فكان يماشي دروسه فما وجهه استاذ ولا اعجب به استاذ . اما اندفاعه في ملذاته ، فكان تهرباً من بيت فقد الروح العائلية ، ولاشباع عطش في نفسه ، ولكل شيء نهاية ، فقد تبرّم بعيش البذخ والترف ، والمتنا ، ومل عشراءه ، وحياته ، ومومساته ، وسياراته ، وحجّر عواطفه ، وطوح به الى الاستخفاف بفواجع الحياة ومهازلها ، فاجمة ابيه « فطاره » هربت مع ظابط في الجيش فتى ، وماذا تريد « طاره » (ابصق معي) بعد من ابي راجي ، وقد كثرت ثروة من نقوده وجواهره ، وشاء حكم الدهر ان يمرّ با على باخرة يقودها « ابو راجي » من المرفأ الى عرض البحر ، ولابي راجي عيون على البواخر ، فما افاد الحبيبين تسترهما في غرفة منعزلة ، اما كيف انفجر صندوق الديناميت وكيف غرقت الباخرة بطاره وبحبيبها وبابي راجي ، فلغز ما حلّه البوليس البحري ، وفي بيروت اليوم بحري شيخ يدخن الاراكيل ، ويعرف الكثير ، ويقول لك من هتك العرض وفاته السكين ، يناله الطوربيل .

وكان بيت أبي راجي من تلك الصروح التي تنهار مع بُناتها . وكانما قيل لراجي ان سعر الشمس ارتفع ، او ان الامطار هطلت في الزنجبار حين قيل له ان اباه

هلك ، فالدنيا ما عادت تجيء لراجي دهشة او انذهالا ، كذلك لم يفتـه حجز « اسحق ابراهيم السلطي » على املاكـه تسديداً لسند ضخم ادعى ان اباه وقعـه، فحينما دخل مأمور الحجز من الباب ، قفز راجي من النافـذة ، ففي بيروت غرف كثيرة يستطاب النوم فيها .

وطبعاً لم يسكت رجال ابي راجي عن تسلطن اسحق ابراهيم السلطي فكـثرت الاحاجي حول ذلك المالي . من ارسل له تلك الجمجمة في البريد ؟ من سمم لكليبه الشهيرين ، لماذا كثر دوي الديناميت – وبيته على البحر – قرب بيته ، لماذا يكويه البحارة بنظراتهم ويبصقون ؟

الى ان نادى اسحق راجي وقال له لك مني ١٠٠ ليرة شهرية تستلمها ما حييت فاذع الخبر بين الناس فانا لابيك وفيّ .

هكذا كان راجي حين عانقت نفسه نفس وسيم الحموي . فوسيم، كما سترى ، هو نقيض راجي في كل شيء . وللنفس انعطاف على النفس اذ تحس ان فيها مماثلا ، ولكنها تندمج وتتلاشى في النفس النقيضة ، اذ تستشعر انهـا وقعت على ما ينقصهـا من خصال ، فتنجذب النفس الى النفس ولا تنفصلان كانهما اوكسجين الماء وهيدروجينه ، فـلا عجب اذا رأيت راجي ووسيم بلغا في الالفـة ذروة الاخوّة اذ يصبح حديث الصديق للصديق شتيمة ، وسخرية ، وتهكماً ، ودعابة وقد يكون راجي اشد اندفاعا في صداقته من وسيم اذ انه حُرم حب الام ، وما وقع في حب امرأة ، وطافت عليه العطايا فما هو بطموح ، اي ان كل منازع نفسه مكبوحة ، فلما جاءت اخوّة وسيم ، طفت عواطف نفسه في مسالكها وانصبّت في اخوته لوسيم . وراجي هذا ليس من المرح كما يريـد ان يظهر فهو يتستر بالمزاح كي لا يُظهر اثر جرح عميق . وهو في جوهر نفسه دهري (١) لا يثق بالناس ، ذو سليقة صـادقة في بني الانسان . غير انه وجد في « وسيم » صديقه وزعيمه فرضي ان يقاد من غـير ان

(١) تعريب Man-of-the world اي المتمرس بالحياة ، العريف باسرارها، يقابلها في لغة التجار « ابن سوق » .

يشترك بسوق سيارة الحياة ، باكثر مما يشترك الجالس الى جانب الشوفير – « اخطأت . عجل . تمهل . كنت قتلتنا . » لم يرث عن ابيه بأسا ، ولا طيشاً ، عيناه ابرتان من نار .

اذا تزوج راجي فتاة تحسن سرجه ، وتجيد ترويضه ، ركض وخلّف جمهور الناس بعده باميال ، ولكن راجي اعقل من ان ينهز نفسه ، وصعب عليك ان تجرّه فيموت رجلا « كان في وسعه ان يكون . . . »

– وسيم الحموي –

اصحيح ان بني لبنان بانفسهم مغرورون ؟ العجب لو انهم كانوا غير مغرورين . يخلق طعلهم على صوت الاهازيج ، والبارود ، يتروح على الحان الدبكة ، يدفن على موسيقى الندب . يمرض فيعوده المئات فهو ابدا مدار اهتمام الناس . خراج الضيعة اللبنانية هو الحد الذي يفصلها عن الدنيا . الدنيا ليست مهمة . الضيعة هي كل شيء . وفي الضيعة ،دفن الجدود ، وفي الضيعة ملك اللبناني ، بل كما يحق يدعونه « رزقه » . قد لا تكون ارزاق الواحد منهم واسعة ، او غنية ، ولكن فيها ابدا شيء غير عادي يفوق اعظم شيء في الدنيا . قد يكون فيها اشهى عنقود او اطول حيّة ، او اكبر صخر ، او مطار اكبر سرب حجال ، واذا ندر فحرم شيئاً من هذا فلا بدم ان يكون بين اجداده رجل عظيم . حدّث اي لبناني عن عائلته يبادرك « جدي كان ذراع الامير بشير . جدي قتل الضبع . جدي يحفن الجمر بيدين عاريتين . جدي قاض ، قائد الخ . . . » فهذا التراث الحقيقي او الموهوم او المزيج من الاثنين يخلق في اللبناني مركب(١) تفوّق يتهرّأ الى الغرور والخيلاء في البعض ، ويُصهر الى اتزان في الاخرين ، ولا تنسَ ان للبناني داءً اعداءه ابن المدينة في وسعه

---

(١) – تعريب Superiority complex

ان يعيش كانه شغب في حائط . امّا ابن الضيعة فهو من الاهمية بحيث يكون له اعداء ابداً . والعداء يثير ، فيما يثير ، التهالك على التفوق . عار عليه ان يفشل لا لان الفشل عار بنفسه بل لان اولاد العائلة الفلانية او الحي الفلاني يشمتون .

فوسيم الحموي اذن حين طلب العلم في مدينة بيروت كان على شيء من الخيلاء برّرته انتصاراته المدرسية ، وخففت من غلوّه انه كان في نظر رفاقه ابناء المدينة « حبلي » فقط لا غير . فابن الضيعة ، في المدينة ، عليه ان يفوز بالكثير قبل ان يتخطى ذلك الحاجز الذي يَقفِصه في عيون ابناء المدن ، الى ذلك المستنقع الوخم الذي يسمى « الضيعة » . ووسيم كان طفلا حين قتل ابوه فجعلت له امه من ابيه مثلاً اعلى يباريه . ابو وسيم كان اشجع ، واذكى ، واشرف ، خلق الله . اذن فعلى وسيم ان يكون كابيه . حينما سمعت ام وسيم ان ابن الحموي اجريت له عملية « البحصة » في بيروت — « بحصة ، هاه ! » صاحت ام وسيم وانتزعت من صندوقها حجراً كالليمونة وقالت « هذا الحجر اخرجه الدكتور من مبولة ابي وسيم . وهو اكبر من اكبر رأس في بيت الحمصي » .

لهذا نشأ وسيم ، وامامه ابوه المقتول ، مثل اعلى يتحداه . شديد الثقة بنفسه فوّار الطموح . تأدب فانصرف الى النوع الخطر من الادب ، ذلك الادب الذي ينوي صاحبه الى ان « يعيش » ادبه بدلا من ان يقتصر على ان يكتبه فقط . هادىء فاذا ثار انقلب الى زوبعة ، كثير التخيّل والاحلام ، لو جاءت مشاريعه الادبية والتجارية ساسلة لوصلت جهنم بالجنة ودارت حول الارض ٤٠٧ مرة . وفيّ يحب راجي حب الصديق ممزوجاً بعاطفة ابوّة ، فراجي بنظر وسيم طفل قوي الجسم ، رزين الا في ساعات الدعاب ، نوره ليس بمصباح دائم الشعاع بل هو اسهم نارية تنفجر بدويّ عظيم وتلمع في السماء لمعات جميلة متقطعة ، وبين اللمعة واللمعة ظلام كثيف . فهو جواد فتيّ ، جموح ، صبوح ينقصه الكثير من الترويض ليصلح للقزول الى ميدان الحياة واخاله الشوط في طليعة الجياد . ورث عن امّه التحدث لنفسه بصوت عال .

اذا بلغ الهرم فقد يتزن الى نابغة ، غير انه من اولئك الفتيان المتوهمين الذين لا اقول يمونون باكرا بل يُصرعون باكرا .

ـ فرج الله ـ

ذلك الهائم الالماسي الذي تلاعبه اصابعه ، والذي يضرب فصّه الكبير الطاولة حينما يحتد فرج الله هو الدليل المنظور على غنى هذا الرجل ، وتبذّل نفسه . سمين كثير الشحم ، ناعم الحديث والمضلات . في كلامه تزق الحبن . له شاربان مخضرمان اذ هما همزة الوصل بين الشوارب العتيقة ، والمتطرية الحديثة . لا اذكر جبداً اذا كان له لحية اسطبولية تنبسط على وجهه كأنها حصيرة ، او ان على ذقنه عشرات من الشعرات ، غير اني طالما تمنيت ان اغزل منها ومن شاربيه خيطاً اشده على عنقه . عيناه مزحتان زائغتان . ليس في الدنيا شيء لا يعرفه ، وهو في صيده الدولار ، خاض مستنقعاً من دم ، وحراثق ، ودمر بيوتاً كانت عامرة بالثروة والسكان . على انه على ساديته (١) او تذلبه لا يوقع المضرة بأحد الا اذا كان له منها فائدة ، وهذه الفهفة الميكانيكية المسعولة (٢) هي صدى الفرح في نفسه فقد غالب الحياة وحيدا ، وانتصر على الحياة فهو يستخف بالناس والدنيا وبكل شيء ولكان يستخف بنفسه لو جهل قوتها ولكن فرج الله لا يجهل شيئاً .

تلعن فمآين (٣) .

قد يبيض شعره وتسقط اسنانه فتلقاه ولا تحلم بان تناديه « عمي فرج الله او خواجه فرج الله » ومن قال لك انه يطلب الاحترام من الناس ؟

---

(١) – تعريب Sadist اما التذلب فهي عصير « استلذ – التعذيب »

(٢) – هل رأيته الا وسيكارة بين اصبعيه ؟

(٣) – اي صار صاحب مليون .

ـ طعان ـ

طعان الحمصي يعجب باثنين–عنترة العبسي،والضبع . و كأن اعجابه بهذين المخلوقين انبت في طعان الكثير من خصالهما فله مشية عنترة وبأسه وله قوة الضبع«واناقته» .

كان طعان يوم مقتله دون العشرين ، وهي السن التي جا يثبت الجبلي بأسه ، وينشر اطروحة الرجولة على الناس،بان يبطش برجل ما . فطعان تراه اما قاصداً الى معركة او راجعاً من معركة . ولكن قلّ من قويان يقف في وجهه . كان طعان(قبضاي) « وادي الارز » غير منازع . لم يدخل المدرسة ويحتقر كل من دخلها فهي في نظره مؤنثة الرجال . بليغ الخطاب ويعرف من نفسه البلاغة ويعجب بها . كان طعان يفلح ارضه ويزرعها حتى صارت امه ترسل له البوليصة الشهرية من المهجر اذ ذاك انقطع عن العمل . لا تصدق ادعاء اللبنانيين بشغفهم بالعمل . الشرقيون كلهم ما عدا اليابانيين لهم امنية واحدة في الحياة – البطالة والراحة . ومع البطالة ينبت القال والقيل ، وتزداد اقداح المسكر . وقد تضافرت هذه العناصر الثلاثة فساقت طعان الى حتفه . ابق هذا الخبر بسرك كان سمجاً رحمه الله .

ـ رشيد ـ

طفل في الخامسة والثلاثين من عمره . ربّته « الماما » وقد تتخيله في الثانين يلاعب صبيان الحيّ بالكلل ويستنجد « بالماما » اذا خطفوا له كلته الزرقاء . عقل عصفور في جسم عجل . مفصوص الصوت . امّ اعماله اليومية ثلاث « وقعات » هائلة يأكلها في اليوم الواحد .

بالطبع يضيف الى اقأفته محاولة تقليم اظافره باسنانه . يقال ان شعره يقص مرة بالشهر ولكنها اشاعة تنفيها المظاهر .

ـ هدى الحمصي ـ

ام طعان وساره ، هاجرت « وادي الارز » مع زوجها بعد واقعة « السنديانة»

الشهيرة التي قتل بها ابو وسيم ، اذ نضبت الاموال في الضيعة لكثرة مصاريف المحاكمات وصارت البشة جهنا وهدى خائفة ابدا من ام وسيم تخنق هدى بغدائرها فلما وصلت « غرانبلا » ووجدت ان النساء هناك مقصوصات الشعر ، رمت بغدائرها فرحة كأنما هي رمت بحبال مشنقتها قوية الجسم نحيلته ، ليس فيها من الذكاء شيء. متقلبة الاراء ، مدعوسة الثياب معدومة الانوثة . الظاهر انها لم تحسن رباط بعض البستها الحميمة فهي دائماً تنهض تنورها .

بنضها لبيت الحموي عظيم ولكن الهجرة لطفته فهو جمرة صغيرة تكاد تنطفىء تحت كومة رماد . ضعيفة قوى النفس في كل جهاتها ، اذاً فلا تعجبنّ من ميزان مقاصدها وتناقض افعالها .

ـ المهاجرون ـ

ـ ٦ ـ ١ ـ

البشر ارقام واصفار . وماذا تنتظر من مستعمرة لبنانية في المهجر فيها ارقام ضخمة كالدكتو نجيب ، وفرج الله ، وسارة ، وراجي ، ووسيم ، وشمدص ان يبقى فيها اذا استعرضتها الا الاصفار يشبه الواحد الاخر كما تشبه حبة الفول حبة الفول . تراهم في ليلة العيد يتعمدون اللهو واين المرح الطلق الصافي من نفوس تتكالب على الرزق سبعة ايام في الاسبوع وست عشرة ساعة في النهار، ولا تنسَ انهم مضاربون، بعضهم لبعض اعداء كلد. يتوهمون ان كل ريال يربحه الاخر يختطف من يد مواطنه ، يعرفون انهم اغراب عن موطنهم اذا عادوا اليه، اغراب عن مهجرهم وهم مليونان فيه ، وليس لهم من وطن صحيح الا هذه الوحدة في الاذواق التي تلتقي في امور سطحية من مأكل ومشرب ، ومغنى – ولا ترد على هذا فقد ينمزق الكيس وتتذرى حبوب الفول وتتباعد الى حيث يستحيل جمعها ثانية .

ـ شمدص جهجاه ـ

يغطس في الماء فلا يبتلّ . شمدص ليس له في الدنيا عدو . ومن ليس له عدو

فتى الغالب ليس له صديق « شمدس صديق الناس اجمعين . ولكنّ لنفس شمدس حدوداً لا يتخطاها بشر صاحب مروءة اذا كانت المروءة لا تكلف عملة . لا يقرض ولا يستدين . يصل الى الامور بدون ان يتخبلها . عدته تجاريب اكتسبها في لبنان يوم كان يكاري على بغل شموس اسمه « زهران » في بلدة ساحلية يحمّله الجرار والابارين الفارغة من معمل الفخار في « خلده » الى « صيدا » . وكان يقول : « من عرف ان ينقل الفخار سالماً على بغل شموس مثل « زهران » فقد عرف ان يفعل اي شيء في الحياة » .

شمدس يعرف اكثر مما يُظهر . لا يدري احد كم من المال معه ولكنّ ذكاءه وحرصه كفيلان بان يكون معه اكثر مما يُرى . ساذج لا يحب التصنع فحديثه وثيابه وكل شيء فيه طبيعي . يعجب بالناجح لهذا يحس في نفسه شيئاً من العطف على فرج الله ، خلق ليكون رجلا في جمع ويكره ان يكون كتفه اعلى من اكتاف الجمهور . مظهره الشخصي ؟ قصير . عريض الشفة العليا ، ضخم السفلى . قوي الجسم غير انه لشدة ما نزل به من متاعب يخرس عن سردها ، شاخ وهو في الخامسة والاربعين . محمد الجبين ، مقوس الساعدين الفقرية عند الكتفين . هو اللبناني الوحيد في مهاجر الدنيا الذي لا يدّعي امام الافرنج انه من « بيروت » وان عائلته ذات املاك واسعة في الوطن القديم ، وان رئيس الجمهورية ابن عمه ، واخواله وزراء ، واخاه « مارشال سوريا » وان المجلس النيابي اللبناني يعقد جلساته في مقعد ابيه وان اجداده باريسيون توطنوا سوريا زمن الحروب الصليبية .

سئل شمدس ما هي فلسفته في الحياة فأجاب « كنت اغني عتابا » اذا شمس البغل « زهران » واغني عتابا اذا عثر « زهران » ، واغني عتابا اذا اوصلت حمل الفخار الى المدينة سالماً . ففلسفة الحياة هي ان تغني « عتابا » دائماً . شمدس من المهاجرين الذين يرجعون الى بلادهم بعد عشرين سنة هجرة وليس في حديثهم ولا طريقة تفكيرهم انهم ابتعدوا عن موطنهم اكثر من عشر دقائق .

الشاهدة هم هيكل عظام الامم وفلاسفتها الصامتون .

- ساره -

قالت لي ساره وقد قرأت دورها في «نخب العدو» . اهذا كلّ ما تعرف عن قلوب العذارى يا محترم ؟ اتحجبني عن الجمهور طيلة فصلك الاول ثم تبدأ الغرام بالزواج ، وتنطق شفتيّ بنزل اترلف به الى فتاي ، وتحرمني حتى قبلة من زوجي او حبيبي ، وتقيم من نفسك داية فتوالدني بين نزول ستار وارتفاع ستار ؟ أم تجد ضمة ورد تحمّلها حبيبي فيطرحها على قدمي ، وتطوي ركبتيه فيركع امامي ويتهدد بالانتحار ؟ لماذا لم تخلق لي « نذلاً » يريد اغوائي ، و « بطلاً » يقحم النار من اجلي ؟ ومالي احس بالعبارات المنصوصة تملأ فمي ، والرسائل العليا اشعرها ولا اتكلم بها ؟ اتدعي معرفة لغة العرب وتعجز عن بيت غزل ، او عبارة ناعمة ترسل بها الي ؟ اين كانت جنيتك يوم مثلت امامك ؟ امكن ان تكون والذين تنزلوا « بليلى » من امة واحدة ؟ قلت ان بينك وبين الذين تنزلوا بليل اودية وجبالا ودهورا من ليالٍ مظلمة ولئن اتفق فالتقيت بقافلتهم فستجعل جمالهم من دخان بقرين سيارتك التي تخطين ، وستسدين انفك عن رائحة ابلهم . سلي ليلى تخبرك كيف عركواشفتيها ، وجففوا بتبذلهم ريقها ، وشوهوا خلقها . لقد شاخت ليلى في صباها من رائحة البارود وآلام منظر الدماء وجثث العاشقين . انما نكاد نجن من تفريع الضمير اذ يذكرها بتلك السهام التي مزقت بها القلوب . لقد تعبت من النظرة ، فالابتسامة ، فالسلام ، فالكلام ، فالقتال ، فالزواج ، او الانتحار . اما انتِ فقد ظهرتِ الى الناس وعشيقك مسروج ، اليس الزواج قبلة الفتيات ؟ تخور قواه ، فتجعلين منه مقاتلا ، ويعرض فتوآسيه ، وتبغضك وتبغضه امك فتراضيها ، وتلبسك اثواباً عصرية وخصالا طبيعية ، ونظهرك على المسرح بحيث لا تخجّل فتاة من فتياتنا تمثيل دورك على المسرح فماذا بعد هذا الذي تبغين ؟ اما طفلك فرويدك حتى يشتد ساعده ، فسأرقص له النساء في الشوارع ، واقيم له التماثيل في الساحات وافرش باللآلىء طريقه وسيقول الشعراء

فيه من الشعر أكثر مما نظموا « بليلى »، انك لم تعلمي ايّ رجل انجبت حينما ولدت بين ارتفاع ستار ، ونزول ستار ، طفلك « فوزي » (١) قالت هوذا اهانة جديدة فاغراؤك اياي بمستقبل ولدي دليل على انك لم تنصفني وها انت تكفّر عن تقصيرك باغداق النعم عليّ بِبُنِي. وسكتتْ وسكتُّ وتلاقت العيون فضحكنا فاهين.

بل ستبقين يا ساره لغزاً فليس خالقك شاعراً يسكنك الجنّة التي يريد ، ولا مصوراً يعلق اطارك على الحائط الذي يروق له . خلقت لتختالي على مسرح فانت بحكم حرفتك مقصورة الازياء على ما يروق نظارتك . واخاف عليك ان انا كشفت نقابك الكثيف ان يرجمك اناس ويعبدك اناس ، ألا فلتكن كلماتك مخنوقة فان الذين يفهمون يسمعونها وان كنت عنها صامتة ، والذين اصمّ الله اسماعهم فلن يعوا رسالتك بل يستشيطوا ، لتكن نفسك مغلّفة بالظلام يتخيلها كل انسان كما يريد ويشتهي . وما احسست « بشرقيتي » مثل هذه الساعة فها ان داري تحفل بام ، وشكلي، وطبيب، وجمع من تجار ، ومغامرين، وقرويين، ومهاجرين، وقلبي لايضطرب الا عليك . ان الفتيات نقمة الاباء فاخرسي ولا تستفزيني وخرستْ ، وخرستُ ، وتطلعت الى دخان سيكارتها فهمّت الكلمات ان تنفجر من بين شفتي لولا ان خارت في تلك اللحظة قواي اذ تحققت ان « ساره » التي اردتها لغزاً على الناس ارتدت لغزاً عليّ . وما عزائي في هذه البلية الا اني وجدت في « ساره » الشرط الاول في انوثة النساء الا وهو « اللغز » اذن فهي امرأة ولو جاءت غير ما صوّر الفنانون .

ـ ظطام ـ

يلثغ بالسين ، والصاد ، والزاء ، في الثالثة عشرة من عمره ـ العمر الذي يحلم به الصبي الاوروبي بلبس البنطلون الطويل ، واستعمال موسى الحلاقة . اما ظطام فيحلم

---

(١) ـ فوزي ـ هي مسرحية تحت التاليف ستكون الرابعة في سلسلة درامات المؤلف، والفصل الثاني لـ (نخب العدو).

ببارودة موزر ، وبفرصة يجندل بها احداً من بيت الحمصي ، شديد القوة والبأس ساذج ، همسه صياح ، وسيرة حياته عراك وضرب احجار ، وصفعات تلهب رقبته من عمه ابي مرعي ، وياظظام اسق الحمار ، واطعم الحمار ، واحمل التبن من البيدر للقبو ، فالحمار وعمه مرعي نوأما مصائب يلبسهما كما يلبس اذنيه .

الفصل الأول

المشهد الأول

« عايّة » في بيت من بيوت « وادي الارز » ، لبنان ، وهذه « العلية » اللبنانية ليس لها نظير في اي مسكن من مساكن الدنيا . فهي اذا مدّت فيها المائدة اصبحت غرفة طعام ، او اصطفت فيها الكراسي صارت غرفة استقبال ، واذا تثاءبت فيها الفُرش امست غرفة نوم . في حيطانها عناير صغيرة كل واحدة تدعى الكواره اختبأت فيها مؤونة الشتاء من غلال وما اشبه وانت لا تعرف ان في الحائط كواره لولا الثقب المدور الكبير ، تسد فوهته كمامة من خرق . يتوسط هذه العلية عمود يتهدل منه منزل صوف ، وتتوجه روزنامة كبيرة واضحة تستلفت الانظار تعرف منها اننا في ٢٧ ايلول من سنة ١٩٣٠ . كذلك على العمود « مدك » ومرآة وساعة دقاقة يسميها الافرنج « ساعة جدي » . في الحائط الذي على يمين النظارة مكتبة صغيرة أما الحائط المقابل للنظارة فعليه صور العهد القديم من رجال

تقصف شوارجم ، وصور ملكات . وبين هذه الصور واحدة لجنرال ممتطٍ حصاناً ازرق . كذلك يوجد « مشكلة » مثلثة الزوايا عليها اساجة قديمة من جفت ، وبطقان ، وسيوف ، وحراب . يتوسط هذا الحائط نافذة عليها آنية زهور فيها نبات الفل ، والورد ، والزنبق ، والحبق . حصيرة وبساط وسجادة تغطي الارض . قرب العمود « دهليز » بابه جزء من ارض العلية يفتح ويغلق . كل شيء نظيف بل انيق . وعلى فقر متاع « العلية » يشعر الناظر ان وراء مظاهر هذا الفقر كبرياء صابة وقوة معنوية هائلة . تسألني وكيف لاثاث بيت ان يظهر « قوة معنوية هائلة » او ضمة سكان ، اجيبك وكيف لعين في صورة يبرق منها شعاع الحياة ، وثانية يخبو فيها الضياء . وقوفاً من ان نسترسل الى فلسفات ، نجيل النظر ثانية في العلية فنجد انه ليس من جو تلك الغرفة حقيبتان استندتا الى العمود يعرف الناظر اليهما من جدتهما وجودة صنعهما ان صاحبهما ابن مدينة . في زاوية العلية جرتان ودويك وابريق . يرتفع الستار ، وقد آن له ان يرتفع ، فاذا بأم وسيم تهيء ثياب شاب فتمد الكلسات وتكوي القمصان ، وهي تتمتم ، مهمومة ، تزفة ، ثم تمشي الى الروزنامة وتقف امامها تعد الايام ، وتقلب الورقات

أم وسيم ــ ٢٧ ايلول سنة ١٩٣٠ ، ٢٧ ايلول سنة ١٩٣٠

(ويمر نظرها على صورتها في المرآة فتقول) ما بقي من العمر اكثر مما مضى (وترجع تحوم في زوايا العلية مقوّمة حاجة هنا ، مرتبة متاعاً ، هناك الى ان تنتهي الى الجرتين فترفع الاولى ثم الثانية وتقلبهما فاذا هما فارغتان فيشتد حنقها وتنادي)

أم وسيم ــ زليخه . زليخه ، زحّك الله ايتها اللعينة النّهمة . افتنامين النهار كله الا ساعات الاكل . (لا مجيب)

زليخه ، افيقي يا عاهرة ، (تدق بعصا على الارض) انهضي من نومك يا خائنة ، ادجاجة انت فتنامين قبل المغيب (صوت خافت من يسار النظارة ، وحكلات مخنوقة يعرف منها ان مصدر الصوت شخص كسول ارغم على الافاقة من نوم هنيء)

(تدخل زليخة متكلمة ، متثائبة ، فلا يفهم من كلامها المخنوقة شيء ، ثم تخط في مربولها وتتطلع الى المرآة تصلح من شأنها وام وسيم خلال ذلك منفعلة ، مغرفزة ، تصب شتائمها على تلك القطعة الهائلة الباردة من حيوان)

ام وسيم — اي نجم جهنميّ كان يشعّ عندما وسّختِ وجـــه الارض بهذه السحنة الشمطاء ، يا لئيمة ، انزل الله عليك التيفوس ، والجـــدري ، والعمى ، والطرش ، والشلل ، والسرطان والاستسقاء . (تشدها بغدائرها) افيقي يا خاملة . افيقي .

زليخه — (تفتح عينيها) امرك يا ام وسيم .

ام وسيم — وسم الله الدم على قلبك يا بقرة . غابت الشمس وليس في الجرة نقطة ماء . افنوتوي من رؤية وجهك يا فاجرة ؟ وفي البيت ضيف من بيروت .

زليخه — الله يقطع الضيوف ، ويدمّر بيروت .

ام وسيم — ماذا يشرب الضيف اذا طلب ماء ؟ آسف ان اضعفني

العمر فلا اقوى ان اطحن عظمك بيدي . (تمسك بها ثانية وتعزها) (زليخه تبكي وتتألم . آخ . آخ) متى جاء ابني مع ضيفه ، متى رجع وسيم ، سأقول له ان يدق عنقك يا خاملة . كيف تقضين النهار ؟ انوم ، وغناء ، واكل ؟ لماذا لم يخلقك الله ، ولا اعتراض على حكمه ، حيواناً تدبين على الاربع بدلاً من مشيك على اثنتين ، اذاً لحرثنا عليك بدلاً من الثور . انهزمي الى العين . (تناولها الجرة) وارجعي بها مملوءة . غابت الشمس — يا ليتك تغيبين معها ولا ترجعين .

زليخه — آخ يا ام وسيم . بالله عليك يا معلمتي . دخلك . ارسليني الى جهنم ولا ترسليني الى العين .

ام وسيم — (تعزها ثانية) انا ارسلك الى العين والله يرسلك الى جهنم متى دنت ساعتك . هيا الى العين .

زليخه — دخلك يا معلمتي . لا اريد الذهاب الى العين . اني كلما التقيت على العين بنساء عائلة الحمصي يهزأن بي ويسألني صبيانهم « يا زليخه ، يا خادمة ام وسيم ، ان معلمك وسيم ارشد وشب ، متى يأخذ بثار ابيه ؟ » فيضحك كل من سمع . والبارحة قالت لي ورد الحمصي ساخرة : اننا نوصد الابواب في النهار

خوفاً من بطش وسيم الحموي . كل من رآني يهزأ بي . كلهم يسألونني متى يأخـــذ وسيم الحموي بثار ابيه . لا ترسليني الى العين يا ام وسيم .

ام وسيم — (حديث زليخه يثير في نفسها الهواجس ، فيثور دماؤها وينعم صوتها ، وترتجف فزعاً فتضع يدها على كتف زليخه برفق وتقول) زليخه بنيّتي ! كنت يتيمة منذ صغرك .

زليخه — بل منذ طفولتي . انت التي ربيتني وحميتني اطال الله عمرك يا ام وسيم .

ام وسيم — انا احنو عليك حنوي على ابنة لي (زليخـه تذوب سذاجة) . فافعـــلي ما اقول لك . لا تشاكسي بيت الحمصي ولا تقاتليهم . لا تكترثي بهم ولا تجيبي على هزؤهم ، لا تحركي عش الدبابير . (ممددة) ولا تـذكري كلمـة لوسيم عمـا يقولون ، ولا تخبري احداً من اقاربنا به . أفهمت ؟ انه اذا وقعت الواقعة بسببك بيننا وبين عائلة الحمصي (ترجع الى لهجتهـا الاولى) سلخت جلدك حية أفهمت ؟ اذهبي الى العين .

زليخه — (خائفة تخطف الجرة وتتطلع الى المرآة بنظرة غنج ودلال فتبتسم وتنصرف .) (ام وسيم ترجع الى ثياب ابنهـا ترتبها فتسمع صوت زليخه من بعيد مغنية « يا رايحين عاحلب »

ام وسيم — الله يلعن حليب امك .

(من باب ثانٍ على يسار النظارة يدخل ابو مرعي متأبطاً ما يشبه الحزمة الطويلة وهو يتسرق الخطى)

ابو مرعي — اختي . ام وسيم .

ام وسيم — (تواجهه مبغوتة بعد ان كان ظهرها اليه) اخي ابو مرعي . ماذا جرى ؟ متى رجعت من بيروت . كيف كانت سفرتك ؟

ابو مرعي — (بلهجة الفخور الراضي عن نفسه الحامل خبراً سارّاً) يا ام وسيم كم في هذه الضيعة — كم في وادي الارز من رجل مثل اخيك ابو مرعي .

ام وسيم — ليس في وادي الارز من ابي مرعي الا ابو مرعي .

ابو مرعي — لو تعرفين ما بجيبي ؟ (يغلق الباب) ولكن لاقفل الباب اولاً مخافة ان يرانا واشٍ . نزلت بيروت وانظري ماذا جلبت (يفك كمراً تزنر به فينتزع منه ورقة) ورقـــة . امر صادر بتعيين ابو مرعي سليمان الحموي ، ناطور موقت على وادي الارز .

ام وسيم — (فرحة) الحمد لله على هذه النعمة . انك تستحق هذا الشرف العظيم يا ابو مرعي . هنأك الله بهـــذه الوظيفة . سيحرق هذا الخبر آذان الحساد .

ابو مرعي — واحزري يا ام وسيم كيف صدر الامر ؟

ام وسيم — كيف ؟

ابو مرعي — امر مطبوع على الطرنبتو .

ام وسيم — هاه ؟!

ابو مرعي — طبعته حورية (مقلداً الضاربة على الماكنة) طق . طق . طق . طقطقطقطقطق وابو مرعي صار ناطور وادي الارز . لينك رأيت العروس التي طبعته . اظافرها حمراء ، وشفتاها حمراء ، وكعب حذائها احمر طول الخياره . طقطقطقطقطق . والان ساعديني يا اختي على فتح هذه ، وتطلعي الى العروس (يتساعدان على فتح الزمة الطويلة ساكتين فعندما ينتهيان اذ بام وسيم تصيح « موزر خيالي » وتقلب بين يديها بارودة حربية قصيرة) .

ام وسيم — (تقلب البارودة كخبير تود فحص الاسلحة) كم دفعت ثمنها يا ابو مرعي ؟

ابو مرعي — اربع انكليزيات . فاض معي من ثمن حمل الزيت ليرة سوري .

ام وسيم — معها خرطوش ؟

ابو مرعي — ٢٠٠ ضرب .

ام وسيم — ساخيط لك جناداً لها .

ابو مرعي — (يقبل البارودة) متى وقعت الواقعة هذه المرة فلن نقاتل بني الحمصي عزلاً . ستغني موازيرنا اغـــاني الموت في اذانهم فكلنا مسلحون . ابناء عمي عندهم موازير (يشير الى النافذة مصوباً بارودته الى حي عائلة الحمص) يا بـــني الحمصي ! يا اذناب الخنازير ، يا ضفادع المستنقات ، وقذارة المواخير . ستتطفأون امام اسلحتنا كانكم مصابيح في زوبعة . ان رصاصنا سيجعل من صدوركم غرابيل . بل من ظهوركم فما فيكم الا كل جبان بليل السروال في المعركة .

ام وسيم — تعال نخبثها .

ابو مرعي — اخبثها في برميل الزيت .

ام وسيم — تعال نخبثها في الدهليز هنا . (يتعاون الاثنان على رفع البساط ، ويفتحـان باب الدهليز ، فيـنزل ابو مرعي ، وتناوله ام وسيم البندقية ، ثم ترجع الى المخدع فتنزع منه بعض الخرق وتقول لابي مرعي) لفها بهذه الخرق حتى لا تصدأ . (يصعد ابو مرعي مادا يده كأنّ عليها قذرا) .

ابو مرعي — (حانقاً) من وسخ الدهليز (يتناول ورقة من مكتبة وسيم فيمسح بها يده) .

ام وسيم — تلك اللعينة زليخه تركت باب الدهليز مفتوحاً امس فسرح اليه الدجاج ، آ . هذا اثر دجاج .

ابو مرعي — لعن الله زليخه والدجاج (يضع يده على شاربيه) اخ تفُـــهْ (يمسح يده ثانية) .

ام وسيم — لماذا الله بلاني بتلك البغله زليخه (تأتي له بالصابونة) غسل وجهك بالصابون . (ترى قنينة كولونيا) بل تعطر بهذا (تصب منها على يديه فيغسل شاربيه)

ابو مرعي — آ . رائحة طيبة . هذه رائحة المجموزال التي طبعت الامر بتعيبني ناطور . لمن هذه القنينة . لوسيم ؟

ام وسيم — لا ، لصديقه راجي البيروتي .

ابو مرعي — راجي البيروتي — صديق وسيم .

ام وسيم — راجي دائماً يتعطر بمي القنينه — كَولَونيا .

ابو مرعي — ما قتل الشبان الا الكولونيا . مجموزال وكَولَونيا فهمنا . لكن شباب وكولونيا ؟ ولماذا وسيم لا يتخذ صديقاً من ابناء طائفتنا ، أليس في طائفتنا من يليق بالصداقة ؟

ام وسيم — حذّرت وسيم مراراً من اتمان ابناء الجماعه . من

جَدّهُ عادى جدك ، يستحيل ان يودك (يسمع قرع باب وصوت وقور رزين ينادي) « يا ام وسيم ، يا ام وسيم »

ام وسيم — اهلا وسهلا . من هذا ؟

الصوت — انا الدكتور نجيب

ام وسيم — (بصوت يفور منه الاخلاص) يا ألف أهلا وسهـــلا بالحكيم . (تذهب لتفتح له الباب فيغتنم ابو مرعي الفرصة ويفرغ بعض قنينة الكولونيا في محرمة هائلة ينترعها من جيبه) (ام وسيم تفتح الباب للدكتور نجيب قائـلة) ان ظلك ينير دائماً يا دكتور نجيب .

ابو مرعي — اهلا وسهلا بالدكتور نجيب .

الدكتور نجيب — مساء الخير يا ام وسيم . oh ! مرحبا ابو مرعي . اين فتانا وسيم ؟

ام وسيم — ان له صديقاً من بيروت ، رفيقاً له في المدرسة جاء به منذ شهر وهما الآن في الصيد . اسمح لي ان اشعل القنديل فقد اظلمت الدنيا (تشعل القنديل) ولكن عودتهما قريبة فالشمس غابت منذ نصف ساعة .

الدكتور — حظي قليل . حاولت ان اجتمع بوسيم في بيروت فما اتفق لي ذلك وها انا لا القاه هنا (متذكرا) كان طفلاً حين هاجرت الى اميركا .

ام رسيم ـ في الثالثة من عمره وكنت يا حكيم قد اخـــذت شهادة الطب من جديد ، وقد داويت عينيه ...

الدكتور ـــ اذكر ذلك جيداً . ما اسرع العمر في ركضه . ١٩١٠ الى ١٩٣٠ ـ عشرون سنة مضت !...

ام وسيم ـ ما افجع ان تكون قد قضيت هذه السنين في الغربة عسى ان تطول اقامتك بيننا .

الدكتور ـــ انا راجع بعد اسبوع .

ام وسيم ـــ يا اسفي ، ينجبك هـــذا الوادي ، وينتفع بعلمك الاغراب .

ابو مرعي ـــ يا دكتور ، نحن نفتخر بالاسم الذي كونته في المهجر . ما اسم البلاد التي انت فيها ؟

الدكتور ـــ غرانبلا .

ابو مرعي ـــ غرانبلا (بصفر) من اسمها تعرف انها بعيدة (يضحكون)

ام وسيم ـــ غرانبلا ؟ كثيرون من الجماعة هناك ؟

الدكتور ـــ الجماعة ؟ من هم الجماعة ؟

ابو مرعي ـــ ليس من جماعة الا هم .

الدكتور — من هم ؟

ابو مرعي — بيت الحمصي – اذناب الخنازير ، وضفادع المستنقعات ، وقذارة المواخير .

الدكتور — (مشمئزاً) ليس من حقك ان تتكلم هكذا . فاني اعرف الكثيرين من آل الحمصي وهم قوم اشراف .

ام وسيم } — انت غلطان يا دكتور . اذا كان هؤلاء اشراف
ابو مرعي } فانت لا تعرفهم يا دكتور .

ام وسيم — اذا كان هؤلاء اشراف . فسم الحية ترياق . ونعيب البوم تغريد !

ابو مرعي — حمصي وشرف ، زيت وماء لا يختلطان .

الدكتور — لقد درت حوالي العالم اربع مرات و ...

ابو مرعي } — ولو درت حوالي العالم ٤٠٠٠ مرة لن تجد أرزل
ام وسيم } من بيت الحمصي .

ابو مرعي — (وحده) — هؤلاء الافاعي يبتلعون حتى اولادهم . يريدون رئيس البلدية منهم والنائب من حزبهم والطريق تمر قرب بيوتهم ، وماء العين يسقي اراضيهم ، ولا

تنسَ انهم قتلوا ابا وسيم . بيننا وبينهم دم يادكتور فلا تسمّهم اشرافاً .

ام وسيم ــ الحيـــة اشرف من الثعلب ، والثعلب اشرف من النمس ، والنمس اشرف من الحرامي ، والحرامي اشرف من العقرب ، والعقرب اشرف من الخنزير .

ام وسيم
ابو مرعي
ــ والخنزير اشرف من بيت الحصي .

(الدكتور خلال ذلك يتحسس مغرفزاً ويحاول ان يتكلم فيطغى عليه طوفان الحديث من ام وسيم وابو مرعي)

ابو مرعي ــ ارادوا ان يكون وادي الارز منهم ولكن انظر الى ما فعـل ابو مرعي (يسحب الامر من عبه) امر مطبوع نافـذ مبرم مطاع مطبوع على الطربنتر ، بتعيين ابو مرعي سليمان الحـوي ناطور موقت على وادي الارز . ليعض الحسد قـــلوبهم فلأحكمن وادي الارز (هازاً عصا النوطره) بهذا الصولجان

(الدكتور يضحك على الرغم منه)

ابو مرعي ــ اتدري اليوم (ما ذا يفعلون ؟ انهم يتسلحون ، يتسلحون ليهدروا دماءنا . فليس في بيت من بيوتهم الا وفيه موازير . كلهم مسلحون . اما نحن بيت الحوي . فليس عنـــدنا بارودة موزر . ولا جفت

صيد ، ولا دبوس بشنكل (بالرغم منه يلقي نظرة سريعة على الدهليز فيجفل ولكنه يكمل) ولا ابرة ولا كرباج .

ام وسيم — (بلهجة الفاهم الامور) يا دكتور انت خبير بالطب والعلم الشريف ، ولكنك تجهل القوم اللئام اعطني دواء اطهر به فمي اذا تلفظ باسم « الحمصي » .

ابو سرعي — ما اجمل ان اطحن رؤوسهم بمجرفة ، واقطع عظامهم بمنشار صدىء .

الدكتور — آه ما اجمل ذلك « والطفه » يا ام وسيم ! سألتني متى تترك الضيعة فقلت لك بعد اسبوع . ان هذا الذي يتعجل رحيلي ويبغضني بهذا الوطن الذي اكاد اعبده . انا لهذا الوادي ، لهذا الوطن ، ولهذه الضيعة ، وليس عندي فرق بين بيت الحموي وبيت الحمصي وبين طائفة وطائفة . أيدمي قلبي كلامكم في بيت الحمصي ويمزّق كبدي حديث بيت الحمصي فيكم . فعلامَ تقتتلون يا بني وادي الارز وعلى اي شيء تتنازعون ؟ فاذا نزل بكم وباء اسألكم الى اي عائلة او طائفة تنتمون ؟ فاذا انقطع خرير الماء أفلستم كلكم تعطشون ؟ أفلستم بنظر الغريب قوماً واحداً فلماذا تكونون في نظر انفسكم شيعاً واديانا واحزاباً تتطاحنون . يا قطعاً

من حجارة هـذا الوطن تناثرتم ، فأنتم كوم يبول عليها كل عابر سبيل ، بدلاً من ان تكونوا صفوفاً متراصة ، هي حصن يتكتّف دونه الغازي ويعصم كل من فيه . تتقاتلون على ناطور (ابو مرعي ينتفض) على بلدية ، على قنديل ، على طريـق ، وتتذابحون على حجل ، او دجاجة . في كل يوم نزاع وقتال ودسائس ، أهكذا تطلبون الحيـاة أيها المتحرون ؟

ابو مرعي ــ هكذا خلقنا الله .

ام وسيم ــ هذه ارادة الله فينا .

الدكتور ــ تلهجون بذكر الله وتسلكون سبل الشيطان ، تقيمون من الاحقاد اصناماً تعبدون ، وتدفعون ثمن عدائكم عملة مصكوكة بدمائكم . اصلكم واحد ، ارجعوا الى اصلكم .

ابو مرعي ــ الى اصلنا ؟ نادِ اشعة الشمس تتلمم قافلة الى مشرقها ، واصرخ بشعاب النهر ان تركض القهقرى الى نبعها واهتف بالرجال ان عودوا الى ارحام امهاتكم ، اذ ذاك نرجع الى اصلنا . اما الان فالله خلق الدنيا متضادة ، طويل وقصير ، طلعة ونزلة ، ابيض واسود ، رجل وامرأة ، سمين وهزيـل ، حموي

وحمصي ، بخاطرك يا دكتور (يخرج) .
(سكوت هنيهة يجز الدكتور خلالها رأسه وكذلك ام وسيم) .

الدكتور ــ (يغير الحديث) ــ سرني ان اقرأ في جرائد بيروت عن وسيم . اظنه شاعرٌ .

ام وسيم ــ هو يكتب كثيراً ويخطب . وقد الف رواية مثلوها (تنهض الى صندوق قديم « بشنطته » فتأخذ منه شهادة) هذه شهادته نالها منذ شهرين . وهذه اقوال الجرائد فيه .

الدكتور ــ (يقلب الجرائد بسرعة الذي يريد ان يتأدب فيشارك الام الاعجاب بوحيدها) كوكب لماع . خطيب مفوه . برافو . شيء جميل هذه التقاريظ . ومديح اكثر من دمى اطفال الاغنياء (الدكتور يستوي في مجلسه) يا ام وسيم اصغي اليّ . اهنئك بابنك ، ولكنني وقد حنكتني الايام اختباراتها بـ ٥٥ سنة من عمري اخاف ان يقتل المديح مستقبل ابنك . التقريظ كالعملة المزيفة تفقر حاملها . فلا تتركي وسيم يملأ جيبه منها . من اجل هذا جئت ازوركم فاني اريد ان اتعرف الى وسيم فاني لم ارَه مذ كان طفلاً ، واريد ان اضع يدي على كتفه واقول :

« بني » حذارِ النجاح الباكر ، فان اشجار الزيتون في هذا الوادي يكثر زهرها ويقل ثمرها . على اني راجع الى هنا بعد حين — بل قولي لوسيم ان يزورني (يهم بالخروج)

ام وسيم — سيتشرف وسيم بزيارتك يا دكتور والامتثال الى نصائحك الغالية . وحبذا لو فحصت عينيه ثانيـــة فهو ما يزال يشكو منهما .

الدكتور — سأفحص عينيـه (وفيما هو يهم بالخروج يباغته صراخ زليخه ، ودخولها كأنها دبابة تبصق النار)

زليخه — دخلكم — دخلكم — يا ذليّ — يا ذليّ .

ام وسيم — ماذا جرى ؟

زليخه — آخ . آخ . (تستمر على صراخها واضعة يدها على قلبها حيناً ثم على رأسها .)

الدكتور — ما بكِ . اين الألم ، قلبك ؟

زليخه — يا ليت .

الدكتور — معدتك ؟

زليخه — يا ليت . آخ .

الدكتور ـــ دماغك ؟

ام وسيم ـــ ليس لها دماغ يا دكتور .

زلبخه ـــ آخ يا دكتور .

ام وسيم ـــ قولي ماذا جرى قبل ان اجري العصا على جسدك .

زلبخه ـــ (تسكت بنتة) بيت الحمصي كسرُولي الجره (ترجع الى الصراخ . آخ . دخلكم . يا ذلي)

ام وسيم ـــ اخرسي . اخرسي . ولا كلمة . حذار ان تخبري احداً من رجالنا بهذه الحـــادثة . انصرفي الى المطبخ (للدكتور) انظرت يا دكتور فعل « الجاعة » بنا ؟ (الدكتور يجلس ثانية مفكرا)

الدكتور ـــ لعلها فعلة اولاد صغار .

ام وسيم ـــ ياحكيم هذا فعل بيت الحمصي . قتلوا زوجي وفي كل يوم يتحرشون بنا . (تترك يديها متحسرة) ما اسم تلك الآلة التي جلبتها معك من اميركا والتي تتنبأ عن الطقس ؟

الدكتور ـــ اسمها البارومتر .

ام وسيم ـــ انا تلك الآلة وما اخطأت نبوءتي خلال خمسين عاماً

في هـــذا الوادي . اقول لك يا دكتور اني اشم رائحة البارود واسمع لعلعة الرصاص . العاصفـــة قريبة . ان هذه الضيعة بالبارود حبلى وكلنا يلعب بالكبريت . نحن جالسون على فوهة بركان ولا ندري متى ينفجر . ان النفوس حاقدة ، والصدور تغلي ويا خرابك يا وادي الارز اذا اصطدم نظر بنظر (زايخه تدخل وفي يدها فك الجرة المكسورة) انا مهمومة على وسيم الغالي .

الدكتور — كل غالٍ يجلب الهم .

زايخه — هذا فك الجرة التي كسروها (ترجع البكاء)

أم وسيم — قلت لك اختفي (تفعل) (للدكتور) لو ان احداً من رجالنا رأى هذه الجرة المكسورة ، لنكسر قبل مطلع الفجر الف ضلع وجمجمة . وقاك الله يا وسيم شر الاعداء . ماذا افعل بوحيدي ! خذه معك الى كرانبلاّ يا دكتور . ولكن لا اذانّ من «الجماعة» اناساً هناك . قل لي ماذا افعل بوسيم . ان بيت الحمصي يكادون ينهشونه بعيونهم . ما اوجع ان اسلخه عني ولكني سارمي به الى الغربة مخافة ان يفتكوا به كما فتكوا بابيه — ما ربيت وسيم ليكون مرمى رصاص بيت الحمصي .

(يدخل نبهان اغا مختار الضيعة ، ووراءه ولده اسعد آغا ، فينحنيان بانتظار ان يُلقى عليهما السلام) .

ام وسيم — مساء الخير يا سيدي نبهان آغـــا ، وانت ايضاً يا سيدي اسعد آغا .

نبهان آغا — بلغـني ان بني الحمصي كسروا جراركم واغلظوا الشتائم لخادمتكم . غريب امر هؤلاء البشر ، يتحرشون بالشر . اما كفاهم قتل ابي وسيم لماذا هم يتنمرون عليكم الان . صحيح وسيم ابن مدرسة لكنه شاب شجاع قد يجرجه التحرش الى قتل احدهم .

اسعد آغا — وسيم قبضاي .

نبهان آغا — ليس في بيت الحمصي من هو اشجع منه .

الدكتور — مساء الخير يا ام وسيم . اذكّرك بارسال وسيم اليّ ولا تأبهي بحادثة الجرة ، فانا سازور الان بيت ابراهيم الحمصي لانه مريض واذكر له الحادثة ، ولا ريب انهم سينزلون العقاب بمن كسر الجرة وينتهي الامر .

ام وسيم — يا حكيم تعرّف على سيدنا نبهان آغا من آغاواتنا ومختار هذه القرية . وهذا ابنه اسعد آغا من المتادبين الذين يكتبون في الجرائد (للآغا) الدكتور

نجيب له صيت واسع في جرانبلا ، لا شك ان جنابك سمعت به .

نبهان آغا — (غير مكترث للدكتور . وهذا يحدجه بنظرة استخفاف حنقة) جرانبلا ! هناك تسكن صديقتك هدى الحمصي (الى الدكتور) في معركة السنديانة سنة ١٩٠٨ كسرت ام وسيم فخذ هدى الحمصي . آ . ام وسيم في صباها كانت بطاشة . لا تزال هدى تعرج حتى الان . وقد حلفت ام وسيم ان تخنق هدى بغدائرها . آتني بهدى الحمصي وانا اكفل لك خنقها . لعلك تعرف هدى في غرانبلا يا نجيب .

الدكتور — ان المهذبين من الناس ينادونني « دكتور نجيب ».

نبهان آغا — (ضاحكاً) — دكتور هاه ! لقد نبتَ للسلحفاة جانحان . عمن ورثت هذا اللقب يا نجيب .

الدكتور — لم ارثه . كسبته .

نبهان آغا — اكتسب اللقب . هاه ! (للدكتور) نجيب لك ان تهاجر ، ولك ان تتحدث الناس عن عظيم مقامك هناك ، وكبير علمك ، ولكنك اذ تطأ ارض هذا الوادي ، هنا ، فاعلم ان ابناء اسياد ابيك لا يزالون اسيادك ، وكل ما في مقدورك ان تفعله

هو ان تتفيأ ظلالهم .

الدكتور — تريد للنسر ان يأوي الى فن الدجاج !! خسئت ايها الميت الغير مدفون . ان كلماتك تقزمك في عيني. ان شمسكم غربت ياآغا . رويدك قليلًا اذ يتحرك هذا الشعب فيخنقكم بغبار اقدامه . نادني بالاسم الذي تريد ، فالنور الذي اشعلته في بلاد المهجر سينير طريق الناس بعد ان يدفن الناس آغاواتهم بزمن طويل . ولكن لماذا احرجتني الى التباهي ؟ خفَ الله ، يكفيك جئت الى هذه المرأة تثير بغضاءَها ، وتذكرها بقتالها مع هدى الحمصي ، وترش الملح على الجرح في قضية كسر الجرة . اذكر الله ولا تزرع قنابل التفرقة بين جيرانك .

الاغا — يظهر انك اعور العقل .

الدكتور — بل انا اعماه اذ اكتوث بمومياء مثلك .

اسعد آغا — (يريد ان يحسم الخلاف) طول بالك يا ابني ، وانت يا دكتور لماذا الغضب ؟ قل لي ما هو رأيك في قضية القديم والحديث في الادب .

الدكتور — ما هو رأيك في قضية زيت الخروع والملح الانكليزي في الطب . (ينصرف ، فتلحق به ام وسيم مودعة قائلة :)

ام وسيم ـــ يا حكيم هذه الحادثة مع سيدنا الآغا تؤسفني و .. (تختفي مع الدكتور) .

نبهانه اغا ـــ دكتور !!!

أسعد آغا ـــ سأهجوه بقصيدة ، لا تخف . « دكتور انت من ال..» لا بأس بساعة ثانية .

نبهانه آغا ـــ لا اخاف هذا المدكتر فسيرحل . ولكني اخاف وسيم ابن هذه المرأة لانه سيقيم هنا وهو طموح. خف الطموح يا اسعد ، اذ لا نهاية لامانيه ، ولا حد لمحتمل اعماله . هذا الغلام اذا ظفر بوظيفة في بيروت فقد ينتزع منا وظيفة المختار . لنهلكه قبل ان يصطادنا .

اسعد اغا ـــ ما العمل اذن ؟

نبهانه اغا ـــ اذهب الى طعان الحمصي ابن هدى انه فتى جبار ، ديناميتي الطباع ، كبريتي المزاج ، قل له ان وسيم يتوعد بقتله ثأراً لكسر جرة صانعتهم (اسعد يصرف) (ترجع ام وسيم قائلة :)

ام وسيم ـــ آسف يا سيدنا ان يكون الدكتور تطرف بالكلام .

الاغا ـــ هؤلاء المهاجرون الراجعون يتكلمون بما لا يفهمون .

لعن الله ساعة فتحت ابواب ا ميركا فوضعت الفلفل في انوف العامة .

(صوت اغنية مصرية عربية او افرنجية يغنيها اثنان)

(يدخل وسيم وراجي بلباس الصيد وكلٌّ معه جفت ، في يد راجي حمامة مقتولة . يركض وسيم الى امه)

وسيم — امي . امي . (يقبل يدها فتقبله ضامّة اياه)

ام وسيم — يا تقبر امك . لماذا تأخرتم . ادخل الى الغرفة الثانية فابدل ثيابك .

راجي — خالتي ام وسيم مساء الخير . انظري الى امهر صياد في الدنيا . قضينا النهار كله ولم نظفر بطريدة الا هذه . (مشيراً الى الحمامة) طلق واحد من امير الصيادين راجي البيروتي اوقع هذه الحمامة البرية وهي طائرة (متهكما) اسألي وسيم كم طير اصطاد ؟ ان الهة القنص امنت الطير على ارواحها اذ يخرج وسيم للصيد . اهون عليّ ان انظم قصيدة من ان يصيب طريدة . زليخه ! عساك اكثرت الخبز ففي مقدوري ان آكل محصول فرن . ويا خالتي ام وسيم اذا كان العشا حاضر فانا حاضر .

وسيم — اتركيه يا امي يجوع لعله يريحنا من ثرثرته .

راجي — ولا !؟ وسيم . ولا .... ؟!

(يتاكان ، هازلين ، مظهرين العراك)

ام وسيم — يسرني احمرار وجهك ورجوع العافية اليك ، فقد جئتنا اصفر الوجه هزيلاً فما اجمل لون الصحة على محياك .

وسيم — (الى الاغا) مساء الخير نبهان آغا . هذا صديقي راجي البيروتي . هو كثير الدعابة فلا تكترث لهازله ، واذكر انه بيروتي واهل بيروت (مشيراً الى رأسه) .

راجي — واهل الجبل (يمشي متبخترا مقلدا المتكبرين)

الاغا — عساك تستطيب الاقامة في ضيعتنا ، ما رأيك في هذه القرية ، وادي الارز ، اليس السكن فيها جميلاً ؟

راجي — يعني اذا سكنها سواي . ولماذا سميتوها « وادي الارز » فهي جبل وليست وادياً ، وليس فيها ارز بل فيها شجر البلوط . قل للبلدية ان تسميها « جبل البلوط » بدلاً من وادي الارز .

الاغا — وقل لبلدية بيروت ان تسمي بيروت « قوس القزح » ففيها كل الوان البشر .

راجي — سنسميها الطاحونة لان كل الدروب تؤدي اليها .

يا آغا اريد ان استفسر منك عن امر .

الاغا — تفضل .

راهبي — لماذا انت آغا يا آغا ؟

الاغا — لان ابي كان آغا .

راهبي — ولماذا ابوك كان آغا ؟

الاغا — لانّ اباه كان آغا ؟

راهبي — حقاً انك ذكي تعرف كيف تنتقي اسلافك .

الاغا — وانت هل عرفت كيف تنتقي اسلافك ؟

راهبي — ابي ريّس .

الاغا — ريّس ؟ ريّس ماذا !؟

راهبي — ريّس بحارة بيروت .

الاغا — أهو حي ؟

راهبي — لا ، انتحر .

الاغا — لماذا انتحر ؟

راهبي — في المدينة فتش عن المرأة ، وفي الضيعة فتش عن الاغا.

ام وسيم ــ يا نبهان آغا شرفنا للعشاء .

وسيم ــ (غامزاً راجي) حقاً ابقَ تعشّ معنا يا نبهان آغا .

الاغا ــ (ممسكاً الحمامة) ارى انك صياد ماهر ، فان لم تكن قد احسنت اختيار اسلافك ، فانت احسنت اختيار الطريدة (وسيم يقلب كتبه مدمدماً كانه في فيبوبة) (ام وسيم تهيء الطعام مع زليخه) .

راجي ــ صياد ماهر !! ألم تسمع بما فعلته كفي في غوطة الشام ؟ كنا في العام الفائت نصطاد في الغوطة ولم يبقَ معي من الذخيرة الا رصاصة واحدة . واذ اطلّ عليّ نمر وأسد . نمر وأسد . اسد ونمر . الاسد عن يساري والنمر عن يميني وفي بارودتي رصاصة واحدة . أتدري ماذا فعلت ؟

وسيم ــ انا ادري ولكني استحي ان اقول .

راجي ــ انتضيت سكيني (ممثلا) وغرزتها في الارض هكذا . ثم ابتعدت (يبتعد) واطلقت رصاصتي على حدّ السكين(١) فانشطرت الرصاصة شطرين ، الواحدة قتلت النمر ، والثانية قتلت الاسد . حادثة هائلة .

(زليخه تذهل وتصيح « يا ربي!» فيقع الصحن من يدها)

---

(١) حادثة الصيد قصها الماني يدعى انه امهر الكذابين .

وسيم — هائلة وثخينة ، ثخينة !

زينب — سبحان الخالق .

الاغا — (وهو يفحص الحمامة) غريب امر هـذه الحمامة البرية . انها تلبس الخلخال .

رامي — خلخال هاه !! انا لا اصطاد رعاع الطير بل آغواته .

زينب — هذه حمامة بيت الحصي . هذه حمامة طعّان .

وسيم — (مهموماً) هذا جائز . فاذكر انك اصطدتهـا في خراج القرية .

(الاغا يشرق وجهه كمن فاجأه فكر عظيم)

الاغا — على كل حال بخاطركم (يخرج بسرعة)

زينب — سيدي وسيم – بيت الحصي كسر ولي ...

ام وسيم — اخرسي .. (لوسيم) الدكتور نجيب زارنا .

وسيم — (متألماً) صحيح . ما أقل حظي لم اجتمع به حتى الآن

رامي — من هو هذا الدكتور نجيب ؟

وسيم — غريب ما اوسع مجهولاتك . بعد قليل ستسألني من هو ابو علاء المعري .

راهبي — (بيرودة) على فوقه ، من هو ابو العلاء المعري ؟

وسيم — (بحنق) صاحب كاراج على « فرن الشباك » .

ام وسيم — لقد سألت الدكتور نجيب ان يفحص عينيك .

راهبي — لماذا لم تسأليه ان يفحص دماغه . ان ابنك يا خالتي ام وسيم لولد عجيب . بالكرم — حاتم طي تقمص في جسد وسيم الحموي . اكرم من السيف ! اكرم من طالب وظيفة !

ام وسيم — الاحظ انه مبذر . ولكن الايام ستفطمه عن هذه العادة .

راهبي — سيقضي عمره يوحّل في كتاب الاغاني (يأخذ كتاب الاغاني من مكتبة وسيم ويقرأ متهكما) «دخل العمروط بن هرموط على الامير مرقوع بن مفقوع — » اسألبه ما هو طموحه ؟ طموحه ان يسمع التصفيق . ومستقبله مثل التصفيق (يصفق) بُوه — يتلاشى .

ام وسيم — وانت يا ابني ما هو مستقبلك ، وفي يدك شهادة مثل شهادة وسيم ؟

راهبي — يا خالتي في بيروت اوتوموبيلات اسمها « تكسي » يركبها من يشاء الى حيث يشاء . هكذا نحن الشباب المثقف (منادياً) الى العراق ، فلسطين ،

مالطه ، السودان ، مصر ، السند ، الهند . الفرق ان « التكسي » لها تعريفة ، اما نحن الشباب المثقف فليس لنا تعريفة . اركب وادفع ما تشاء .

ام وسيم — ساترككِ ووسيم في دعابتكم . انا ذاهبة اسهر عند ابنة خالتي . زليخه تقوم باموركم .

وسيم — ألم تنسي شيئاً يا امي ؟

ام وسيم — (متذكرة ، فتتطلع الى وسيم ثم يضحكان) .

ام وسيم — القهوة !!

وسيم —

وسيم — ساهدي روايتي الجديدة « الى القهوة التي صنعتها امي »

ام وسيم — القهوة حاضره (تعطيه الفلايه) .

وسيم — قهوة ! ومغيب ، ووادي الارز . اين القبعة ، والعصا ، والسيكار ؟ (لراجي) هذا لباس الوحي (يلبس القبعة ، ويحمل العصا ويولع السيكار) لا اقدر ان اخط سطراً بدون ان البسه .

راجي — اذاً لا تلبسه .

ام وسيم — بخاطركم .

راجي — سؤال قبل ان تنصرفي يا خالتي ام وسيم . هـل تجيبيني عليه ؟

ام وسيم — اذا قدرت !

راجي — ما رأيك بطائفتنا ؟

ام وسيم — (ضاحكة) ما اكثر سؤالاتك . بخاطركم .

راجي — ألا تلومين وسيم على انتقائه ضيفاً من غير دينه ؟ الصحيح يا ام وسيم . ما رأيك بي ؟ الصحيح .

ام وسيم — الصحيح يا ابني — يا غبنك تكون من « الجماعه ! »

وسيم — يا غبن « الجماعه » يكون فيهم واحد مثل راجي .

ام وسيم — بخاطركم .

وسيم — امي أدعي لي بالالهام .

ام وسيم — (متضرعة الى الله) ربِ يا من اغدقت المواهب غـلى بني وادي الارز اغمر بالهامك قلب وسيم (تقبـله ثانية وتنصرف) (وسيم يهم بالدخول الى الغرفة الثانية)

راجي — (خائفاً) وسيم ! الامَ تسمرني في هـذه القرية ؟ تعال ننزل الى بيروت الآن — هذه الليلة .

وسيم — ما اكثر لجاجك ! قلت لك غدا نزل الى بيروت ألا ترى حوائجنا جاهزة ؟ صبرت ثلاثين ليـــلة ، أضاقت انفاسك بهذه الليلة ؟ اصبر للغد فأريك مطلع الفجر في الوادي فترى الصبح يتنفس . آه لو تأتي الينا في الربيع اذ تنوّر الازاهير ... و

راعي — آخ — الفجر ، الربيع ، الازاهير ، أهذه الغلاظات موجودة في كتاب الاغاني ؟ الفجر في بيروت ؟ متى سمعت (مناديًا) كعك سخن ، قل طلع الفجر . ومتى رخص سعر الفجل ، قل أطل الربيع . لا كانت ساعة اطلت بهـا على هذه الضيعة . انا على ابر ودبابيس . اريد ان اذهب .

وسيم — ألا يسرك الراعي بشبابته يرعى قطيعه ؟

راعي — بل يسحرني ! البارحة رأيت راعياً مع قطيعه فهربت

وسيم — لماذا هربت ؟

راعي — الرائحة لا تطاق . غرام التيوس يفسد الجو .

وسيم — والطيور ؟

راعي — الطيور ؟؟ لم أرَ من الطيور الا البرغش والذبان .

وسيم — لا تكفر بنعمة الطبيعة . انشق العبير .

راهبي — انشق البعير .

وسيم — انا اهوى هذا الوادي . انا الصق بهـــذه الارض من صخرها .

راهبي — الله يقلعك . أنا لاصق بهذه الضيعة كأني ذبابة في صحن دبس . وسيم ! تعال ننزل الى بيروت هذه الليلة فانيمك في تخت فيه العبير والزهور والربيع وكل ادوات الوحي ... ها انا استعجـــل الدهر (يشير الى الروزنامة فيقرع منها ورقة) ها نحن في ٣٠ ايلول سنة ١٩٣٠ . ها هو فجر الغد فلنمش . قل لماذا تسوفني . كل يوم تقول غدا .

وسيم — راجي لا تهزأ بي . اريد ان انهي روايتي .

راهبي —واين صرت فيها ؟

وسيم — في الفصل الاخير اتذكره ؟ صديقان تغربا . مات احدهما فاوصى رفيقه ان يأتي الى القرية بزجاجة فيها رماد جسمه .

راهبي — اوف !!

وسيم — فيأتي الصديق بالرماد ويقف على عتبة الباب .

راهبي — اووف .

وسيم — فيسمع الاب والام يصليان ضارعين الى الله ان يرجع ابنهما اليهما ، وابنهما ميت بوفاته لا يعلمان .

راجي — اووووف !

وسيم — واذ يذر الرماد على عتبة البيت تهب نسمة تعبث بالرماد فتقول الام لزوجها اني اشعر برعشة في نسيم هذا المساء ...

راجي — اووف ... اوف .. (يسحب محرمته ويتهكم باكياً)

وسيم — راجي – اني احس بهـــذه الرعشة الآن في نفسي واريد ان اضعها على الورق . غدا نذهب الى بيروت ولك انت ان تنام في التخت الذي تستطيبه .

راجي — (متظاهراً كانه ملهم) وانا الفت رواية .

وسيم — هاه !

راجي — اما القنينة ففيها رماد سخن اذره في عيون كل من قال الشعر والف الروايات .

وسيم — (مدغدغاً خد راجي) سأدخل الى الغرفة الثانية اكتب ، فابقَ انت هنا هنيهة ، بعد عشر دقائق نتعشى .

راجي — تريد ان تربطني هنا جائعاً اعلك لجامي حتى تعود ؟

وسيم — اعلك رسنك حتى اعود . واذا شئت ان تتسلى فاقرأ هذا الكتاب (يرمي له بكتاب الاغاني) .

راهبي — يا ربي . كتاب الاغاني (يأخذ علبة كبريت من جيبه ويهم بحرق الكتاب فيوقفه وسيم) .

وسيم — لا تكن حقوداً كالجبليين . انتظرني حتى انهي الفصل (ينصرف) .

راهبي — (بعد هنيهة) زليخه زليخه .

زليخه — نعم .

راهبي — قولي لي . أكل اهل وادي الارز ينظمون الشعر ؟

زليخه — الذي لا ينظم الشعر ينظم قرادي .

راهبي — (مبسطاً) وانت ألا تنظمين الشعر ؟

زليخه — (تضحك متدلة) وانت يا راجي افندي ألا تنظم الشعر ؟

راهبي — انا ؟ ألم تسمعي بي ؟ انا امبراطور الشعراء .

زليخه — (بازدراء) امبراطور الشعراء ؟ فقط لا غير ؟ في وادي الارز الف امبراطور شعر . قل لي قصيدة من قصائدك .

راجي — على فوقه ، ماذا طبخت الليلة ؟

زليخة — (تضحك) قل لي قصيدة من قصائدك .

راجي — أتريدين شعر ام قرادي ؟

زليخة — من الاثنين (في هذه الاثناء يأخذ من حقيبته زجاجة ويسكي فيصب في كأس ويشرب) .

راجي — نبدأ بالشعر ثم القرادي ! ..

قفا نبكِ من ذكر الزهور العوائب
ونهدي الالى في مطلع الشعر غائب
أنا إن قلت يـــا زليخـــةُ شعراً
ضحـــك الشعر في السنين الحوالي
فانهكي حرمة الغرام واهدِ منّي لك السلام
جدنا جدّ العظـام
في البريق
والنهيق
نزعه مثل اللبيط
بل هي زهر وماء
مثل زهر القرنبيط
ايه خصر الحبيب مجتاحك صبح الغداة دولاب طنبر

زليخة — (تصفق) وقرادي ؟ (في الاثناء راجي يشرب)

راهبي — قرادي ؟ هذه قصيدة عنوانها « طبليـــة الحب او طراحة الغرام » .

نحنا ولاد الفن دجاجاتنا بالقن
الدنيا قايمة دربكّي
والدبس دبس بعلبكي
والزهر والوزال
والزعتر والعرزال
يا قاف
يا راء
يا دال
تفسيرها يا قرد .

زلبخه — (تصفق ثانية)

راهبي — وانت يا زليخه ، ألا تنظمين الشعر ؟ (زليخة تتدلل) قوليلي ، تعالي ... آو ...

زلبخه — احكي لك الصحيح يا راجي افندي ؟

راهبي — الصحيح يا زليخه افندي ، يا زليخه .

زلبخه — كلما رأيت سيدي وسيم ... (تسكت)

راهبي — (منجماً) آ . (تضحك زليخه الخ) ترين وسيم معتزلا

يكتب (زليخه تقاطعه مؤمنه ضاحكة) . البونيطة على رأسه وفنجان القهوة في يمينه .

زليخه — آ . آ .

راجي — والعصا بيده يضرب بها الجو (يتقلده) .

زليخه — آ . آ .

راجي — وقد انفرج قميصة عن صدر نبت فيه الشعر

زليخه — آ ، آ ،

راجي — تتمنين

زليخه — آ . آ .

راجي — تتمنين لو ... لو ...

زليخه — آ . آ .

راجي — لو انه كان زوجك .

زليخه — (حانقة) احشم حالك يا راجي افندي .

راجي — لا تحنقي علي يا زليخه . تتمنين لو ... لو ... كنت اديبة مثله .

زليخه — (مبتهجة) صدقت يا راجي افندي . صحيح ان

البيارته شطار .

راهبي — (متظاهرا كأنه في تفكير عميق) اذا كنت تريدين ان تكوني اديبة مثل وسيم فما عليك إلا ان تفعلي مثله .. على فوقه ، ماذا طبخت للعشاء ؟ ذوقيني لقمه (تذوقه) .

راهبي — طيبه يا زليخه . عندما أنشر ديوان شعري سأقدمه (مقلدا وسيم) « الى المخلوطة التي طبختها زليخه » والان اذا كنت تريدين ان تكوني اديبة مثل وسيم فافعلي مثلما يفعل . هذه البرنيطة (يعطيها برنيطته ثم يلبسها اياها) وهاك العصا . تمشي يا زليخه مثلما يتمشى وسيم (تتمشى) الان بقي امر القهوة . هذه قهوة بيروتية . البعض يسمونها ويسكي ، أو جوني ووكر ، او بدرو دوماك ، ولكنها في الحقيقة قهوة بيروتية . كل فنينة مكفولة ان تعصر عشرة آلاف قصيدة . (يصب لها وله). اشربي (يشربان) الشعر هنا يا زليخه (مشيرا الى الفنينة) وما عليك الا ان تستخرجيه .

زليخه — (بعد ان تشرب) هذه تحرق وليس لها طعمة قهوه .

راهبي — اشربي ثانية . اول كاس مرّة . الحلاوة في قعر الفنينه يا زليخه (تشرب ثانية)

زليخه ـ كيف تصنعون هذه القهوة ؟

راهبي ـ نخلط نصف رطل لبيط بغال ، مع اقة ديناميت ، وعشرة كيلو من نار جهنم .

زليخه (وقد لوّحت معها) نار جهنم . بدأت ارى الجنة .

راهبي ـ الآن انظمي الشعر .

زليخه ـ طلّ القمر عاوادي الارز .

راهبي ـ برافو زليخه . طل القمر عاوادي الارز .

(يعيدان هذا عدة مرات مغيرين اللهجة)

(ويعركان الردة بين طل القمر عا ارز الوادي . طـل الارز عاوادي القمر ، طل الوادي عا ارز القمر ، طل وادي الارز عا قمر الوادي .)

راهبي ـ فلتحيَ اميرة الشعراء . فليحيَ الادب . هذا هو الادب (يقبلها)

زليخه ـ (تصفعه) هذا قلة ادب ! (تنصرف ، بعد ان ترمي بالعصا من يدها والبرنيطه من على رأسها)

راهبي ـ (وحده . يريد ان يسلي نفسه فيأكل لقمة ، ويشرب كأساً ، ثم يسحب كتاب الاغاني لابي فرج الاصبهاني ويقرأ : « جادك الغيث اذا الغيث همى
يا زمان الوصل في الاندلس »

جاد – تكرّم
الغيث – المطر
همى – سقط
يا زمان الوصل ...
(صارخاً) – هنا قلة الادب يا زليخه .. (يدق الباب الذي خرج منه وسيم) وسيم ، وانا اريد ان اؤلف رواية (يضع البريطة على رأسه ويمشي ملوحاً بالعصا) راجي البيروتي الروائي الشهير (يحاول بصراخه ان يقلق وسيم في خلوته) عنوان الرواية :
قرن الديك – لا
ريش الحمار – لا
مجنون ليلى – لا
ضرس العقل – لا
الوطنية والعلم – لا
الانتقام العادل – لا
رواية ادبية ، عصرية ، انتقادية ، حماسية ، وطنية ، شعرية ، نثرية ، مبكية ، مضحكة ، منومة ، يخصص ريعها « لجمعية قطع دابر الشعراء والادباء » .
ألفها – لا
خلقها – لا
كونها – لا
سرقها – لا

ترجمها — لا
اقتبسها — لا
(منظاهرا بالتفكير) وجدتها، وجدتها! Eureka, Eureka
باضها راجي البيروتي !
الفصل الاول — تظهر بطلة الرواية . الحبيبة ...
— يا قلب اخفق — يا جارة الوادي — ويا نار اشتعلي — ينزل الستار ثم يطلع الستار —
(كل هذا بصوت عال حتى يشاغب على وسيم) ثم ينزل ثم يطلع . وكل ما يطلع ينزل . وكل ما ينزل يطلع . تظهر عروس الرواية ، ووراءها اولادها ، واولاد اولادها . يأتي البطل . ها لطيف البطل . غرام وغرام وعشق وهيام و amour ها لطيف الامور . زواج وانتحار . انتحار وزواج واخذ بالثار . يهيج الجمهور . المؤلف . المؤلف . (صارخاً بأعلى صوته نحو غرفة وسيم) المؤلف . المؤلف . (يظهر وسيم فيضربه بمندورة من على المائدة !)

وسيم — (شارقاً بالدمع) راجي اهزأ بي ما تريد واضربني بالمندوره ما تريد ، والبيض ، والاحذية ، ولكن اتركني في خلوتي وفني . ان شعلة من الوحي بيضاء ترقص في صدري . فلا تطردها بدعابتك . إن كلمة علياء فرت فلن تعيدها قوى الارض .

راجي ، ان الذي خلقني ارادني ان اخلق هـذه الرواية . أحس بموجة في نفسي تململت ثم اشرأبت ، وها هي تـكاد تدفع الى الدنيا بجوهرة . راجي ، اتركني واترك الناس يستمتعون برائعتي . لن تفهم في أي غيبوبة أنا . دعني فلن يهـدأ بالي الا اذا صقلت هذا التمثال الذي اصنعه من الصلصال الذي وُهبتُه ، ولن يستريح ضميري الا إذا سمعت هاتفاً يقول لي اكملت عملك سلمت يداك . ألا تفهم اني كأم تتمخض بحياة . بربك اتركني في لذة عذابي ولك ان تفعل بي بعد هذا ما تريد .

راجي ـــ (مأخوذاً باخلاص وسيم) ارجـــع الى عملك يا وسيم وسأجلم حنكي (يرجع وسيم الى غرفته) (يعاود المرح راجي فيخاطب السقف) اني كأم أتمخض بحيـاة يعني كدجاجة تبيض . صدقت يا راجي البيروتي . انا اونباشي الادب . انباشي ؟ شاويش ، كولونل ، جنرال ، حفلة تكريم للاستاذ راجي البـــيروتي (ضرب قوي عـلى البـاب وصوت وحشي يصيح) افتحوا . زليخه تفتح الباب وتضرب صارخة « يا ذلي ، طمان الحمصي ») .

طعانه ـــ واين هو عنترة عبس ، والزير ابو ليلى المهلهل ؟

راجي ـــ (ببرودة) عنترة عبس ليس هنا . ابو ليلى المهلهل

غائب ، ابو العلاء المعري فاتح كاراج على « فرن الشباك »، ابو الفرج الاصبهاني على الطاولة هناك . داعيك اسمه راجي البيروتي .

طعان — والداعي اسمه طعّان الحمصي .

راجي — هاه ؟

طعان — طعّان الحمصي . طعّان .

راجي — طرزان ؟

طعان — طعّان يا ....

راجي — آطعان . كيف حالك يا طعان افندي .

طعان — انت افندي . ابوك افندي . وكل عائلتك افندية .

راجي — كلك لطف . هل من حاجة اقضيها لك ؟

طعان — حاجتي الى البطل المغوار وسيم الحموي يخبرني لماذا قوس حمامتي . اثأراً لجرة صانعته أم ثأراً لأبيه ؟ فان كان ثأراً لأبيه فقد اغلى الثار . كان يجب عليه ان يقتل كلباً ليصير « دم بدم » .

راجي — انا قوست الحمامه . لم اعرف انها تخصكم حتى رأينا الخلخال . اريد ان ادفع لك ثمنها (يسحب محفظته)

طعان — الضيوف لا يدفعون ثمن شيء ولكن بني الحموي سيدفعون ثمن هذه الحمامة غالياً . كل ريشة برجل . برجل ؟ كأن في هؤلاء الخنافس رجالاً .

راهبي — هوّن عليك . انتم اخوان .

طعان — يا وسيم الحموي ، يا عنترة اطل وخذ بثأر ابيك .
(يظهر وسيم)

وسيم — سمعتك تناديني يا طعان .

طعان — صدقت فمتى قلت لك يا عنترة فانا انا ديك . اراك ساحباً العصا فانا مستعد الى لقائك ولو ان في يدك الناعمة مدفع متراليوز . (وسيم يرمي بالعصا جانباً)

وسيم — لك يا طعّان ان تقول عني اني جبان . ولكن يدي لن تولع هذه القنبلة . لن اكون الشرارة التي تشعل هذه الضيعة .

طعان — انا وانت ولا حاجة للضيعة .

وسيم — لن يسترجع أبي حياته ان انا فتكت بك .

طعان — انت جبان يا ابن المدرسة . حلقت شاربيك وخضبت كالنساء بالعطر شعر رأسك ، فلماذا لا تلبس الفستان وتسمي نفسك مزمزال (يضحك ضحكا وحشياً)

وسيم — ان الحمامة خطأ وقعت .

طعان — الذنب ذنب الحمامه هاه ! الحمامه اصابت الرصاصه هاه ! هكذا علمتك المدرسة ، مدرسة بيروت يا مزمزال !

رامي — قلت لـــك سأعوض عليك ثمنها . تعـــال ننظم قصيدة . هاك المطلع — طل القمر ... هـذه قهوة بيروتية (طعان لا يأبه به)

طعان — جئت ارمد بيوتكم ، حسبت اني القى شبه رجـل اقاتله ، ولكن جبنك يعيب الارنبة يا مبصقة الرجال لو ان خوفك كان اقداماً لكنت عنترة ، ولو ان فسقامك كان طهراً لكانت امك راهبة يا ابن القحبة ،

(كالبرق ينقض وسيم على طعان فيرميه بيوكس . ينهض طعان فيهجم على وسيم . يتقاتلان بضع دقائق ترى فيها وسيم هادئاً يقاتل كالملاكم ومتى ظفر فلا يتحدى خصمه . اما طعان فيقاتل بفطرة وحشية حنقة فيخسر في كل جولة . تسمع خلال ذلك ازيز « السين » فاذا اشتبه احد ان السين كـرة من الشتيمة الشائعة قل له معتذرا انها صريف الاسنـان وابتسم . حينما ييأس طعان من التغلب على وسيم يبتعد عنه ساحباً مسدسه ويصيح (خذها من يد طعان يا ابن الحموي) فيسرع وسيم فيلوي يـد طعـان بحيث ينطلق المسدس فتصيب رصاصة قلب طعان ، يتلوى هـذا المـأ ويصيح آخ . آخ . قتلني ابن الحموي ويطرح على الارض

بحيث يختفي زناره وما فوق خلف الكواليس وتبقى رجلاه على المسرح منظورتين)

سكوت رهيب هنيهة وراجي ووسيم يتشاوران

راجي — جس نبضه (ووسيم يفعل)

وسيم — ميت ...

راجي — ميت !

وسيم
راجي } لنهرب . فلنهرب (يقفزان من النافذة اذ)

ينزل الستار

(اصوات بعيدة مضمنة مخنوقة ضوضاء يتخللها طلق رصاص ، وهتاف : حموي ، حمصي . عليهم . ولا . زلاغيط واصوات حدا ونأم جازع)

المشهد الثاني

(ام وسيم كومت نفسها حزينة . الدكتور نجيب منرفز يتمشى . ابو مرعي يقط كأنه لاعب شطرنج يفكر بالخطوة التالية .)

الدكتور نجيب ــ ما أهون التدمير . نستعبد النفس للعلم ، لنخلص حياة ، او نخفف الالم عن حياة ، وفي نصف ساعه تطفئون اربع عشرة حياة !؟

ابو مرعي ــ ثلاثة عشر قتيلًا يا دكتور . سليم الحصي بعد ما مات

الدكتور ــ ولكنه سيموت . (متأملا) اربع عشرة روحاً هدرت. يا خرابك يا وادي الارز . ما اكثر تبذيرك في دماء بنيك . من يدري ان لا يكون بين من قتلهم الجهل ، شاعر كجبران ، مخترع كالصبّاح ، بطل كسلطان ، عالم كالبستاني ، او جندي كفوزي .

ابو مرعي ــ هذا بدء الشر وليس نهايته . نصف الضيعه في الحبس .

الدكتور ــ (يمشي الى الروزنامة) الف وتسعماية وثلاثين . تكذبين. تكذبين . ما نحن في القرن العشرين . لقـــد نام

الانسان في نفوسنا ونهض الحيوان ، نحن في العصر الحجري في اخلاقنا ، ولم نلبس من المدنيـــة الا هذه الاثواب – اثواب فقط

ام وسيم – ان ابني ليس بشرير ، ان ولدي لم يعتـــد على الجماعة ، ابني لا يهتم الا بكتبه واوراقه ، جاء ابن الحمصي ، حمص الله قلوبهم – الى زاوية بيننا فشتم ابني – وحقره وضربه في النهاية صوب اليه المسدس فلم يفعل وسيم الا ان لوى المسدس ، من يلومه يا دكتور ؟

الدكتور – هل قبضوا عليه ؟

ام وسيم – اذا كان الله يقبل صلواتي فلن يقبضوا عليه .

ابو صرعي – ولكن لبيت الحمصي عيون وجواسيس . كفّوا يدي عن وظيفة التاطور . الايام بيننا وبينهم .

الدكتور – هـذه كم قرش (يعطيها كدسة اوراق نقود) وبمـــا تحتاجين اليها .

ام وسيم – كثر الله خيرك يا دكتور . نحن في سعة عندنا مئة زيتونه (لا تأخذ المبلغ منه)

الدكتور – اتكفيك هذه المئة زيتونة ؟

ام وسيم ـــ كفت من قبلي آبائي والله وكيل ان تكفيني ووسيم . ليس هـذا الذي يشغل بالي يا حكيم (فاركة يديها باكية) ولدي ، ولدي ، ربيته وثقفته ليمسي طريداً في البراري ؟! واذا قبض عليه الجند ؟ واذا ظفر به بنو الحمصي ؟! ربِ ماذا فعلت لتنزل بي هذه المحنة ؟! (يدخل المختار الاغا)

الاغا ـــ هكذا فلتكن الرجال . ان وسيم رجل . اخذ بثار ابيه فقتل ابن هدى الحمصي (ضاحكا) فما عليك الا ان تحنقي ام طعان بغدائرها ليكتمل الثار . هكذا فلتكن الشباب . وانت يا ابا مرعي ، عزلوك من وظيفتك ؟؟ هـذه دسائس بيت الحمصي فالنائب من حزبهم .

الدكتور ـــ اربعـة عشر قتيلاً ، عشرون جريحاً ، معظم رجال الضيعة في السجن . ألا تكفي هذه المصائب لتشرح قلبك القذر يا غلام . ابؤرة دسائس في صدرك ؟ يا ويلك من يوم يحملق بك الشعب ويقول (متهددا) يا آغا (الى ام وسيم) هـذا تقرير وفاة طعـان . فاحتفظي به ، قد يساعد وسيم في المحكمة اذا مثل امام القضاة ، التقرير يثبت ان وسيم كان مدافعاً عن نفسه ، الله معك يا ام وسيم ، بخاطرك يا ابا مرعي

ابو مرعي ـــ بخاطرك يا دكتور

ام وسيم ـــ مع السلامه يا حكيم ، الله يحرسك

الاغا ـــ يخرج بدون ان يودعني ! سألحق به وأريه (يتظاهر بالهجوم للخارج)

ابو مرعي ـــ طول بالك (الاغا يقف)

المختار ـــ إذاً فقد عزلوك يا ابو مرعي .

ابو مرعي ـــ الدنيا دولاب !

المختار ـــ عزلوك يا ابو مرعي .

ابو مرعي ـــ انا كنت أهم بالاستعفاء .

المختار ـــ عزلوك يا ابو مرعي .

ابو مرعي ـــ أنا لا أحب النوطرة . المشي يتعبني .

المختار ـــ عزلوك يا ابو مرعي .

ابو مرعي ـــ (تاركا برقع النظامر) عزلوك يا ابو مرعي (جسد بقبضتيه اذ :

ينزل الستار

المشهد الثالث

(فرشتان متقاربتان . زليخه نائمة كانها رحى طاحونة .
ام وسيم قرب القنديل بين يديها كتاب صلاة تبتهل :

ام وسيم — « ربِ سدّد خطواته وابعد الشر عنه . رب ان اردت به سوءاً فانزله بي واجعلني فداه . يا الهي. يا سندي . وملجاي . ومعبودي رجوتك وتمنيت عليك راكعة باكيـــة ان تحفظ وحيدي وفلذة كبدي . رب ...

(يدخل وسيم وراجي متلصصين)

ام وسيم — بنيّ لماذا رجعت . ولدي انهم يفتشون عليك .

وسيم — جئت اودّعك امي ، وآخـذ اوراقي . فانا وراجي مسافران . سيهربنا بحارة بيروت الى المهجر . الى اميركا ، فوداعك امي ، سأكتب لك من حيث اكون (يتعانقان) (كل هذه الاحاديث تحـس همساً)

ام وسيم — ستكون غربتك موجعة ولكني سأتحملها في سبيل سلامتك . هذا (مشيرة الى راجي) أيرافقك ؟

وسيم — يصر على ان يرافقني .

ام وسيم — لا تأتمنه . ليس من طائفتنا . سيخونك . يستحيل ان يخلص لك . من جده عادى جدّك يستحيل ان يودك .

وسيم — لآخذ اوراقي (وسيم يأخذ اوراقه وكتاب الاغاني من المكتبة . راجي يشير عليه – بالاشارة لا بالكلام – انه يرمي بتلك الاوراق وذلك الكتاب . ام وسيم تفتح صندوقا وتنزع منها صرة)

ام وسيم — هذه صرة اليقين . فيها عشرون ليرة ذهبية خذها يا بني والله معك .
(قرع شديد على الباب) افتحوا باسم القانون .

ام وسيم — (تشير لابنها وراجي . مخاطبة القارع) مهلًا ، مهـــلًا ، فسأفتح لكم (حينما تدير ظهرها وسيم يفتح الصندوق فيرمي بصرة اليقين فيها ، ثم يفرغ ما في جيبه من نقود ايضًا . كذلك راجي يفعل نفس الشيء . كل هذا يجري بسرعة خاطفه . راجي ينحني على زايخه التي بدأت تتململ ويقول « طل القمر » . يقفزان من النافذة فيختفيان)

ام وسيم — مهلًا يا حضرة الضابط .

الضابط — (من الخارج) افتحي باسم القانون ، باسم القانون

افتحي يا ام وسيم والا كسرت الباب

ام وسيم ـــ ألست انت ابو شكيب ؟

الضابط ـــ (من الخارج) بلى ، أنا هو . انا السرجان سلوم افتحي باسم القانون والا كسرت الباب

ام وسيم ـــ انت لا تكسر باباً على عجوز ، ولا تريد الدخول على غرفة فيها امرأتان في ملابس النوم ، كان اسمك ابو شكيب قبل ان سموك السرجان سلوم ، وكنت تحلف باسم الشرف قبل ان تحلف باسم القانون ، رويدك حتى البس ثيابي

الضابط ـــ (من الخارج) امهلك خمس دقائق

ام وسيم ـــ شكراً لك ، كلك ناموس يا ابو شكيب (متطلعة من النافذة التي قفز منها وسيم وراجي ثم تحكم قفلها . زليخه خلال كل هذا المشهد تشخر . ام وسيم توقظ زليخه)

ام وسيم ـــ زليخه ، انهضي يا بقره ، انهضي

زليخه ـــ (نصف واعية) طل القمر ...

ام وسيم ـــ (هامسة) اسمعي ، الضابط والجنود سيدخلون علينا ليفتشوا المنزل . وسيم مختبيء بهذا الدهليز (تشير الى

الدهليز) اياك ان تخبري الضابط ان وسيم هناك ، أفهمت ؟ اياك ان تدلي الجنود على مخبأه ، فهمت ؟

زليخة — فهمت !

ام وسيم — اين مفتاح الدهليز ؟

زليخة — (تقطع المفتاح من خيط علقته برقبتها وتعطيه لام وسيم)

ام وسيم — (بصوت عال) افتحي الباب لحضرة السرجان .
(يدخل السرجان وجنود فيتفرقون)

الضابط — نريد وسيم .

ام وسيم — لا ادري اين هو ، لم أرَ وجهه منذ الحادثة .

الضابط — أريد وسيم .

ام وسيم — فتش البيت . احلف لك انه ليس هنا .

الضابط — (للجنود) فتشوا البيت (يتفرقون) (لزليخه) اين وسيم يا زليخه ؟

زليخة — هاه !

الضابط — (يهز يدها) أين وسيم ؟ قولي والا سحقت عظامك .

زليخة — في الدهليز . في الدهليز يا افندي (مشيرة اليه) هنا .

الضابط — (يصفر فيجتمع الجنود ، يخاطبهم) وسيم هنا . خذوا

حذركم . (يكشف عن الدهليز فيراه مقفلا) اين المفتاح ؟

زليخة — مع ام وسيم .

ام وسيم — (تنزع المفتاح من عبها فتبتلعه وتصيح) شقوني وخـــذوا المفتاح .

الضابط — سنكسره .(بينما يكسرون قفل الدهليز ام وسيم تتضرع للضابط)

ام وسيم — بربك يا سرجان لا تطلق الرصاص على ابني . لا تقبض عليه . انهم يشنقونه في بيروت (كانما تخاطب ابنها داخل الدهليز) وسيم ابني تجلد . لا تقاتل الجنود فهم مسلحون . لا تحاول الهرب فقد يطلقون الرصاص عليك . بني تجلد . (وفيما هم يكسرون القفل يرفعون الباب ثم يصطفون حول الدهليز بشكل دائرة وبواريدهم مصوبة نحو الدهليز ، ينجدر احدهم شاهراً المدس) (سكوت رهيب)

الضابط — هل قبضت عليه؟ (خارج من الدهليز وفي يده ديك) قبضت على هذا .

الضابط — إذاً فقد ضللتنا ام وسيم لتسهل سبيل الفرار له . لماذا خدعتنا يا ام وسيم ؟

ام وسيم — لأني ام وسيم .

ينزل الستار

الفصل الثاني

●

المشهد الأول

(بعد عشر سنوات . بلاد غرانبلاّ . يرتفع الستار عن مكتب تجاري يظهر ان اصحابه تجـار بالجملة اذ تناثرت في جوانب المكتب مساطر البضائع من مثل كلسات ، برانيط ، احذية ، اقمشة ، صحون ، ملاعق ، شماسي ، اصيص (أرضيه) الخ . . . يواجه النظارة رقمتان الاولى عربية كتبت بحروف هائلة « الدين هو المعاملة » والثانية انكليزية بنفس قياس الحروف العربية :

« Light gains make heavy purses »

« Money is made on turnover and lost on leftover. »

على يمين النظارة صندوق حديدي . وفي المكتب طاولة كبرى ، وثانية صغرى للماكنة الطابعة . والان راجي يطبع على الماكنة بسرعـة وترفزة وغضب . على يسار النظارة كرة عظمى ، هي كرة الدنيا يلاعبها وسيم مدمدما اغنية ووسيم بعكس راجي يظهر ان الدنيا مروّقة معه . بين مساطر البضائع

نحو خمسين رزمة مختلفة الاحجام تلفها اوراق زاهيـة ، وشرائط ملونة ، كالرزم التي يتبادلها الاصدقاء في الاعياد . الوقت اول السهرة . خلف الكرة الارضية مرآة كبرى)

وسيم — (اذ هو يداعب الكرة الارضية ويقيس بمسطرة صغيره)

أووف . أتدري يا استاذ ان بيننا وبين بيروت سبعة آلاف ميل !!! أحسب ! هجرنا بيروت منـــذ عشر سنوات . عشر سنوات غربه . والآن بيننـا وبينها سبعة الاف ميل . اذا ضربنا عشر سنوات طوالاً بسبعـة آلاف ميل أتدري ما هو الجواب يا استاذ ؟ (يتقدم من المرآة فيتطلع الى شعره) الجواب ١٤٣١ شعرة بيضاء (متأوهاً) ونفس حزينـــة ! (لا جواب من راجي) . ما بال الاستاذ مشوّماً [1] هذه الليلة ؟ (لا جواب) (وسيم يتناول حزمة جرائد عربية فيفتحها مدمدماً اغنية ويقلب صحيفة)

وسيم — هالله هالله يا دنيا !! احزروا من هو حاكم طبريا اليوم (يقرأ) : قـــدم بيروت لترويح النفس الاستاذ الاكبر رفله وهّاب ... » (متهمماً) — رفـله وهاب صار حاكم . خبر ثانٍ اسمع يا استاذ :

---

(١) شوّم — اسرف في الاعراض نسبة الى بلاد الشام اذ اضرب سكانها وقاطنوا حكومتهم حتى نالوا معاهدة الاستقلال مع فرنسا . يقابلها في العامية برطم . شفتر الخ ...

« ستكون حفلة الشهداء هـــذه السنة تحت رعاية معالي وهيب باشا سعاده » (مقهقهاً) وهيب سعاده صار باشا وصاحب معالي .. كل أولاد صفنا . كل رفـاق تلك الشجرة صاروا ذوات إلا أنت وأنا نبيع كلسات . حفـلة الشهداء !! (متذكراً) تراهم ايذكرون من نظمّ اول حفلة للشهداء . ما اجمـل ان تمسي بيّاع كلسات بعد ان تقود المواكب !! (يمزق الجريدة) اووف لماذا يطبعون هذه الاوراق (يعود للقهقهة) وفله وهاب حاكم . وهيب سعـاده صاحب المعالي .

راهبي — إذا كنت تفتش عن شيء يضحك فتطلع بهـــذه المرآة .

وسيم — احمد الله الذي انطقك اخيراً يا استاذ . من الضروري ان يتطلع الانسان بالمرآة مرة بالنهار ثم يضحك . (مخاطباً المرآة) صار عمرك ٣١ سنـــة . ما شأنك بالحياة ؟ اخترعت آلة ؟ لا . اكتشفت بحيرة ؟ لا . الّفت كتاباً ؟ لا . افتتحت مستعمرة ؟ لا . من انت ؟ لا شيء .

انت العود بالزبيب

انت الشمس بعد المغيب

انت العرض بتلّ أبيب
انت لا شيء
انت حفلة خطابية
انت بضاعة يابانية
انت معاهدة دولية
انت لا شيء
انت اسفنجة معصورة
انت كمبالة غير مهورة
انت قنينه مكسوره
انت لا شيء
(يصق على المرآة)

راجي — (مصفقاً) فليحيى الخطيب . صدق الخطيب .
(يتقدم وسيم من الزمرة الملونة يقلبها منتقيا الاسماء التي عليها ، مخاطباً راجي)

وسيم — ليس بين الهدايا هدية لانيس سعادة

راجي — ناولـــني الدواة (يناوله دواة زرقـاء) الدواة الخضراء يا حـ... الحمد لله عندما نعمل ميزانية السنة لا نحتاج إلا الى الاحمر من الحبر .

وسيم — ما رأي الاستاذ في هدية لانيس سعاده ؟

راجي — (حانقاً) ارسل له اصبع ديناميت . ارسل لهم كلهم

اصابع ديناميت . هؤلاء « الاصدقاء » الذين ربيتهم في هذه البلاد . لا تدري اي معتوه تجعـــل من نفسك اذ تغدق الهـــدايا على هؤلاء النصابين .
(متهكما آخذاً رزمة بعد رزمة كانه مناولها لاصحابهـا)
كل عام وانتم بخير هدية صغيرة لاخي نبيه النجار .
كل عام وانتم بخير هدية صغيرة لاخي فؤاد ابو هنا .
كل عام وانتم بخير هدية صغيرة لاخي سعيد الشركسي
(يأخذ غطاء الأصيص (الارضيه) فيضربه بهـا ويصيح : كل عام وانتم بخير .

وسيم — ألا تعتقد يا استاذ انك تجعل من الحبة قبة . فكل هذه الهدايا لا تبلغ قيمتهـا المئة ريال ولم اشترها على حساب المحـل بل على حسابي الخاص . وانه لجميل ان يهدي الانسان اشياء ولو تافهة في عيـد راس السنة ؟ الا تعتقد يا استاذ ان لهجتك الحادة لا تليق بليلة راس السنة .

راجي — راس السنة وذنبها سيان . أتحسب اننا في ليلة عيد ؟ انظر الى حسابات المحل وانظر الى اين صرنا بعد غربة عشر سنوات (يتنزع الورقة من الماكنة ويقرأ فيها) علينا دين للبنك خمسة وعشرون الف ريال . المحـل مرهون لفرج الله العسلي بخمسين الف ريال . أي علينا ٧٥ الف ريال . عندنا في البنك خمسة الاف

ريال . لنا على الناس دين ٤٦ الف ريال – سترى وجه ربك قبل ان ترى منها فلساً . وتقبض على قوس القزح قبل ان تقبض منها ريالا . عندنا بضائع بـ ٢٤ الف ريال . اي ان مجموع ما علينا ٧٥ الف ريال ومجموع ما عندنا ٢٩ الف ريال . كل عام وانتم بخير .

وسيم — لكل حديث زمان . والليلة ليلة عيد . ليلة رقص يا بومة . ومرح . وبهجة . فاترك نعيبك الى ليلة ثانية .

راهبي — ليلة رقص ؟! اليوم استحق رهن فرج الله العسلي . اراهنك انه قبل ان يطلع وجه الصباح سيطلع وجه فرج الله ويقول « ادفع او احجز » .

وسيم — فرج الله رجل شريف ...

راهبي — كل انسان هو رجل شريف حتى تتمكن يداه من عنقك .

وسيم — تزيد له الفائدة . ندفع له ٢٤ بالمئة بدلا من ١٨ بالمئة فيسكت الى ان تمر هذه الازمة .

راهبي — ما أشد تفاؤلك . لو كنت في سفينة نوح لسبقت الحمامة الى غصن الزيتون . فرج الله لا يشبعه الا المال وليس عندنا من المال الا الخمسة الاف في البنك

وهذه (يفتح الصندوق) السبعة ريالات و ١٥ سنتيم .

وسيم — ودوّارنا رشيد ؟! آن له ان يرجع من البر . بدون ريب جمع عشرة الاف ريال نرضي بها البنك

راجي — اذا رجع الدوّار بالف ريال اركبك على ظهري الف ميل .

وسيم — تركبني على ظهرك ؟ « من قال لك اني اركب حمير ؟ »

راجي — غرانبلاّ . غرانبلاّ . ما الذي اغراك بهذه البلاد ؟ قلت لك تعال نهرب الى بلاد متمدنة — باريس . نيويورك . لندن . لا . لا تريد الا اميركا الوسطى غرانبلا . انظر الى هذا المكتب بل الى هـذا القفص الذي يحبسنا منذ عشرة اعوام . نعيش مع القذارة . ونتجر بالقذارة . ونعاشر القذارة . والآن الافلاس . وماذا انت فاعل لحل هـذه المعضلة ؟ تريد ان تفرق الهدايا . وتدعو اصدقاءك الى وليمة . وتذهب الى مرقص الحاكم متنكراً بثوب بدوي . نِعمَ التاجر ، والمفكر انت . كل اخلاقك اخلاق بدوي . ولا اعرف انه نبغ من البدو تجار .

وسيم — راجي انت طفل . والطفل متى واجـه المصاعب لا يفعل شيئاً الا البكاء (يتباكى) راجي ...

راجي — لا تنادني « راجي » الم تفهم بعد ؟ أتريد ان تزيد مصائبنا مصيبة ان يفتضح امرنا لدى البوليس ؟ أتريد ان يفتك بك ابناء الحمصي ؟ هؤلاء المواطنون اذ هاجروا البلاد هاجرت معهم احقادهم . لا تنس ذلك يا غبي ، ألم تتعلم بعد ان اسمي سليم الصيداوي واسمك سلّوم الصيداوي ونحن اخوان وتجارتنا « صيداوي اخوان » . تجارتنا ؟ ! طابق افلاسنا اعني . (يرن التلفون فيجاوب راجي) هلو . هاي . (متهكماً) ها . ها . ها . كل عام وانتم بخير . اما بعد ... انا سلوم وانا سليم وانا كل عائلة الصيداوي . ولماذا لا تعرفنا الى لون عملتك قبل ان تطلب كلسات من جديد . (وسيم يخطف التلفون من راجي) .

وسيم — (بلطف) سليم يكلمك يا نبيه . كل عام وانت بخير يا نبيه . اربعين دزينة كلسات ؟ تكرم . عشر دزينات صبابيط ؟

راجي — الصبابيط على الراس والعين (وسيم يسد فم التلفون بكفه) يا نصّاب .

وسيم — (على التلفون) الحساب لا يهم . لا تنس ان تحضر العشاء عندنا هذه الليلة . (يقفل التلفون) .

راجي — حسابه عمره سنه ويطلب بضاعة . يطلب بضاعة في ٣١ كانون الثاني . لماذا لا تنزع الغشاوة عن عينيك فترى هؤلاء المخادين .

وسيم — لأن الله خلقني ضعيف البصر . وخلقك ذا رأي صائب ، وفكر ثاقب . رويدك راجي — سليم . لا تحاول ان تحل كل مشاكل الدنيا هذه الليلة . امرح هذه الليلة وغداً فكر .

راجي — من يمرح في الليل لا يفكر في النهار . والله اكاد اجنّ . اعطني مورفين ، وكوكايين . ان اعصابي تكاد تنقطع . اريد ان انطح السقف . ربّي الى اية حالة وصلنا . غربة ، وتنكر تحت اسم مستعار والان افلاس . اهمّ في النهار مئة مرة ان اصيح بالناس مـــا نحن باخوين . لسنا سلّوم وسليم الصيداوي . نحن وسيم الحموي وراجي البـــيروتي ولتهبط السماء ولتزلزل الارض . راجي البيروتي صار اسمه سليم الصيداوي .

وسيم — ووسيم الحموي صار اسمه سلوم الصيداوي ؟ ! هـذه ليست المصيبة . المصيبة ان اصير اخاً لواحـــد مثلك يا استاذ .

راجي اهزأ وداعب . اشعر كأنك حجر مطحنة في عنقي .

وسيم — الا تعلم ان الغضب دليل الخوف . وان الرجل الرجل هو من يبصق في وجه العاصفة ؟

راهبي — من بصق بوجه العاصفة ارتد بصاقه الى وجهه .

وسيم — لا يقهر الحياة الا من هزأ بمصاعبها . ابتسم في الازمة (يقف وقفة عسكرية) وقل لها تعالي . انا لك .

راهبي — الحق معك . في الحرب العظمى ، جندي جاءته الازمة متسربلة ثوب قنبلة فابتسم لها (مقلداً وسيم) وصاح تعالي انا لك .

وسيم — صحيح ؟ ما اسم ذلك البطل ؟

راهبي — صاو اسمه الجندي المجهول .

(يرن التلفون فيركض اليه راهبي)

راهبي — اب . اب . اب . ابا يبيب . مرحباً رشيد . أهلبْ كلبْ . لبْلبلبلب . نحن بانتظارك يا رشيد (يقفل التلفون) كل عام وانتم بخير . جاء رشيدك . (كمن انبثق على عقله نور فكر جديد) وسيم ، قل لي لماذا انت فوّار المرح هذه الليلة ؟ رأس السنة ؟ لا اصدق . رأس السنة وحدها لا تهزك بمثل هذا الفرح .

وسيم — ها . ها . ها . الان بدأت تبرهن ان الذي بين كتفيك هو راس انسان وليس راس بطيخ .

راهبي — ساره ؟

وسيم — ساره .

الاثنان — ساره .

راهبي — وهل رضيت انها عن زواجها منك بدون ان تعرف دينك (مستطلعاً) أخبرني ماذا جرى .

وسيم — (يسكت ضاحكاً فيتضرع له راجي) أتريد ان تسمع الخبر ؟

راهبي — قل لي فكلّي اذان .

وسيم — وهل كلّك ألسنة ؟

راهبي — (يمد لسانه فيمثل انه قطعه فرماه ويتكتف مدمدماً كالاخرس) .

وسيم — قطعت لسانك وصرت اخرس اذاً فاخبرك بما جرى. تزوجنا منذ اربع ساعات — زواجاً مدنياً عند القاضي . سيبقى هذا الزواج سراً .

راهبي — (فرحاً . يقبله) عرس كهربائي هاه ! . كل عام

وانتم بخير . انظم لي قصيدة فاني اريد ان اهنئك :

« والحب نقاد على كفّه جواهر يختار منها القباح »

راهبي — سانتقل الى اللوكندة . انت وساره عيشا هنا .

وسيم — لا . ستبقى انت هنا كما انت . فساره تعيش مع امها وانا اعيش هنا .

راهبي — هاه ؟! تزوجت وانت تعيش هنا ، وساره تعيش هناك ؟ هاه .

وسيم — هاه . وهاه . وهاه . ان مخيلتك يا استاذ تحتاج الى قليل من حامض الفنيك . هذا زواج عذري .

راهبي — (مدهوشاً) سمعت بالهوى العذري والان اتعرف الى الزواج العذري ، وكل عمري اعتقد ان الحب هو عذر للزواج . (التلفون يرن فيسرع اليه راهبي)

راهبي — (سماعة التلفون على اذنه – الى وسيم) هـــذه جوليت يا روميو . هلو ساره . الان اخبرني سلوم بالحادثة يعني الزواج « علوّ في الحياة وفي الزواج » يعني كل عام وعندكم توأم بنات (وسيم يدفعه ويخطف التلفون منه) هذه ليلاك يا مجنون .

وسيم — هلو ساره . لا ، لا ، ليس من احد هنا . سليم هنا يعني ما في أحد . ثوبي جاهز . سألبس العقـــال

واكون بدوياً يا زينب . لا تنسي ان البدويات يكتحلنَ . صبرك فاري ورقة الدعوة (يفتش ويفتش فلا يجدها) أين ورقة الدعوة يا استاذ ؟

راجي — تحت عينيك يا روميو (مشيراً الى مغلف قريب من وسيم) حقاً ان الحب اعمى

وسيم — (يرجع الى التلفون) الساعة التاسعة يبـــدأ الرقص فاسرعي . اسرعي . سأكون حاضراً اذ تمرين . (يقبلها على التلفون ويرقص بينما راجي يغمض عينيه ويغفل اذنيه ثم يتطلع الى السماء ويقول)

راجي — الطقس جميل هذه الليلة يا وسيم !

وسيم — الحب . الحب . يا استاذ . اتدري ما هو الحب ؟ أما تحسّ ان في قلبك اجنحة ؟

راجي — احسّ ان في قدمي مرساة .

وسيم — أما تحسّ هذه الرعشة تهزّ جوانحك ؟

راجي — نو سنيور .

وسيم — وهذه البهجة تصبغ الدنيا امام عينيك بألوان زاهية ؟

راجي — نو سنيور .

وسيم — ودبيب الحياة حارّ في عروقك كأنك تغتسل في

شلال من شعاع ؟!

راجي — نو سنيور .

وسيم — والفرح يغمر رأسك وقلبك .

راجي — نو سنيور وعدا ذلك فليس لي رأس ولا قلب .

وسيم — اجلس هنا . سمّ نفسك الى هذا المقعد واجمع واطرح واحسب وانفلق . فانا مختلٍ الى نفسي فلا تعكر عليّ عزلتي . ان الالهام يغشاني ثانية . انا في الجنة من جديد .

راجي — خذ البرنيطة والعصا (يتناولها وسيم من راجي) .

وسيم — ان روايتي ستتم . ان طيفها يتتبعني هذه العشرة اعوام كطفلة عاجزة تناديني مستنجدة : « لماذا وأدتني يا ابي ؟ » .

راجي — وان طيف ثروتي الصغيرة يتبعني كطفلة تقول لماذا دفنتني يا ابي فاجيبها اسألي عمك (مشيراً الى وسيم) يلعن اباك (مشيراً الى نفسه) .

(وسيم ينصرف الى الغرفة التي الى يسار النظارة . راجي ينتزع كتاب الاغاني من بين المساطر) .

راجي — (مخاطباً الكتاب) كل مصائبنا جاءت منك . لماذا

لم يحرقوك مع مكتبة الاسكندرية ؟ (يقرأ) « دخل صعلوك على الامير جان فالجان فقال بونجور قال الامير خذ بنطلوني وسترتي ورطـــلاً من لحيتي » (يدخل رشيد جاراً حقيبة هائلة هي حقيبة الساطر) .

رشيد ـــ م ٠٠ م ٠٠ م ٠٠٠ مساء الخير .

راهبي ـــ اسعد الله مساء الامير رشيد (لغرفة وسيم) يا مسيو عبدالله بن المقفع . يا ابا القاسم غوستاف لوبون . يا ابا جوزف الاخشيدي . يا كاتب الكتاب وشاعر الشعراء ، ومفقوع المفاقيع (وسيم يطل) في البـاب رسول يامولاي يحمل الهدايا من الرعية (يفتح الصندوق) فلننظف الصندوق (الى رشيد) ناولـــني اوراق الالف ريال اولاً .

وسيم ـــ مرحباً رشيد كم جمعت ؟

رشيد ـــ ج ٠٠ ج ٠٠٠ جمعت . لا . لا . لا . شيء .

راهبي ـــ برافو كنت اخاف ان تجمع اقل من هذا .

وسيم ـــ (لاول مرة يعبس ويظهر الهم) كفى هزلاً كفى. كم تبلغ قائمة الديون التي اعطيته اياها ؟

راهبي ـــ (يفتح الدفتر) ٢٥،٣٢٠ ريالاً . من اليسار الى اليمين ـ اثنان ، خمسة ، ٣ ، ٢ ، صفر . قبض

الصفر والسفرة الثانية يقبض الباقي .

وسيم — لماذا لم تقبض يا رشيد ؟

رشيد — لأن . ان . ان . انهم ما دفعوا .

راجي — سبب معقول . لو دفعوا كان قبض امر جلي واضح شفاف كالوحل .

وسيم — (مفكر مهموماً متمشياً) اترك هذه (مشيراً الى الحقيبة) جاهزة . انا مسافر هذه الليلة .

رشيد — البحر كبير والعاصفة . تش . تش . تش . تشتد .

وسيم — البحر كبير هاه ؟؟ العاصفة تشتد هاه ؟! (يسمع اربع صفرات طويلة) .

راجي — علامة الخطر نمرو ٤ .

وسيم — علامة الخطر نمرو اربعه هاه ؟! ابق الشلنة مضبوبه . الليله اسافر بعد سهرة الرقص واريك يا استاذ كم اجمع وكم ابيع .

رشيد — هاني الارناؤوطي يقول ما لكم عليه دين

راجي — حينما اردت ان اجعله يمضي الفاتوره صاح ابو الحسن موليير (مشيراً الى وسيم) لا لزوم . لا لزوم

وسيم — هذا غير صحيح . الآن اريك الفاتورة وعليها الامضاء .
(يفتح السجل « هاني الارناؤوطي » « هاني الارناؤوطي » بعد ان يفتش ويفتش فلا يجده) اين وضعت اسمه يا سليم ؟ لم اجده تحت الهمزة ولا تحت الهاء فاين هو ؟

راجي — تحت حرف الكاف .

وسيم — هاني الارناؤوطي اما همزة او هاء . فلماذا وضعته تحت حرف الكاف ؟

راجي — لانه كلب ابن كلب . مع الاعتذار للكلاب .

وسيم — (يطبق السجل غاضباً) رشيد . كل عام وانت بخير (يفتح الصندوق) خذ هذه السبعة وبالات والكم سنتيم عيديتك . لا يأخذ على خاطرك فشلك في هذه السفرة فالدنيا كلها في أزمة هائلة .

رشيد — بخا . خا . خا . خاطركم (ينصرف)

راجي — ليتك اعطيته تشاك بالمبلغ فقد تحتاج الى النقد هذه الليلة .

وسيم — رح انظر الى دفتر التشكات تعرف لماذا لم اعطه تشاك .

راجي — (يفتح الصندوق الحديدي ويأخذ دفتر الشكات ويصيح)

وسيم . وسيم . ماذا فعلت ؟ اين الخمسة الاف ريال ؟

وسيم — اشتريت بها اسهماً في معدن الذهب .

راجي — من ذلك النصاب وطسن ؟

وسيم — من ذلك النصاب وطسن .

راجي — الذهب الذي فوق الارض لم نحصل عليه فهل نظفر بالذهب الذي تحت الارض .

(وسيم يأخذ كتاب الاغاني ويقلب صفحاته)

وسيم — سأحاول الفوز فوق الارض وتحتها — وكل فشل جديد يثير محاولة جديدة .

راجي — (من الكتاب) « دخل جبلة بن الايهم على يحيى بن يزيد . فقال السلام عليكم . اجاب يحيى ابيت اللعن خذ برنيطتي وبنطلوني . وذبح له الانعام »

وسيم — (يثور) اخرس . كفاك هزءاً كفى . تتحرق على الستر باسم مستعار كأنني انا التذّ بان اخسر حتى اسمي واستبدله باسم سليم الصيداوي . تبكي ضياع ثروة كأنه لم يكن لي نصفها وكانك كسبتها وحدك . من جمع الثروة يا راجي ؟ من هزأ بالاخطار ؟ من نام بين اجلاف الناس ومشى

الكيلوات حافي القدمين ، دامي القدمين ؟ هـل مرّت زوبعة خلال العشر سنوات الماضية ولم اتقلّب بين اشداقها في عرض البحر ؟

راهبي — انا لا اقول انك لم تشق .

وسيم — من اخترع اساليب تجارية لم يعرفها اولاد العرب قبلنا ؟ كم مرة قال لي الدكتور نجيب لا تجهد عينيك والا تعمى — ويشهد الله اني ما زلت اجهد عيني واني لا اخاف العمى . أيوم الفوز تسكت ، ويوم الفشل تهزأ ؟ اصفعني ، قوّمني ، ولكن لا تتهكم عليّ — الهزء ، الهزء انه يحزّني حتى العظام .

راهبي — انا لا الومك يا وسيم . الوم ثقتك بالناس . الوم المدرسة التي علمتك ان لا تكون لصاً ، ولم تقل حذار . فالدنيا ملأى باللصوص . الوم البيئة التي انشأتك جواداً على الغير ، بخيلاً على نفسك . الوم من رباك ولم يعلمك الانانية ، وعدة النجاح هي الانانية . الوم الكتب التي غمرتك بالشرف ، والمروءة ، والمعروف — ادوات انتحار في دنيا فقدت الشرف والمروءة والمعروف .

وسيم — ولا تحسبّني جئت اقامر بحياتك وباموالك واموال دائنينا . (يأخذ من يده بوليصة سوكرة حياة) انت

لم ترَ هذه بعد (يفتحها) انظر ان حياتي مضمونة بمئة الف دولار. افهمت ؟ (يتناول من جيبه مسدساً) وان ضغطة من سبابتي تدفع لك ولدائنينا. افهمت ؟ الحياة جميلة وغالية ، ولكني اطرحها كزجاجة مكسورة ، متى دعا الداعي . صار دعابك لاذعاً . احس ان قد انفتح بينك وبيني وادٍ عميق .

راجي — (متنبئاً) واد ؟ اعمل زنودي جسر ، وبقطعك ليّا .

يتطلع الواحد بالاخر لحظة ثم يصيحان معاً « و لا ! » . ويتعانقان مقهقهين) .

راجي — يلعن دين الغضب .

وسيم — يلعن دين النرفزة .

(راجي يدق على خزانة صغيرة مخاطبا اياها « يا جابر المكسور ، وصديق المخذول ، في الباب اخوان ، اليك يلتجئان » يترع قنينة) في لبنان ينتخبون ملكة للجمال . هذه ملكة القنوط بثربان

راجي — اصحيح ان بيني وبينك وادياً ؟

وسيم — اصحيح انني في رقبتك حجر مطحنة ؟

راجي — ها انا اقطع الحجر (يمثل انه يقطع حبلاً من عنقه) تدحرج الحجر ....

وسيم — وسدّ الوادي .

وسيم — ما اجمل الدنيا اذا نظرت اليها من خلال كأس ..

راجي — حقاً انها وهاجة جميلة .

وسيم — خطر على بالي امر .

راجي — ما هو ؟

وسيم — تعال نستشير الدكتور نجيب بحالتنا .

راجي — هذا أول رأي صائب خطر على بالك هذه السنة .

وسيم — تعال نخبره بامورنا المالية .

راجي — وامورنا — امورك — الغرامية . تعال نخبره بكل شيء

وسيم — انا أثق بالدكتور نجيب .

راجي — انا لا أثق إلا به — وبنفسي (بعد تردد) لا . لا أثق بنفسي كثيراً . على كل حال ان امر زواجك سيعرف يوماً من الايام . وهدى حماتك ستقيم الارض وتقعدها . ومن يدري فقد يفتضح امرنا كذلك . تعال نخبره بحادثة وادي الارز ايضاً .

وسيم — نخبره بكل شيء . أي نبيل هذا الرجل !

راهبي . كاس الدكتور نجيب . كاس الافلاس .

وسيم

وسيم — متى وصلت الى الكاس الخامسة انتصب امام عيني قصران في راس بيروت . انا وساره في قصر . وانت — وانت ومن ؟

راهبي — أنا ونفسي .

وسيم — ألن تتزوج ؟

راهبي — انا اتزوج ؟ معاذ الله . الله خلقني اعزب وسأبقى اعزب .

وسيم — باسم جمعية النشوء والارتقاء اشكرك . هل تريد ان يكون للقصر جنينة ؟

راهبي — طبعاً جنينة . فيها اشجار التفاح والليمون .

وسيم — والرمان ، والخوخ .

راهبي — واشجار معرفة الخير والشر .

وسيم — وانا عندي ولد وحيد — صبي . هاه !!

راهبي — صبي الله يخليه . اسمه ابو الفرج . وقّف . اذا صار

عندك صبي ، فانا سأقتني كلباً !

وسيم — ولماذا ؟

راهبي — ليحمي الجنينة من ولدك !

وسيم — رد كلبك عن ابني .

راهبي — رد ابنك عن جنينتي .

وسيم — الكلب .

راهبي — الصبي .

وسيم — الكلب .

راهبي — الصبي .

(يدخل الدكتور نجيب باسماً .)

الدكتور نجيب — من هو الصبي ومن هو الكلب ؟

راهبي — انا الصبي يا دكتور .

وسيم — (مصافحاً) كل عام وانت بخير يا دكتور .

راهبي — طبعاً لا تريد ان تشاركنا بكاس . فما رأيك بفنجان قهوة صغير (مشيراً بيديه ان الفنجان كبير جدا) من تلك الفناجين التي تحبها ؟

الدكتور ـ لا وقت عندي حتى للقهوة . فقد تركت المستشفى لحظة حتى اعايدكم وحتى (يشد أذني وسيم) ارى هذا المتمرّد على الطب اذا كان قد لبس النظارتين . هل تريد ان تلبس النظارتين . ام اطيل هاتين الاذنين ؟

وسيم ـ آخ العفو يا دكتور . سالبس النظارتين وحق هذين الشاربين (يعمل اشارة كأنه يحلف بشاربيه وهو حابق) امهلني للسنة القادمة . بيننا وبينها بضع ساعات .

الدكتور ـ السنة القادمة ! كل صعب مؤجل . هذا آخر انذار . لا تأجيل بعد غد . حالة عينيك يا سلوم ليست من الامور التي يستهان بها . افهمت (يقلب جفني عينيه فيفحصهما) (ويهز رأسه ويقول) يلزمك معالجة . تعال اليّ في المستشفى مرة كل يومين (يرن التلفون . فيسرع راجي اليه) .

راجي ـ هلو . أوْ يا دكتور تلفون من المستشفى . (بينما الدكتور يتكلم على التلفون بصوت غير مسموع . راجي ووسيم يرجعان القنينة والكاسين الى الخزانة . الدكتور يرجع اليهما) .

الدكتور ـ سألني مدير البوليس اليوم عن شخص اسمه وسيم

الحموي مطلوب من بيروت بتهمة قتل طعان الحصي ، اخي خطيبتك يا سلوم . غريب ما اصغر هذه الدنيا ! كنت في « وادي الارز » يوم الحادثة ، وقد كتبت انا تقرير الموت بيدي (تلفون . راجي يجيبه)

راجي — دكتور . الممرضة تقول وصلك اربع برقيات من حين تركت .

الدكتور — اسألها ان تفتح التلغرافات وتخبرني اذا كان فيها شيء مهم . (يعود الى التطلع بعيني وسيم . راجي يغازل الممرضة على التلفون ويظهر انها اهانته فيرمي السماعة من يده كانها جمرة ويصيح « دكتور الممرضة تريد ان تكلمك انت » . فيذهب الدكتور الى التلفون بينما يرجع راجي الى وسيم) .

(راجي ووسيم يتهامسان) .

راجي — تعال نخبره الان .

وسيم — اريد ان ازحزح هـذا الحمل عن صدري (يرجع الدكتور) .

الدكتور — اين السهرة هذه الليلة ؟

وسيم — ساذهب وساره الى بيت الحاكم .

الدكتور — صحيح . ليلة راقصة متنكرة . ماذا تلبسان .

وسيم — بدوّيه وبدوي .

الدكتور — (يضحك) وانت يا سليم ؟

راجي — انا سيدة المنزل . ساستقبل المواطنين اولاد العرب ونحيي ليلة صخّابة هنا .

الدكتور — (لوسيم) يسرني انك تحضر المراقص . لو ان المواطنين يرقصون . ويلعبون الغولف والبردج لكان لنا في هذه البلاد مقام اجتماعي .

راجي — مقامك الاجتماعي يغني ....

الدكتور — لا تخالف الوصية الحادية عشرة .

وسيم — ما هي الوصية الحادية عشر .

الدكتور — لا تمسح جوخ [1] .

(التلفون يرن . راجي يجيب خائفاً ان تكون المحرضة . قبل ان يرفع السماعة) .

راجي — (الى وسيم) أمن الضروري ان أجيب على التلفون انا دائماً ؟ (واخيراً يشجع نفسه فيرفع السماعة ويمك اذنه كانما فمه لسعتها) المستشفى يا دكتور (الدكتور

---

(١) — تعبير بيروتي معناه لا تتملق . في غير بيروت يمكن استبدال هذا التعبير اما باصطلاح محلي او بـ لا تبالغ .

يذهب الى التلفون فيتكلم بصوت غير مسموع) .

راهبي — اجلهـــا .

وسيم — ان هذا الكتمان يشوبني . لنفرغ له اسرارنا هذه الليلة
(يرجع الدكتور) .

راهبي — لنا معك حديث طويل .

وسيم — يا حكيم ان الناس تأتمنك على ارواحها ...

الدكتور — اذكر الوصية الحادية عشرة
(تلفون . يجيبه راجي بعـد ان يتردد . وكأنه سمع خبرا هائلا)

راهبي — اسرع يا دكتور . امرأة كامل الاميوني تستنجد بك .
زوجها انتحر في دكانه .

الدكتور — بخاطركم نتحدث ساعة ثانية (يترك بسرعة . وقبل
ان يخرج يكاد يصطدم بفرج الله الذي يقول ليلة سعيدة
يا دكتور . فلا يجيبه هذا)

راهبي — اهلا بفرج الله (على حدة) وألعن خلق الله .

وسيم — هو ! فرج الله ؟!

فرج الله — كل عام وانتم بخير يا احبّاي (يتقدم الى وسيم ثم
الى راجي فيقبلهما : كل عام وانتم بخير .) (راجي

يغمس منديله بالويسكي ويمسح مكان القبلة) كامل الاميوني انتـــحر (يضحك ضحكة سادّية (١) فتّش عن الدولار . يربح عشرة ويصرف عشرين . الآخرة انتحـــار . (يرجع الى الفونوغراف) الصحيح اشتقنا . كيف حالكم ؟

راجي — حالنا نصفه ملعون ، والنصف الثاني العن .

فرج الله — سلوم دائماً يحب الولدنه . عساك تبقى فرح القلب يا حبيبي (يقبله ثانية فيمسح راجي مكان القبلة ثانية) سلوم . مالك كئيباً ؟ لا تخف الأزمة خانقة في كل مكان . الناس كالشجر تعرى وتكتسى . الدنيـا فور وغور .

وديم — فرج الله — قل لي ، هل اتيت بسبب الرهن ؟

فرج الله — الرهن . لا والله العظيم . بشرفي . بديني . برحمة امي . بعرض اختي نبيهه . اني لا أهتم بالرهن مطلقاً . وحياة عينيك . وحيـــاة الخبز والملح الذي بيننا كنت في طريقي الى العاصمة فقلت لأمرّن بشقيقي روحي سليم وسلوم . الصحيح ان الحالة التجارية

(١) — لا اعلم هـل في العربية لفظة تقـابل Sadisme ولعل سادّية . ساديّ ، تعريب لا بأس به او لعل لفظة تلعذب (من استلذّ — التعذيب) ترضي المحافظين .

تعسة جداً !

راهبي — أأنت تشكو من الحالة التجارية ايضا ؟

فرج الله — أتحسب اني بمنجى من هذه الازمة ؟ وحياة عينيك . بشرفي . بديني . برحمة امي . بعرض اختي نبيهه . اني خسران . خسران . خسران .

راهبي — يعني بدلا من ان يكون عندك خمسة ملايين صاروا اربعة ملايين ونصف ؟!

فرج الله — (الى وسيم) ما رأيك في هذه الحالة يا حبيبي سلوم ؟

وسيم — رأيي بهذه الحالة مثل رأي مدير البوليس بصاحب المحششة .

فرج الله — اذا سألتني رأيي اقول يا بني انك شاب ذكيّ . لم ارَ في اولاد العرب منذ اتيت هذه البلاد الثلاثين سنة خلت فتى دأب وشقي واشتغل مثلما دأبت انت وشقيت واشتغلت . ان قلبي يتفتت كلما فكّرت في امرك فوجدتك بعد جهاد عشر سنوات تتدحرج الى هاوية الافلاس . سلوم لا تخدع نفسك . تجارتكم في خراب .

وسيم — هذا صحيح .

فرج الله ــ انت مضحكة اولاد العرب اليوم . والذين كانوا يصفقون لك بالامس هم اليوم يصفّرون .

وسيم ــ ان صفيرهم لا يهمني .

فرج الله ــ انت طموح . انما الدنيا للظافر . للقوي . للغني فان انت فقدت الغنى والقوّة فلن تكون ذا شأن بين الناس ولو طبّلت لك الملائكة وهللت الشياطين

رامي ــ قرأت هذا الرأي في كتاب ثمنه خمسة قروش

فرج الله ــ قرأته ولكنك لم تفهمه . لو انك فهمته . لو ان اخاك سلوم فهمه ، لكنتم اليوم في غير هذه الحالة . اليوم انتم شباب لا تفهمون حرقة الفقر . اذ ان الفتوة حمقاء تستخف بكل شيء . ولكن متى نزلت بكم الكهولة وكثرت زجاجات الادوية في غرفكم ، وتطلعتم الى الشارع من زريّ نوافذكم فنظرتم الاجلاف يتصدرون السيارات الفخمة اذ ذاك تذكرون صديقكم فرج الله وتقولون آه ..

وسيم ــ هل لك ان تفصح لنا عما تريد واكفِ نفسك مؤونة التمهيد .

فرج الله ــ لقد وجدت مشترياً لتجارتك يدفع لك ٢٠٠ الف

ريال نقداً .

راهبي — ومن هو هذا المشتري القبرصي ؟

فرج الله — اسمه ؟ ! اسمه شركة السكورتاه .

وسيم — يعني تريد ان تزيد الضمانة على بضائعنا ونحرق ؟

فرج الله — اعني انك تزيد الضمانة على بضائعك ثم تقطع شريط التلفون هكذا (يذهب الى التلفون ويمثل) وتصل الشريط بالبضائع ثم تذهب الى مكان ما فتنادي هذا التلفون فيتسبب Short circuit ويطير الشرر من الشريط ويحترق المحل. اترك التنفيذ الي ّ ليس لك الا ان توافق على ما اقول . في الماضي كانوا يحرقون بالشمعة ولكنها موضة بطلت . اليوم Short circuit . ما اسمه بالعربي ؟

راهبي — اي حريق من بعيد لبعيد ؟

فرج الله — اي نعم .

راهبي — حريق عذري أو افلاطوني . حب عذري . زواج عذري . حريق عذري .

وسيم — سمعت الكثير عن لؤمك وألاعيبك وشرورك . الآن اصدقها . ان هذا الفتى الماثل امامك الذي

تشفق عليه من التدهور الى الافلاس ، يشفق عليك من لطمة تطحن اسنانك ان لم تكبح رزانتي غضبي .

فرج الله — على مهلك يا سلوم . والله احبكما كأخويّ .

راهبي — الظاهر حضرتك وحيد .

فرج الله — بشرفي

فرج الله } بدبني برحمة امي . بعرض اختي نبيهه .
راهبي }

فرج الله — اني لا ابغي الا مصلحتكم . سلوم ! انظر الى ذلك القصر الذي تتلألأ انواره . والى الاسهم النارية التي تصعد الى السماء كانها قافلة نيازك شدّت الى القمر الرحّال — هذا قصر علوي اخوان . اتدري ما مصدر هذه الابهة . وهذا النور ؟ (يشير عود كرسي) هذا . من يعيّرهم اليوم بما جرى امس ؟ من لا يبجّل عظمتهم ؟ اي فتاة لا تحلم بالزواج من احد الاخوة الخمسة . سلوم بينك وبين الغنى شرارة نار .

راهبي — (يقف) بينك وبين الغنى بصّة نار .

فرج الله — كان لجمع المال موسم في هذه البلاد وولّى . يوم

كنا نشتري كيلو الساعات بريال ونبيع الواحدة بخمسين ريالا . اما اليوم فاهل هذه البلاد اشطر من تجار حلب . لن تصل الى الغنى عن طريق التجارة .

وسيم — ولا اريد ان اصل على طريق اللصوصية .

فرج الله — لا تريدها . هاه ؟ كلما اردت ان تطرك الدنيا دولارات ، تضع فوق رأسك مظلة . حينما ترجع الى البلاد هل يسألونك كيف جمعت المال ام كم جمعت من المال ؟ واذ انت تربح من شركة الضمان هذه الثروة — تسرق من ؟ تسرق السارق . اذ ان اكبر لصوص الدنيا هي شركات الضمان . فكّر بهذا الامر ولا تدع اباءً مزيفاً يجمح بعقلك . ان مآوى الفقراء ملأى بالمثقفين ، الاذكياء ، المجتهدين الاشراف . انظر الى اسعد معصّب — كاتب ، شاعر ، خطيب ، يحسن اربع لغات ويشتغل عندي بمئة ريال في الشهر (يعود للقهقهة) لا تنس — حينما تموت يدفنون جثتك انت لا جثة سواك .

وسيم — كفى . كفى . ان منطقك يخيفني . ان مجرد اقتراحك ارتكاب هذه الفعلة الشنعاء بين تربيتي ومرؤتي . منطقك معقول . ولكن النفس الابية تطيع الطبع اكثر مما تطيع المنطق . لماذا لا تحرق

وتقبض ؟ ولماذا لا تتزوج اختك نبيهه ؟ في وسعي ان اقنعك انه لا عار بزواج كهذا ؟ ان كلّ ما بيننا وبينك من علاقة هو هذا الرهن نجدده ثم ندرس علم الاجتماع على غير الاستاذ فرج الله .

راجي ــ ندرسه على الاستاذ أبي الفرج الاصبهاني ، صاحب كتاب الاغاني .

فرج الله ــ الرهن يجدد ؟ ! (يهزهه) قد يكون هذا في كتاب ابي الفرج ولكنه ليس في كتاب فرج الله متى استحق الرهن يدفع الرهن ، هذا هو القانون .

وسيم ــ قانون الناب والمخلب . ان كنت لا تحب ان تجدد الرهن نضاعف لك الفائظ .

فرج الله ــ تدفع قيمة الرهن والا احجز .

راجي ــ يا فرج الله لا تضيق انفاسنا .

وسيم ــ اذاً من اجل هذا جئت .

فرج الله ــ (نصف منهم) لا . جئت لاقول لكم كل عام وانتم بخير . ولأهنئك بزواجك بساره .

وسيم ــ كيف عرفت بزواجي ؟ فقد كتمت الخبر عن جميع الناس .

فرج الله — سر النجاح ان تعرف ما لا يعرفه الناس .

وسيم — ألا تعرف شيئاً آخر لا يعرفه الناس ؟

فرج الله — أعرف ان البوليس يفتش عن وسيم الحموي وراجي البيروتي .

وسيم — هكذا اخبرنا الدكتور نجيب . وانت الا تعرف اكثر من هذا؟!

فرج الله — (بمعنى) رأس الحكمة ان لا تفشي كل ما تعرف . اسمع جلبة . لعل ضيوفك قادمون . كل عام وانتم بخير . الدفع الدفع او الحجز . انما بينك وبين الغنى (يضرب عود الكبريت فيشعل سيكارته) بصة نار .

وسيم — اخرج يا لص .

فرج الله — لا تغضب . الغضب دليل الخوف . انت لا ترى الخطر لان الخطر ليس امامك بل هو راكب على ظهرك (ينصرف)

راجي — لو كان هنالك طريقة ان نحرق دون ان نحترق . وان نقبض دون ان تدفع الشركة لكنت اوافق على هذا المشروع . ولكن مشاريع كهذه هي ليست عذرية فقط بل فوق العذرية . Super عذري .

وسيم — ارى الغيوم السوداء تتلبد . (جلبة وضحك)

رامي — اقبل الضيوف . (يدخل ستة مهاجرين يلبس أكثرهم السترة المقفلة حتى العنق . ليس بينهم تشابه كبير . أكبرهم رجل اسمه عباس هائل الجثة . احدهم يضرب على الدربكة وكلهم يغنون :)

مهما تفرنجنا منظل اعراب
مهما تبلدنا منظل اغراب
ومهما نقاتلنا منظل احباب
نحنا الاشاوسه
اولاد العرب
الهنا واحد ما منشرك فيه
بيرقنا واحد نتظلل فيه
عدونا واحد ما منسمّيه
نحنا الاشاوسه
اولاد العرب

(ضوضاء وسلامات وكلام غير واضح وكل عام وانتم بخير الخ ..

وسيم — اهل وسهلا يا اخوان . ارجو المعذرة منكم . اذ اني ساتركم لاحضر الليلة المتنكرة الراقصة عند الحاكم . اخي سليم يبقى معكم ويخدمكم . اسمحوا لي بان ادخل فاغيّر ثيابي .

مهاجر ـــ باي ثوب ستتنكر ؟

وسيم ـــ بثوب بدوي .

مهاجر ـــ اذا لزم البدوي جمل فعباس (مشيرا الى صاحب الجثة الهامدة) حاضر . (وسيم يضحك وينصرف)

راهبي ـــ أين شمدص يا شباب .

مهاجر ٢ ـــ شمدص يكون هنا بعد هنيهة .

مهاجر ٣ ـــ شمدص اعتمد الرجعة الى البلاد .
(يدخل شمدص)

شمدص ـــ يا اخوان الرائحة عاطلة .

مهاجر ـــ كنا نتحدث عنك . (اصوات هتاي شمدص سنيور تشارلي جو .)

شمدص ـــ مساء الخير . يا اخوان كل عام وانتم بخير . اذا لزمكم خدمة للبلاد انا حاضر . باذن الله اسافر في ١٣ الشهر .

مهاجر ٤ ـــ ما الذي جعلك تعتمد على السفر ؟

شمدص ـــ تعبت من اسم « تشارلي جو » احنّ الى مناداة الناس لي يا شمدص جهجاه .

مهاجر ٥ ـ هل ترجع حليقاً ، أم تربي الشارب ؟

شمدص ـ سابقى حليقاً . لا شوارب .

كلهم يتغنون :

سافر بالشارب رجع بـــلاه

صار اسمه تشارلي شمدص جهجاه

راجي ـ (على يده صينية هائلة ملأى بالمشروبات) من منكم عطشان ؟

كلهم ـ هـــاي .

مهاجر ١ ـ انا اعطش من الاسفنجة .

مهاجر ٢ ـ انا اقدر ان اشرب معمل بيره . في بطني حريقة .

مهاجر ٣ ـ انا اعطش من كيس رجل .

شمدص ـ انا اكاد اشرب عطشي .

راجي ـ اطفئوا عطشكم (راجي في هـذا المجلس متأدب ولكنه متقزز من هذا المرح) .

مهاجر ٤ ـ شمدص . بما انك راجع الى البلاد (يسير بـه الى مقدم المسرح) سلم على عمي حسن . وقـل له الحال

عاطل فلا اقدر ان ارسل له دراهم . اعطـه هذه الساعة وقلم الحبر (يناوله اياها ويرجع بينما شمدص مشتغل بوضعها في جيبه يتقدم منه مهاجر ٣) .

مهاجر ٣ — سلم على ابي واعتذر عن عدم ارسال فلوس واعطه هذه الهدية (قلم حبر وساعة يرجع فيتقدم مهاجر ٢)

مهاجر ٢ — شمدص انت ادرى بالحالة هنا . فقل لخالي ابوسامي انشاء الله ارسل له بوليصة بعد كم شهر وهـــذه هدية له (يسلمه ساعة وقلم حبر) .

مهاجر ١ — الله يوصلك بخير يا شمدص . هذه هدية اعمل معروف اوصلها الى ابن عمي سليمان . التجارة في كساد . فلوس ما فينا نبعث .

(يدخل مهاجر اسمه خليل وهيئته ابله) خليل — ليله سعيده يا اخوان . كل عام وانتم بخير .

الحضور — مساء الخير . كل عام وانتم بخير .

شمدص — (يحدق) — خليل تعال الى هنا . (يتقدم) عرفت اني راجع الى البلاد ؟

خليل — بلى اخبروني .

شمدص — ما اسم ابيك يا خليل ؟

خليل — ابو خليل

شمدص — ساسلم لك عليه واقول له الحالة عاطلة فلا ينتظر فلوس (يمشي يأخذ بتلابيبه) هات الساعة وقلم الحبر

خليل — (يناوله الساعة وقلم الحبر ويصفر مستغرباً) الله يرد العين عنك يا شمدص .

راهبي — يا شمدص . كل شيء حاضر الا صحن الحمص . وليس فينا من هو اشطر منك بعمل الحمص فادخل الى المطبخ فالحمص جاهز .

شمدص — أدخل الى المطبخ واتركككم هنا تشربون ؟ لا . اعملو هنا (شمدص ينصرف ويرجع بعد قليل وفي يده صحن حمص ومدقه جرس جا الحمص)

مهاجر ١ — هل قرأتم جرائد البلاد ؟ وصلني حزمة اليوم .

مهاجر ٢ — كل جرائد البلاد قتل وضرب .

مهاجر ٣ — ما في العين من الجرائد منذ ثلاثين سنة ولم أدفع الاشتراك انا تصلني « بريد الخميس » .

مهاجر ٤ — انا صار لي في هذه البلاد ٢٠ سنة . لا دخلت محكمة ، ولا أخذت شربة ، ولا دفعت اشتراك جريدة .

مهاجر ٥ ـــ جرائد بلادنا تحيّر . كل كلمة يا افندينا اكبر من رأس البطيخ . من يفهمها ؟

مهاجر ٧ ـــ وماذا تفهم حضرتك حتى تفهم الجرائد ؟

مهاجر ١ ـــ فيها قصيدة لحسون المصايف بديعة ، بديعة ، بديعة .

مهاجر ٢ ـــ وكيف عرفت انها بديعة ؟

مهاجر ١ ـــ لاني ما فهمت منها ولا كلمة !

شمدص ـــ انا بحياتي لم اقرأ إلا كتاب الزير (ينتزعه من جيب بنطلونه الخلفي ويقرأ متغنياً ومشيراً بدقة الحمص)

يقول الزير ابو ليلى المهلهل
ألا يا بنات ان السعد جاكم
غـــداً جساس اقتله بسيفي
وآخـــذ يا بنات بثار اباكم
فلاقوه على الخيل الضوامر
واني سوف اهجم من وراكم

مهاجر ـــ ناولني كتاب الزير (اصوات من المهاجرين : هات كتاب الزير . اعطنا الكتاب)

شمدص ـــ لا ، لا ، لا ، اطلبوا روحي ، وسيفي ، وحصاني ، ورمحي ، ومحفظة نقودي . انمـــا لا تطلبوا مني

كتاب الزير . لنرجعه الى المكتبة (يعيده الى جيب بنطلونه الخلفي)

مهاجر ٣ ـ يا اخوان تذكرون ان بيني وبين فؤاد مراهنة على عشرة ريالات . الآن جاءنا جواب المقتطف (يقرأ) « سؤال نرجو ان تفيدونا هل اسكندر ذو القرنين ولد قبل عمر ابن أبي ربيعة . أم ان عمر ابن ابي ربيعة ولد قبل اسكندر ذي القرنين ؟

ـ نبيه غوّاص

ـ فؤاد الحداد

عن غرانبلا اميركا الوسطى

« جواب المقتطف ـ اسكندر ذو القرنين ولد قبل عمر ابن ابي ربيعة » هات العشرة ريالات يا فؤاد .

فؤاد ـ على الرأس والعين (يدفع له)

مهاجر ٣ ـ (ملوحاً بالعشرة ريالات) على سلامة قرنيك يا اسكندر

فؤاد ـ انما اراهنك على عشرين ريالاً اني مصيب في جدال هذا الصباح ـ الارض مسطحة .

مهاجر ٣ ـ مربعة .

فؤاد ـ مسطحة . اتراهن على عشرين ريالاً ؟

مهاجر ٣ ـ اراهن على عشرين ريالاً ان الارض مربعة .

فؤاد
مراجع ٣ } لنسأل « المقتطف » .

مراجع ٢ ـــ (متضايقاً من هذا الحوار) خلص صحن الفول يا شمدص

شمدص ـــ اسألوا المقتطف !

(صفير متواصل)

مراجع ٤ ـــ يا اخوان هل تسمعون الصفير ؟ العاصفة تشتد !

مراجع ٥ ـــ الله يساعد الذين في البحر .

مراجع ٨ ـــ في كل راس سنة عاصفة . العـــام الماضي غرق اربع بوابير .

راجي ـــ كيف حال كامل الاميوني ؟ صحيح انتحر ؟

مراجع ٣ ـــ الرصاصة دخلت الصدغ الايمن وطارت من الصدغ الايسر . دماغه يرشح . هكذا اخبرتني الممرضة .

مراجع ٤ ـــ الدكتور نجيب يعالجه . شفاه الله .

مراجع ٥ ـــ كيف تريد أن يشفى اذا كان الرصاص اخترق رأسه .

مراجع ٢ ـــ أهذه اول عجيبة قام بها الدكتور نجيب ؟ سترى كيف يشفيه ، سترى (شمدص يخرج)

مراجع ٧ ـ أي نسمة خير هذا الحكيم ؟ أمس كفل ١٤ مواطن من « حاصبيا » حتى سمحوا لهم بالدخـــول الى « غرانبلا » . وهذا الصباح توسط لابن انيس الحلبي فعينوه طبيب بلدية ، مع انه كان مرشح لهـــذه الوظيفة ٨٣ طبيب من اهالي غرانبلا .

(يرجع شمدص فيخطف المقتطف ويقرأ)

شمدص ـ نرجو ان تفيدونا اذا كان الاستاذ شمدص جهجاه أي السنيور تشارلي 'جوْ انهى صحن الحمص .

جواب المقتطف ـ صحن الحمص خلص تفضلوا .

(اصوات : هاي . يحي شمدص . ثم يهجمون للداخل)

(راجي يبقى وحـده يرتب الكوْوس ، ثم يتطلع الى الكراسي ويصفر صفرة طويلة كأنه متضايق من معشر كهذا ويشرب كاساً ، فيا هو يمشي يعثر بكرسي فيخاطب الكرسي معاتباً « وانت ايضاً يا بروتوس ؟ »

(تدخل هدى)

راجي ـ أهلا وسهلا بخالتي هدى . اين ساره ؟

هدى ـ ساره التقت بصديقة لها وهما يتكلمان خارج المنزل . ستكون هنا بعد قليل . انا سبقتها أرجوك ان تكتب لي مكتوب تعزية للبلاد .

راجي ـ مكتوب تعزية ؟! أهون عليّ أن أموت من أن

اكتب مكتوب تعزية . اسألي صهرك .

هدى ـــ صهري يا ثوثار . من قال لك اني ازوجه ابنتي من غير أن اعرف دينه . لعله من الجماعة ؟! ان كان من غير ديننا فاهون عليّ ان امزق ابنتي من ان ازوجه اياها !

راهبي ـــ هنا يتزوجون زواجاً مدنياً .

هدى ـــ مدنياً ؟ لعن الله المدنية ان كان الزواج يعقده كاتب عدل كأنه كونتراتو رهن .

راهبي ـــ الزواج رهن يا ست هدى ؟ الزواج بيع بات . هل سمعت ببني عذره ؟

هدى ـــ بني عذره ؟ من أي ضيعة هم ؟ ما هو دينهم ؟ قل لي ما هو دينكم ؟ في أي كتاب يصلّي سليم ؟

راهبي ـــ كل حياته يصلي بكتاب « الاغاني » واظنه بعبد ابو الفرج الاصبهـــاني (صائحاً للداخل) يا سليم ، يا سليم ، خالتك هدى هنا (يدخل وسيم بثوب بدوي راجي يهرب متغنياً « ضاقت ولما استحكمت حلقاتها .)

وسيم ـــ مساء الخير يا خالتي هدى . اين ساره ؟

هدى ـــ ساره تعلّمك مع صديقتها خارج المنزل ستكون

هنا بعد قليل . اعمل معروف اكتب لي مكتوب تعزية واقرأ لي هذا المكتوب (وسيم يأخذ المكتوب من هدى ويقرأ : -)

وسيم — « جناب حضرة ست النساء . وزينة الارض والسماء خالتنا هدى حفظها الله . .

هدى — آمـــين .

وسيم — (متابعاً) « من بعد اهدائك السلام نخبرك ان البارحة وقعت عركة بيننا وبين بيت الحموي فجرح ابو مرعي .

هدى — الله يبشرك بالخير .

وسيم — وقتل اخوه .

هدى — الحمد لله .

ومنّا قتل ابن خالك جميل عوّضنا الله بسلامتك .

هدى — يا اسفي عليك يا جميل . يا سبع الرجال يا جميل .

وسيم — من خصوص البوليصة ٢٠٠ دولار وصلت وحالا صار دفعهـــا للافوكاتو في بيروت وانشاء الله في المكتوب القادم نخبرك اننا ربحنا الدعوى العتيقة على الجماعة . قال اذا كنتم تريدون رصاص في

صدور بيت الحمـــوي لازم يجيكم بارود من اميركا . واليوم ورد علم ان وسيم الحموي ورفيقه البيروتي موجودين عندكم في بلاد « جرانبلا » واسعد بك اشتغل في بيروت لارسال علم لحكومتكم ففتشوا على هذا اللعين والشبان هنا مستعدون للسفر واخذ الثأر اذا لزم الامر . انما الاحسن ارجاعه لهنا محفوظاً حتى اذا نجا من الحكومة فشباننا مستعدون لعمل اللازم . وام وسيم الان نصف مجنونة ، خرفانة اكثر كلامها مثل كلام الاطفال ، انشاء الله ينشرح قلبها بالزايد برؤية ابنها يتمرجح برقبته ، قبل انتقالهـــا الى جهنم ... الباقي سلام وكلام ....

هدى — ام وسيم الحموي . الحيّة الرقطاء . ابنها قاتل ابني . ابنها في جرانبلا . اين انت يا ابن اللعينة لاخنقك بيديّ . اين يدك التي احمرّت بدم طعان لاحزّها عن جسمك يا ابن اللعينة . سليم . سليم فتش معي عن هذا اللئيم ، واذا وجدتـه ازوجك ساره ولو كنت من الشمس .

(تدخل ساره في لباس بدوية . وسيم وساره لا يسلمان على بعضهما . بـل تشعّ العيون ، ثم تبتسم الشفـاه فتشتبك الايدي) (راجي يطل لابساً البرنيطة ، حاملاً العصا ، فيتنحنح) .

راجي — خالتي هدى . تعالي اكتب لك مكتوب التعزية .
(متقلداً وسيم) فان الوحي يغشاني من جديد .
(يتأبط ذراعها ويحاول الخروج بها) .

هدى — ليس من اللائق ان نتركهما هنا وحدهما .

وسيم — يا خالتي هدى الا ترينني بثوب العرب ؟ العرب لا يخونون . أتمنى هذا العربي ولو على ابنتك البدوية زينب (راجي يسير بهدى متغنياً « الخيل والليل والبيداء تعرفني ، السيف . . »)

هدى — يا ربي في اي زمان نحن .

ساره — سنة ١٩٣٧ (هدى وراجي ينصرفان ساره تضم بضم وسيم فيدفعها هذا بلطف) .

وسيم — لا . لا . انت في مضافتي . اذكري وعدي لامك .

ساره — ولكني زوجتك . أنسيت ؟

وسيم — كيف انسى ولكن العربي لا يحنث بالوعود . ساره ما اجملك هذه الليلة ، وكل ليلة وكل نهار .

ساره — اذا لم تسكت عن مغازلتي صفعت خدّك بشفتيّ .

وسيم — اريد ان اخبرك خبراً هاماً .

ساره — ما هو ؟

وسيم — هو اني احبك ، وأعبدك ، وأحيا لاجلك .

ساره — أليس لديك خبر جديد ؟

وسيم — بلى هو اني اهواك .

ساره — وغيره ؟

وسيم — وانك حبيبتي .

ساره — }
وسيم — } وعروستي . وقلبي . وروحي . ومالي .

ساره — سليم . كدت أن اخبّر أمي بأمر زواجنا فلماذا ... امي تقول ربما تكون انت من « الجماعة » فما معنى « الجماعة » ؟ كلمة على لسان امي كل ساعة . اذا اتى مكتوب من البلاد فكلّه عن « الجماعة » كل النهار « الله يقطع الجماعة » . فمن هم الجماعة في البلاد ؟

وسيم — « الجماعة » في البلاد هم من ليسوا من حزبنا ، أو ديننا ، أو حينا ، أو عائلتنا . لو لم تأتي الى « غرانبلا » طفلة ، لكنت تفهمين أي دينامية في كلمة « الجماعة » .

ساره — يعني في بلادنا الناس « جماعة وجماعة » ؟

وسيم — يا ليت ! في بلادنا الف جماعة وجماعة .

ساره — انما انا وانت جماعة واحدة . آ سليم ؟ هل قرأت المكتوب لأمي — أراهن انه فيه قتل . « وادي الارز » ضيعة تسكن أم هي ساحة قتال ؟

وسيم — هي جنة تسكن لو لم تكن ساحة قتال . لو لم تكن« جماعة وجماعة »

ساره — لماذا اخترت التنكر بثوب البدوي عقيل والبدوية زينب ؟

وسيم — انت وانا إذ نلبس ثياب العرب لسنا بمتنكرين .

ساره — صحيح ؟ أرى العرب في السينما وفي الجرائد اضحوكة .

وسيم — اضحوكة سفلة صحافي الغرب . النخوة . العرض . المروءة . النجدة . هل تجدين هذه الالفاظ إلا في لغة العرب ؟

ساره — لا

وسيم — أي ساره اني إذ استردّ اثواب العرب اشعر برعشة فخر .

ساره — لماذا خلقك الله كتلة من عواطف . ومـــا بالك كئيباً هذه الليلة ؟ قل لي . من حقي أن أعرف .

وسيم — أو . ليس بي شيء تعالي نرقص .

ساره — « تعالي نرقص » ! اذاً فأنت كباقي اولاد العرب . زوجتك للهو وللبيت . إن إنـكارك علي مصاعبك ينطوي على احتقارك اياي ، فكأني أتفه في عينيك من ان أشاركك بمصاعبك . قل لي ماذا جرى ، اني أشعر ان أمراً يقلقك فما هي الحيرة التي تعترك ؟ سليم ما أنت بالرجل الذي أعهـده . لا تخفِ عني شيئاً . اهذا هو الحب الذي غمر قلبينا أهو عاطفة وانفعال جنسيّ ، أم هو تفاهم روحيّ ؟ لي الحق ان أفهم كل شيء . أرى علامة لستفهام عـــلى وجهك . لماذا لا تضع رأسك على صدري وتحدث ساره عن همومك ؟

وسيم — (بعد تردد) هذه الجرائد .

ساره — أفيها خبر مكدر عن ذويك ؟

وسيم — لا . ولكنها تسخر بي . كل جريدة تحمل انبـــاء العظائم . فهذا رجل اخترع مكنـة . وآخر جاد على الدنيا بكتاب ، وغيره اكتشف او اكتسح .

هذه الجرائد تسخر بي . كلماتهـــا تحملق بوجهي متهكمة تسألني : من أنت أيها النكرة وما شأنك في الدنيا ؟ أي عظيم أمر قمت به في الحياة فننقل خبره الى الناس ؟ . اجيبها لا شيء . لا شيء . أنا بيّاع انظري (يغم ويبكي)

ساره ـ لا تستسلم الى الانفعال .

برسيم ـ وكنت أمرّ بها غير آبه ، لو لم اكن ذقت طعم الظفر في فجر حياتي . ساره اني عاهدت الناس في مطلع العمر على الفوز . وها انا احنث بالعهد . انا فاشل وخائن . خائن . رجعت الى سخيف الذكريات . بل من ليس له مستقبل تعلق بماضيه . ان مستقبلي مضى . ربِ كم صرت ابغض نفسي

ساره ـ (تأخذه بيدها) إي زوجي وحبيبي قف . قف (يقف) قف كمن يهم بالقتال (يفعل) اصرف باسنانك ولمع الغضب في عينيك (يفعل) ضمّ قبضتيك بكل ما في جسدك من قوة (يفعل) الآن قـــاتل . قاتل الدنيا ولا تنطرح على الارض كهزيم . ليس العار أن تُغلب . العار ان تهرب . انت رجـل وككل رجل تفكر وتصل الى استنتاجاتك عن طريق الفكرة . أنا امرأة ، اشعر واشعر فقط .

شيء لا أراه ، ولا المسه ، ولكني احسه واشعره . اني اشعر انك ستكون عظيما . إي حبيبي ستكون عظيما ولا يهمني ان كنت اليوم مفلساً ومغلوباً . البارحة حلمت حلماً مريعا . رأيتك ممتطياً جواداً ابيض شأن الفاتحين وفي يمينك علم خفاق ، وعيناك محدقتان بقمة الجبل ، والحصان يتخطى بك السفح الى القمة ، وانا احوم حواليك وفي يدي قيثارة اغني لك الاناشيد ، وفجـــأة زل الجواد فرعبت ، وحدقت فاذا انت بالوادي مهشم الجسم دام . ولكن الجـواد على حوافره الاربعة واقف ، وانت مسمّر الى صهوته ، والعلم في يمينك خفاق وعينـــاك في القمة تحدقان . هكذا اريد ان اراك !

وسيم ـــ وهكذا سأكون .

ساره ـــ أتعد ؟

وسيم ـــ وعداً عربياً .

ساره ـــ ألا تقبلني الآن ؟

وسيم ـــ أتريدينني حنانّاً بالوعود ؟

ساره ـــ اذاً لا تقبلني .

وسيم ـــ أريد ان احدثك بسر هائل كتمته عنك حتى اليوم .

ساره — ما هو ؟

(يرجع المهاجرون وراجي في طليعتهم يتنحنح)

راجي — سمعت سليم يقول « أحب حتى الذبابة في فنجان قهوتك والبراغيث في شعر هرتـــك ، وأطرب لنباح كلبكم .

ساره — وسمعت ساره تقول أحب حتى اخاك سلوم ينهق من عطشه ويلبط من بطره .

شمدص — افتراح يا اخوان . ما قولكم اذا رقص البـدوي عقيل والبدوية زينب هنا قبل الذهاب الى المأدبة !

(اصوات : موافق . موافق . وسّعوا الحلقة)

(ساره وسيم يرقصان . الباقون او من صوته حلو يغني)

بين داري ودارك درب — توصل بابينـــا
في صدري وصدرك حب — يعمّر قلبينـــا
نرمي مع ساري الريح — أحقـاد أبوينـا
وفي وجه الدنيا نصبـح — من يقدر لينـا
نهـــدم ورائـة البغض — من عهد اجدادنا
ونحيا لبعضنـــا البعض — ونبني لأولادنـا

ساره تضع ذراعها على ذراع وسيم ويخرجان . اصوات تحي البدو . تحي العرب . لا ترجعوا الا بالجـائزة الاولى . هدى تأتي راكضة فيما يملوه أكلاً وتصيـح وهي تنهض

فسطاطها « لا تسبقوني . لا تسبقوني » اذ :

ينزل الستار

ثم يرتفع حالا فنرى

انا في آخر الليل وكل ما على المسرح مبعثر . راجي نائم يشخر . شمدص سكران يخطب لجمهور يظهر انه بين السماء والارض بكلمات نصف مفهومة .

شمدص — اين اولاد العرب ؟ فلتحي اولاد العرب . فليسقط اولاد النور . فليحيا الزير ابو ليلى المهلهل . فليسقط جساس . فليحي العنب والتين والصبير . فليحي اللقطين . فلتحي شواربكم .

راجي (يأخذ بشمدص ويخرجه صارخاً) وليحي شمدص جهجباه .

(يدخل وسيم نصف سكران وفي يده كاس فضي) .

وسيم — هاي مسيو سلوم . يا سنيور سلوم . انظر الى هذه . هذه الجائزة الاولى بالرقص قدمها لنا الحاكم بيده (يرقص ثم يقبله) . كل عام وانت بخير . اعاشك الله الى زمن تكنس به الارض بلحيتك . اي سنيور سلوم (يطوي ذراعه) جسّ هذا فانه لا يزال صلباً كسنديان لبنان . ضع يدك على هذا (مشيراً الى قلبه) فهو لا يزال يدق دقة عسكرية

هاي سنيور سلوم ليتك سمعت خطابي اذ قدموا لنا هذه الجائزة . راجي لقد ظفرت بامنية حياتي فقد سمعت التصفيق كالرعد . اتذكر قولك لي ان طموحي هو سماعي التصفيق ومستقبل التصفيق يتلاشى . ولكن التصفيق يرجفك قبل ان تتلاشى يا مغفل ولذة الحياة هذه الرجفات . قلت لهم ما هذه باول مرة غزت البداوة الحضارة ، وما هي باول مرة يهز علم العربان فتى من لبنان قلت لهم .. ولكن هل اعددت حقائبي يا استاذ ؟

راجي ــ يا مجنون أتسافر في هذه العاصفة ؟ أتريد ان تأكلك الاسماك .

وسيم ــ السمك يأكلني ؟ ! انا آكل السمك . (يصب في الكاس الفضي ويشرب) ما اطيب كاس الفوز في ليلة العيد (صفير بعيد قوي) علامة الخطر هاه !؟

راجي ــ ولكنه البحر يا مجنون أتريد ان تغرق ؟

وسيم ــ اذا غرقت فجثتي تشط برأس بيروت . لا تنس وصيتي ، احرق جثتي وذر رمادها على تربة تلك الشجرة التي زرعناها يوم تخرجنا . انا ضع اعلاناً كبيراً (يمس باذنه ثم يضحك) والا تبس

الشجرة اما انت فعش وامرح ولا تنس ان تفتح صيدلية في زاوية بيتك اذ متى كبرت ستحتاج الى اسبرين وحبوب الحياة للدكتور روس ، وقطن ، وقطرة لعينيك (يهمس باذنه ويضحك) ستحتاج الى ذلك ايضاً . (صفير) صفّري . صفّري . اخبري الناس عن العاصفة ولا تخبريني . انا الذي اكل العواصف مئة مرة . انظر الى الامواج تجن في هجومها على الشاطىء متدفقة كانها رجال « سلطان » حاملة على العدو — ايها البحر . ايها الجواد الصاخب المزمجر . ما هذه باول مرة امتطيك وانت جموح . كم مرة علوت ظهرك وقد قوّسته عالياً عاليا كجبل « الباروك » وفتحت شدقاً عميقاً كوادي « حمانا » فالعب ، وارمح ، وزمجر ، وليملأ الجو زبد اشداقك ففارسك منع الله الخوف عن قلبه . فارسك البدوي عقيل غير هيابك :

« ملأنا البحر حتى ضاق عنّا ومـــاء « البر » نملأه سفينا

عندينا — عَنْدِيْنا . (ينصرف بالحقيبة) .

رابحي — بصمت وجوم يأخذ القنينة فيكسرها ، ثم يتدارك نفسه فيمسح الخمر بمنديله ويعصره بفمه ويرتمي على الكرسي نابشاً شعره صارخاً : كل عام وانتم بخير .

ينزل الستار

المشهد الثاني

بعد ثلاثة ايام . المكان نفسه . شمدص وفرج الله . شمدص كالمشدوه . فرج الله في نشوة الظفر اذ يزق جيفة حصان نتنة .

شمدص ـ أوضح لي الامر . أصحيح كل ما اسمع ؟ ماذا جرى يا فرج الله ؟!

فرج الله ـ الذي جري امر بسيط اوضح من هذا الانف الذي على وجهك . بعد ان خرج وسيم من بيت الحاكم جاء الى هنا ، واختطف حقيبته وركب البابور والعاصفة في طورها السابع المخيف . بعد ست ساعات اذ امعن البابور في البحر ، نزلت « الفاجعة » (يضحك) فرقصت الباخرة كأنها طابة فوتبول ، وانقطع حبل دفتها ، وطافت الامواج على خزانات البخار ، فانفجرت ، وتناثر ركابها ومنهم وسيم بين تلك الجبال المتلاطمة ، حتى عثر وسيم على قطعة خشب تمسك بها . ٥٨ ساعة في تلك الصحراء المائية لا اكل ولا شرب ذاقوا بها اهوال الموت احياء . كلاب البحر اختطفت تسعة منهم (يضحك) الى ان

مرت بهم دارعة اميركية فانتشلت بقيتهم وصاحبك وسيم منهم .

شمدص ــ أهو في خطر ؟

فرج الله ــ كلنا دائماً في خطر يا شمدص . انت في خطر وانا في خطر . انما وسيم الآن اعمى (يضحك) فقد بصره من وهج الشمس على البحر .

شمدص ــ وراجي ؟

فرج الله ــ راجي في السجن لانه شريك وسيم قاتل طعّان الحمصي . وطعان هذا هو ابن هدى واخو ساره ، وهدى شبه مجنونة تريد الانتقام من قاتل ابنها ، وتريد الانتقام من ابنتها التي تزوجت وسيم سراً ، وراجي ووسيم سيرسلان تحت الحفظ الى بيروت للمحاكمة .

شمدص ــ اكاد لا اصدق ما اسمع . هوليوود لم تصنع مثل هذا الفيلم الذي نشاهده .

فرج الله ــ لنعجل باخذ قائمة البضائع فبعد قليل سيأتون بوسيم الى هذه الغرفة .

شمدص ــ ولكن أمن اللياقة ان تضع يدك على تجارتهم وهي في هذه الحالة ؟

فرج الله — ... وانت ايضاً يا شمدص ؟ لماذا كل اولاد العرب يبغضونني ؟ لاني نجحت حيث فشلوا لأنهم يحسدونني. الغني محسود . ولكن قل لي من يحتاج الآخر ، انا ام هم ؟ يستدينون مني ، انا لا استدين . حينما يعطشون الى المال ينادون فرج الله . وحينما يأتي موعد الدفع يشتمون فرج الله .

شمدص — ولكن حالة هذين الشابين تستدعي الشفقة . والله انعم عليك .

فرج الله — الله انعم عليّ فسأحاسب الله وليس غيره .

شمدص — فرج الله تبصر بالامور . شابان غريبان احدهما اعمى كسيح خلص من الموت غرقاً بنصف روحـــه . والثـاني سجين . ألا ترى من المروءة ان توقف الحجز حتى تستقيم امورهم ؟

فرج الله — من المروءة ان احمي حقوق فرج الله اولاً وثانياً واخيراً . كل ما في هذه الغرفة وهـذا المحل هو ملكي أفهمت ؟ وانت من ارسلك ؟

شمدص — ارسلني الدكتور نجيب .

فرج الله — لماذا لا ينصرف الدكتور نجيب الى الطب ، ويترك الناس في امورهم .

شمدص — فرج !؟ بعض من يكبرون اللقمة يختنقون .

فرج الله — طيب - انما في يدي امر يفوضني بالاستيلاء على كل ما في هذا المكان ، وساستولي على كل ما في هذا المكان .

شمدص — فرج ! من اخبر البوليس عن وسيم وراجي ؟

فرج الله — لعلكم تتهمونني ؟! وصل لمدير البوليس مكتوب مغفل الامضاء . هل وجدوا توقيعي عليه ؟ (يضحك)

شمدص — مؤكد لا !

فرج الله — هل الخط خطي ؟ (يضحك)

شمدص — طبعاً لا . واراهن انك كتبته وعلى يديك قفازان .

فرج الله — انا قلت لوسيم الحموي : اقتل ابن هدى الحمصي في « وادي الارز » ثم هاجر الى غرانبلا وتزوج ابنتها سراً ، ثم اسكر ليلة راس السنة وسافر في البحر والعاصفة تشتد ؟ انا رجوته ان يستدين المال مني ويمثل ادوار حاتم طي والسموأل وهارون الرشيد في هذه البلاد ؟ شمدص ! لا تتكلم كالاغبياء فانا اعلم انك شاطر . فلنبدأ بالتفتيش .

(يفتح المكتبة ويأخذ شهادتين)

فرج الله — شهادة مدرسية ، وشهادة مدرسية . تعجبني هـذه الشهادات فهي ماركات غباوة وقعها حمار كبير يشهد ان حاملها جحش صغير يصلح مطية للاذكياء. هل دخلت مدرسة يا شمدص ؟

شمدص — لا . ولكني تتلمـذت على الكثيرين من امثالك . وتعلمت أمثلة مجانية ثمينة .

فرج الله — أرخص الامور اثمنها . الابتسامة لا تكلف شيئاً فالبسها . وكلمات الاطراء مجانيه فاغمر بهـا قلب عدوك ، واليمين فأقسم بها مغلظاً واذكر ان جمهور الناس اغبياء . متى اردت الايقاع بشخص لا تعبس بوجهه بل صادقه . فاهون ان تصطاد الذباب بالعسل من ان تصطادها بالخل . كن كالخمرة وديعة في كأسها تغوي العين ، حتى تتسرق الى الفم فاذا انزلقت الى الكبد نهشتها . المهم ان تربح المعركة ولن تجد من يسألك كيف ربحتها . واعلم انه ليس في الدنيا صديق .

شمدص — انا ليس لي في الدنيا الا صديق واحد .

فرج الله — من هو ؟

شمدص — الزير ابو ليلى المهلهل .

فرج الله — انت رجل حاذق لم تطل المدرسة اذنيه . لا حاجة الى تقويم البضائع . سآخذها كلها واترك للاستاذين كل الشهادات المدرسية . ولكن هـذا الصندوق لا اريد نقله مقفلاً مخافة ان يدعوا ان كان فيـــه الملايين ، فقل للدكتور نجيب اني اريد المفتاح .

شمدص — الدكتور نجيب في الغرفة الثانية يداوي وسيم . اسأله انت عن المفتـــاح .

فرج الله — انت مندوبه فاسأله انت . (شمدص يخرج ويرجع بالدكتـور نجيب لابساً ستـرة الاطـباء بينما فرج الله يقلب اوراق وسيم ويضحك) .

الدكتور نجيب — (الى شمدص) اذهب الى السجن (مشيراً الى النافذة) هو قريب منا جداً . لقد سألت مدير السجن ان يطلق راجي ساعة بكفالتي فان لم يكن قد فعل بعـد فعجّله . (شمدص ينصرف) (الى فرج الله) ايها الضبع المعسعس في خراب هـذا البيت ، لا تحرج الدكتور نجيب ان يستعمل نفوذه ضدك . في حياتي كلها ما حالفت مواطناً ضد مواطن . لاتجعلني ابدأبك .

فرج الله — ولكن حقوقي . حقوقي . اريد ان افتح الصندوق

الدكتور — سآتيك بمن يفتحه . ولكنك اذا مضيت في قساوة تعسّفك سببت طردك من هذه البلاد حـــتى لا تستطيع رؤيتها الا بمنظار . بعض الامور في هذه

الدنيا لا تشتريها الملايين .

(تدخل ساره في لباس النوم)

ساره — بدأ يتحرك .

الدكتور — طيّب . متى استفاق اذهب اليه . (بشدّة) وانت قلت لك انصرفي الى فراشك . كفاك سهراً وتعباً

ساره — مورفين الدنيا كلها لا ينيمني ووسيم في هذه الحالة .

(تبكي فيراضيها الدكتور فتجيب ويصرفها قائلاً) ما عليه شرّ . قلت لك ليس عليه خطر . (يرجع شمدص وراجي ـ هـذا في لباس السجن وعلى ظهره وصدره نمرة ١١٣)

الدكتور — هل معك مفتاح الصندوق يا سليم — يا راجي ؟

راجي — ها هو يا دكتور .

الدكتور — افتحه .

راجي — (افرح الله) ذاب الثلج وبانت الاوساخ . سافتحه. ولكنك يا فرج الله لماذا لم تحجز على هـذا السوط ايضاً (يتناول الكرباج من الحائط) انظر اليه . هذا ملكك ايضاً يا من اشترى اثمانا بعملة مزيفة . اما الصندوق (يفتحه) فهو خال من المال ، خلوّ نفسك من كل مروءة .

فرج الله — يا راجي انا لا اريد الا خيركم . اذا لم احجز انا حجز البنك ... بشرفي

راجي — (مع كل كلمة ضربة سوط) بديني ، برحمة امي ، بعرض اختي نبيهة . وحياة الخبز والملح الذي بيننا .

الدكتور — (يفصل بينهما) راجي ، إجمـــد . إرمِ الكرباج (راجي يفعل) .

راجي — ايها الممثل العبقري . اهنئك بنجاح دورك . ان امهر ممثلي العالم لم يسرحوا على مسرح بل هم بيننا في كل يوم يمثلون ادوارهم .

فرج الله — هذه بلاد تمدن وقوانين . مـــا نحن في « وادي القرن » . لن تضربني وتنجو من الحكومة يا مفلس يا محتال . يا قاتل . سأريك . سأريك (ينصرف) .

الدكتور — (لراجي) انت أحمق ومجنون .

سمحص — (يتناول الكرباج ، ثم يقول لراجي على حدة وهو ينظف الكرباج) — وسّخت الكرباج .

الدكتور — افسحوا مكانا هنا لكرسي وسيم . (الدكتور يساعدهم على الترتيب ثم يذهب الى الغرفة الملاصقة فيأتي بكرسي ذات دولابين يجر وسيم عليها . وسيم يصرخ متألماً . الدكتور تشد رأسه ورجليه ويده اليسرى) .

وسيم — الله . الله . آخ . آخ . يا الله .

الدكتور — (بينما يشعل بابور سبرتو ليطهر الحقنة) صبرك وسيم . سأعطيك حقنة مورفين تقتل الألم .

وسيم — اقتل الالم . آه . ربي ان جسمي يلتهب كأني أسبح في بحيرة من النار .

راجي — صبرك وسيم . ان الالم سيضمحل .

وسيم — انت هنا يا راجي ؟ يدك وعفوك . عفوك عن هوة سحبتك اليها . كنت نبيلاً في اخوّتك . تناس حماقتي .

راجي — ستمضي هذه المصاعب ، ويأتي يوم نتذكرها ونضحك .

وسيم — احس ان جيوش الفناء تسير في دمي . انطفأ النور من عيني . صرت اعمى يا راجي . وأحس ان روحي تتراقص لتنطفيء . لا تدعهم يدفنوني هنا يا راجي . لا تسكني مقبرة الاغراب . أيضطجع اربعة عشر جيل في قربتي وادفن في مدافن الاغراب ؟ اريد ان يواكبني الى القبر الف شجاع ويحرّ وجهي تلويح الف منديل . اريد ان أسمع الندب في مأتمي . راجي إن لم تقوَ على ارسال جثتي الى هناك ، فلتحرق الجثة والرماد فليذر على

تربة تلك الشجرة التي زرعناها يوم ودعنا المدرسة أتذكرها يا راجي ؟ ما اقبح هذه الحائلة يا راجي. انظر ان الستار يكاد يـــنزل والجمهور يصفّر ، وابتسامة التشفي على شفاه اللئام . ما هذه الحكاية المشوشة التي مثلنا على مسرح الايام كان كل شيء فاتنا حين ارتفع الستار . وكانت النظـــارة مصغية ، معجبة ، فلماذا هم الان يصفرون ؟ آه (يضرب بقبضته على مستند كرسيه) ما هكذا كانت تنتهي رواياتك يا وسيم الحموي. ساره ساره . اين انت ؟ (ساره تبكي في صمت ولا تجيب) . راجي لا تقل لهم اني مت هكذا ، قل لهم قتله العبيد ، غرق او انتحر ، ولكن لا تقل لهم اني فنيت هكـذا كقشرة بطيخ تهرأت .

راجي ـــ ساره نائمة .

الدكتور ـــ الآن وقت المورفين . هـــذه آخر حقنة . بعد اليوم يخف الالم (يمس ساقه) وفي اقل من شهرين تستطيع المشي ، فتخفف من هـذه الثرثرة عن الموت وعن دفن الجثة (بصوت عال) ساره . يا ساره .

(ساره تنسحب من المسرح ثم تنادي من بعيد « نعم يا حكيم »)

الدكتور ـــ تعالي ساعديني (راجي واقف واجم)

وسيم — أصحيح ما تحدثني يا دكتور ؟ أم هو حديث الاطباء لمرضاهم الميئين . آه . آخ . الله .

ساره — (تقبله وتمسد شعره) ما عليك شر باذن الله .

وسيم — ساره لماذا انت هنا ؟ يجب ان تكوني قريبة من امك . عفوك يا ساره . لقد خدعتك . كنت غشاشاً حين تزوجتك متخفياً باسم زائف . ولكني لم اقصد شراً . كنت متفائلاً احسب الامور تصلح نفسها في آخر الامر . ان كنت اتألم من العمى فلأني لن أرى وجهك يا ساره .

الدكتور — (يمسكه) ستشعر اولا بانقطاع الآلام ثم بتخدير حتى تنام .

وسيم — كوني بقرب امك فهي بحاجة الى العزاء .

ساره — سأكون بقربك وحدك . احببتك سليماً وسأحبك وسيماً ، وكيف كنت وبأي اسم دعوت نفسك ، وأجابه الدنيا الى جانبك .

الدكتور — كيف تشعر الآن ؟

وسيم — زالت الآلام . شكراً لك . آه ما ألذّ التفلت من الآلام .

الدكتور — (بلهجة فرحة) اذاً فانت وسيم الحموي .

وسيم — انا حطامه !

الدكتور — أتدري اني صديق لاهلك ؟

وسيم — أدري . وامي كانت كثيرة التحدث عنك .

الدكتور — (يلتقط الشهادة) وهذه الشهادة ؟ . جميلة هذه الشهادة . اظن ان بين اوراقي واحدة مثلها .

وسيم — حسبتها مدرجة لعرش فاذا هي مزلقة لهاوية .

الدكتور — ربما لا اوافقك على هذا الرأي . الشهادة كسلّم في وسعك ان تستعمله للصعود او للنزول .

وسيم — وانا اسأت استعماله .

الدكتور — وهذا ما لا اوافقك عليه . كم عمرك ؟

وسيم — (٣١)

الدكتور — امامك تسع سنوات حتى تتخرّج من جامعة الحياة وتعرف كيف تستعمل السلم .

وسيم — دكتور ما انا بجبان . اريد ان اعرف الحقيقة هل انجو من هذه الحالة ؟

الدكتور — طبعاً تنجو .

وسيم — اليس كلامك تطميناً ؟

الدكتور — لا . انا لا اؤمن بالخداع ولا استعمله . كن على ثقة انك ستشفى — باذن الله .

وسيم — وهذا العمى .

الدكتور — كفاف موقت . ان اعصاب عينيك كشريط كهرباء انفصل عن مولد القوة . الكهرباء موجودة . الشريط موجود . ولا ينقص الا ان تمسّ الكهرباء الشريط حتى يظهر النور .

وسيم — وكيف يمس ؟

الدكتور — ارتجاج عنيف .مفاجأة. خوف . انفعال. هزة ارضية . رؤية امك . حزن مفاجىء . فرح مفاجىء . حينئذ تستعيد بصرك . انما يلزمك اليقين . اليقين اني لا اخدعك .

وسيم — انا موقن بك .

الدكتور — ولا اعتقد انك ستجد في « بيروت » صعوبة في اظهار براءتك . ان تقرير الحادثة كتبته بيدي وفيه برهان الدفاع عن النفس .

وسيم — وهل سنرجع الى البلاد ؟

الدكتور — هذا امر المدعي العام .

ساره — ولكن ساكون معك يا وسيم .

راهبي — وانا كذلك .

الدكتور — ويكون قلبي معكم .

راهبي — الن ترجع الى البلاد يا دكتور ؟

الدكتور — (هز رأسه متحمساً ثم يتبع الموضوع) انت اديب ، روائي يا وسيم .

وسيم — كل اهل بلادنا ادباء . روائي ؟ لقب اقرب الى الهزء والسخرية منه الى المديح .

الدكتور — ولماذا ؟

وسيم — لاني انا شبيح ذلك الروائي .

الدكتور — لماذا انت متشائم ؟

وسيم — ولماذا لا اكون متشائماً ؟ اطللت في فجر العمر على جنة حسبت اني سأخلد بها . وها انا اليوم في جهنم هذه الحياة — خامل الذكر ، مجرم ، اعمى

كسيح ، ان مرارة هـذا الفشل تزداد اذ اذكر حلاوة ذلك الفوز في صباح حياتي .

الدكتور — فوز بماذا ؟

وسيم — فوز أدبي — روايات ، مقالات .

الدكتور — ولماذا لا تكتب ؟

وسيم — اشغال ، اضطراب بال ...

الدكتور — اتعرف لماذا لا تكتب ؟

وسيم — قلت اني ...

الدكتور — انك لا تكتب لانك كسول اولاً . ولانك جبان وتخاف الفشل بمحاولات جديدة . ولانك قنوع تجترّ ماضيك ولا تخلق مستقبلك .

وسيم — في رأسي موادّ ...

الدكتور — في رأسك لا شيء حتى تنتجه .

وسيم — سأنتجه .

الدكتور — برافو — اريدك منتجاً لا متبجحاً . كن مقاتلاً اذا خسرت يمناك فقـــاتل بيسراك . واترك التأوّه والتحسر على الماضي ، تلك العادة الذميمة التي تشلّ

ثلاثة ارباع قوى مواطنينا . ها انا اقترح عليك موضوعاً فأعمل فيه قريحتك . اكتب لي رثائي . هل تكتب لي رثائي ؟

وسيم — سيرة حياتك يا حكيم ؟ ... لا تحتاج الى من يكتبها بل الى من ينسخها . فكل يوم فصل مجيد ، وكل ساعة سطر خالد . لقد كتبتها انت وهي رائعة في يد اي نسّاخ .

الدكتور — اذكر الوصية الحادية عشرة ... قل لي ماذا تقول في الدكتور نجيب ؟ « مات النطاسي » ؟ « جبل هوى » ؟ « يا آسي المرضى » ؟ كيف ترثيني ؟

وسيم — (ابتدأ ينمض عينيه من فعل المورفين) اذا قدّرت لي الحياة ، فسأرثيك كما لم يرثِ حامل قلم حامل مبضع . (ينام)

الدكتور — نام . اذا نسي الرثاء فذكريه يا ساره . راجي ارجع الى السجن .

راجي — أصحيح كل ما قلت لوسيم ؟ هل سيشفى من كل شيء حتى العمى ؟

الدكتور — بالطبع صحيح . نزيف الدم أضعفه كثيراً .

راجي — اذا لزم نقل دم فانا مستعد .

الدكتور نجيب — هـــذا منتظر منك . بطريقك الى السجن مر بالمستشفى وليفحصوا دمك . ربما نحتاج الى نقل دم

(راجي ينصرف) (تدخل هدى . يدها اليمنى قابضة على سكين بين طيات فستانها) .

هدى — اذاً فانت هنا يا زانيـة . ليتني ولدت عقرباً ولم الدك يا خائنة . تضاجعين قاتل اخيك . هنيئـــاً لكما الزواج وهذه هدية العرس مني (تهجم والسكين بيدها عـلى وسيم النائم وساره الـتي تلاعب شعر رأسه فيردها الدكتور نجيب ويقول لساره) : « روحي الى الغرفة الثانية » (فتنصرف)

الدكتور نجيب — هدى . كلّك عقل وحكمة . لا تحاولي فعل الجهلة . هدئي روعك .

هدى — كيف اهدىء روعي وانا امتع نظري برؤية هـذا الحقير . ليت لي قوة الضواري فامزقه قطعـــاً . انظرت كيف الله اعماه ، وكسر رجله ، وسينزل به بعد هـذا البرص ، والاكزيما ، والبـــله ، والنقرس ، والعصبي ، والتيفوس ، والتيفوئيد ، والشلل ، وذات الرئة ، والطرش ، والخرس ، والقرع ، والجدري ، والسرطان .

الدكتور نجيب — أتركي لله امر تدبيره . واذكري انه زوج ابنتك .

انت وانا لن نعيش على هذه الارض طويلاً. فاعفي عنه . وليكن لك ابناً ، هكذا قال الله في كتابه ، لا تتركي في هذه الحياة حقداً ولا ثأراً . اعفي عنه . وسيم لم يقتل « طعان . » نحن قتلنا ابنك . اقرأي هذه الجرائد وانظري كم تقتل الاحقاد من ابناء الامهات في بلادنا

هدى — انا ابنة الحمصي . انا الثكلى ، وهـذا قاتل ابني وسارق ابنتي . مالك تتكلم عن العفو ؟ من تحسبني انا . مبشر امـيركاني ؟ الدم بالدم . تلك كانت شريعتنا يوم كان الرجال رجالاً .

الدكتور نجيب — اسمعي هدى . لقد عانيت مرارة الموت مئة مرة حتى ولدت هذه الفتاة ، فواجهي قساوة الحيـاة مرة واحدة لتفسحي لها مجال الحياة ، ابنتك صبية . امامها عمر . وهي زوجة هذا الفتى وحبيبته ، لماذا تريدين ان تقيمي القيامة على جناية انا اعرف ان هذا الفتى ليس بمقترفها ؟ لمـاذا تريدين تشويش الحياة على هذين الـ ...

هدى — اذاً فانا حجر العثرة هـاه ! ؟ ! انا الجيفة النتنة في هذه المأدبة الشيقة ؟ ! هـاه ؟ يا عتبي عليك يا دكتور نجيب تقضي عمرك تعمل الصالحات ،

وتريد في آخر هذه المرحلة تلويث يديك بالدفاع عن هذا المجرم ، وتبرير زواجه من تلك الحية . أتعرف ان مثل هذا الزواج هو زنا . أتعرف ما دين هذا الخبيث .

الدكتور ـ لا ما هو دينه ؟

هدى ـ (تقترب من الدكتور وتمس باذنه وتنفعل) .

الدكتور ـ صحيح ؟!؟ هذا دينه ؟! يا لطيف (يتأمل متفكراً) تعالي نقتله .

هدى ـ برافو عليك يا دكتور . هكذا تنطق الرجال . اعطني السكين لأحزّ هذا العنق . اين انت يا لعينة فتربني انحر ابنك . اطلّي يا امرأة مجيد الحوي .

الدكتور ـ (همساً) أووس . على مهلك . قد يرانا الناس (يهم باعطائها السكين) اذا قتلناه بالسكين يفتضح امرنا . تعالي نسمم له فلا يكتشف امرنا . (يفتح حقيبته) خذي هذا الدواء . سمّ زعاف نشقة منه تقتل حالا . (تأخذ القنينة وتحاول فتحها فيصيح يا الدكتور) ويحك افتحيها تحت انفه اذ لو طار منها عطسة تقتلك . (تتمهل هدى بالمشي نحو وسيم وتصيح)

هدى ـ « يا لثاراتك يا طعان » ليت ليت الحصي انف

واحد املأه بهذا السم . خذها من يد بنت الحصي يا ابن الحية . (ثم تفتح القنينة تحت انف وسيم ، مديرة عينيها الى الناحية الثانية) .

الدكتور — اقفليها حالا . اقفليها . (هدى تسد القنينة وتعطيها الى الدكتور فيسرع هذا ويضعها في حقيبته ويقفل الحقيبة ويمشي نحو وسيم ويجس نبضه) هدى . مات . سلمت يداك .

هدى — (يتزل بها الرعب والندم) مات . مات . مات . ربي ماذا فعلت ؟! وسيم ولدي لا تمت . بربك يا دكتور اعطه دواء يرد اليه الحياة من جديد . ربي

الدكتور — (همساً) أووس . لا تفضحينا . قلت لك مات مات . مات . مات . كيف تريدين أن يعيش مرة ثانية .

هدى — وسيم ابني ولدي حبيبي لماذا قتلتك . عش مرة ثانية وكن لي ولداً والله يبارك زواجك بساره وانت في حل من دم طعان . احيه يا دكتور . كيف تركتني افعل هذه الفعلة يا حكيم . أمستحيل احياؤه ؟

الدكتور — مستحيل . لا تفضحينا .

هدى — اذاً فاعطني زجاجة السم اريد ان انشقها وأموت

انا ايضاً . هاتها . هاتها . قلت لك .

(يفتح الحقيبة ويعطيها القنينة مترددا) (هدى تأخذ القنينة)

ماذا اجيب الله اذا سألني لماذا قتلت روحاً بـــا هدى . بخاطرك يا دكتور . (تفتح القنينة وتشق وتشق) بخاطرك اني اموت (تشق وتشق ثم تشق ثم تتطلع بالدكتور وتصيح) هذا ليس بسم (الدكتور يقهقه ضاحكاً . ساره تطل) اذاً انت كنت تضحك مني . وسيم حيّ . حيّ . حيّ . شكراً لله : ما أعذب العفو . وما أمرّ الانتقام . ساره ضمّي زوجك . ضحكت مني يا دكتور (ساره تضم وسيم) (هدى تروح مصفقة مغنية والدكتور يقهقه ويمسح عوينانه اذ . .)

ينزل الستار

الفصل الثالث

نفس المكان في الفصل الاول انما ترى ان « العلية » قد شاخت وترهلت وفارقتها تلك القوة المعنوية فالشمعدان مقلوب ، والكوارة فارقتها سدفها ، ام وسيم هرمت وثقل سمعها وابيضّ شعرها وتقوّس ظهرها وتراخت كلياتها ، زليخه لا تزال زليخه انما الان يظهر انها في ازمة جوع . على العامود منبه من الساعات التي تدق دقات متقطعة ربما كرة كل نصف دقيقة ام وسيم تغني :

ربي لماذا بـــنيّ غيبتـه عن ديارهِ
اعياني حمل سنيّ ومهجتي في غمارهِ
هـلاّ رجعت لأم دنياها انت هلاّ رجعت !؟
فارقت وهي لهم استسلمت لمَ هجـــرت !؟
مهلاً ملاك المنون لا تعجلنّ عـليّ
فقبل غمض جفوني اريـد ضمّ بـنيّ

(الساعة ترن . فتنهض اليها ام وسيم كانها تبغي قتالها)

ام وسيم ــ اخرسي . اخرسي ايتها الساعة فانا اعـلم من دون ان اسمع ثرثرتك ان الشمس أهوت الى المغيب . ليت شمس حياتي غابت يوم غاب وسيم . وسيم !؟ اين انت يا بنيّ . أفي عافية انت وهناء ؟ في اي

بلاد من بلاد الدنيا مقرك ؟ ما اقفر هـذا البيت من بعدك ؟ ! كان آهلاً بشخصك يا ملاك امّـك فصار اوحش من كهف مهجور . عشر سنين وليس منك كلمة تطمئنـا عنك . بيت الحمصي !! يخاف ان يكتب فيعرفوا من مكتوبه مقره . بيت الحمصي افاعي « وادي الارز » هم . هـذا مغيب الشمس الذي كان يسحرك مرآه . وهـــذه قهوتك . (ترفع الدلاية) ودواتك واوراقـــك (ترفعها ايضاً وتقبلها) فهلمّ سطر فيها خواطرك . ارجع الى امك ، فانا اقاتل الموت من اجلك فاني اريد ان احيا لاراك . ولكن الموت سيغلبني قبل رجوعك (تبكي) (كلفا هو يخاطبها) « فنجان قهوة آخر ؟ » (يخاطبة السطيحة) ادخل يا وسيم (تبكي حتى تكاد ان تقع ثم تزحف الى كوّة في الحائط فتأخذ منها كتاباً قد يكون الانجيـل او القرآن ، او كتاب الحكمة ، او اي كتـاب آخر من كتب الله ونصائي منتجبة راكمة)

زلبخه ـــ يا ستي ام وسيم ،

ام وسيم ـــ اينبغي نهيقك الى القبر ؟ ماذا تريدين ؟

زلبخه ـــ انا جائعة .

ام وسيم ـــ ان الله خلقك بطناً خاوياً . لمـــاذا تجوعين ؟

(يدخل ظطام جريح الرأس تلفه العصائب) انا لست بجائعـــة .

ظطام ـــ مساء الخير يا خالتي ام وسيم (لا تسمعه ولا تراه)

زلبخه ـــ صار لنا يومين بدون خبز . ان مصاريني في فمي (يخرج ظطام كسن دبّر خطة) .

ام وسيم ـــ ليت مصارينك كانت مشدودة حول عنقك . اطبقي مطحنة فمك . أتريدين ان يسمعك بيت الحمصي فيشمتوا بنا ويقولوا بيت الحموي جياع ؟ (زلبخه تلتقط فجلة وتطحنها باسنانها) (صوت فونغراف « يا ليل يا ليل » من بعيد) .

ام وسيم ـــ فغنغراف الجماعـــه . (صوت قهقهة) ضحك وغناء في بيت الانجاس . جعل الله اعراسكم مآتم يا خنافس الارض .

زلبخه ـــ ابن الحمصي رجع من اميركا ومعه مال كثير .

ام وسيم ـــ سبحانه في ملكه – يجود برزقه على اسقط خلقه .

زلبخه ـــ حظهم كبير . حتى نساؤهم لا تلد إلا صبيان . اليوم خلق للمعم عباس صبي .

ام وسيم ـــ خلق لنا عدو !

(يدخل ظطام وفي يده رغيفان)

ظظام ـــ خالتي ام وثيم ، امي بعثت لك هذا لتذوقي خبزنا .

ام وسيم ـ رد الخبز الى امك يا ابني . عنـــدنا من فضل الله خير كثير .

ظظام ـــ ولكنه خبز ثخن احبت امي ان تذوقيه .

(ام وسيم تجيب بدمدمة حنقى)

زليخه ـــ انا اذوقه . (ظظام يعطي رغيفاً الى ام وسيم فتضعه هـذه في الخزانه ، ويعطي زليخه الرغيف الثاني فتبدأ هذه بنهشه) من يومين ما أكلت . (صوت فونوغراف : يا ليل يا ليل)

ظظام ـــ (متطلعاً الى ناحية مصدر الصوت) بيت الحمصي اصحاب كيف صاروا (مغنياً من النافذة : ياليل ، ياليل ، الله يلعن ليلكم بعزا نهاركم) يأخذ من حول وسطه مقلاعه ، وينتزع من جيبه حجرا ويضرب به الى ناحية بيت الحمصي)

ام وسيم ـــ اعقل ولا ، لا تحرك عش الدبابير .

ظظام ـــ عش النمل ادوسه بقدمي . قولي لي اكان خـــالي وثيم يحبني ؟

ام وسيم ـــ خالك وسيم يحب كل الناس . كان عمرك سنة يوم الحادثة .

ظظام ـــ (يسحب سكينه من وسطه ويسنه على حذائه) آخ لو

خالي ابو مرعي يشتري لي بارودة موذر ، في المدرسة نفخة مني ترعب اولادهم كانـا امهاتهم ثقتهم زيت خروع . لعنكم الله يا بيت الحمصي (يبصق)

ام وسيم — لعنكم الله في كل شريعة وفي كل كتاب لعـنة اردها حتى الموت ، بل اني انهض من قـبري واصيح : لعن الله بيت الحمصي . (تأخـذ غلاية القهوة الفارغة وتصب منها وترسل نظرة بلهاء الى الخارج)

ظظام — (يخطف الرغيف من زليخه) اتمعي تتمثل رواية في المدرسة. من بطلها ؟ بطلها (مشيراً الى نفسه) ظظام فهد الحموي .

زليخه — اعطني الرغيف . اعطني الرغيف .

ظظام — اتمعيلي دوري « انا تمثل على هذي البرايا » .
(يدخل الآغا بثياب كاكـا ثياب متسول . رأسه بمز وبداه ترجفان)

ظظام — (يرجع الرغيف الى زليخه) مثاء الخير يا ثيدنا الآغا .

الاغا — مساء الخير يا ابني . كيف جرح راسك ؟ ضربك ابن الحمصي ؟

ظظام — ضربني ابن الحمصي ؟! جرحي قطبه الحكيم سبـع قطب . جرح ابن الحمصي ١٢ . من يكون الضارب انا ظظام ام ابن الحمصي ؟

الاغا ـ (يقترب من ام وسيم الساهية ويتنحنح) يا ام وسيم (رافعاً صوته) يا ام وسيم .

ام وسيم ـ وسيم . ولدي . ادخل الى البيت . قد يضرّك ندى المساء (ضاحكة) بعد مقطع من قصيدة ؟ صفحة من رواية ؟ كملها . عجّل . اتريد قهوة ؟

الاغا ـ يا ام وسيم .

ام وسيم ـ (تستفيق) عفواً فانا اكاد لا اسمع طنين اذني . أتحسب اني مجنونة يا آغا . اليس وسيم خارجاً (تدل) هناك (تضحك) ألا تراه مأخوذاً بمنظر مغيب الشمس ؟ يتمتم شعراً وفي يده قلم وورقة ؟ أحالة انا ؟ وسيم . وسيم . لماذا لا تجيب امك ؟

الاغا ـ انت حالة مفتحة العينين . من بلومك اذا اصابك الجنون ؟ وسيم غير معروف اين ارضه ؟ بيت الحمصي يتقلبون بالغنى ويرأسون البلدية ، ويضربون على النوطرة . سينتزعون العصا من أبي مرعي مرة اخرى . وانا يحق لي الجنون . ابني خربني منذ تزوج تلك المومسة في بيروت . يا ام وسيم منذ هذا الصباح لم اذق لقمة . تغير الزمان (ام وسيم تركض فتعطيه الرغيف الذي اتى به قطام . الاغا ينهش الرغيف) ما اطيب الخبز على الجوع . انت

لا تعرفين آلام الجوع يا ام وسيم .

ام وسيم — الحمد لله على نعمه .

الاغا — اسمع ان جماعة بيت الحصي يريدون ان يشتروا ارزاقكم . فاذا كنتِ في حاجة فلماذا لا تبيعينهم ؟

ام وسيم — الارض ليست ارضي . هي وقف الله على اهلي وانا قيّمة عليه . من أنا لأكفر بالله وابيع ملك الله لنخالة الدنيا ؟ ارضنا استلمها ابو وسيم من ابيه . ويسلمها وسيم لبنيه . هذه ارادة الله .

الاغا — بخاطرك يا ام وسيم . (ام وسيم ترجع الى قهوتها)

ظظام — (الى الاغا وهو خارج) ثنمثل رواية عظيمة انا بطلها اتشمع ذنابك دوري « يا ميكروبا فتاكا ثيفتك بك مصل من قذارة لؤمك . ذرعت الشر فاحشد الثقاء ...

الاغا — (مضطرباً) سأراك على المسرح . ما اسم روايتك ؟

ظظام — « المروءة والوفاء او عرب الجزيرة » .

الاغا — جدك الله يرحمه مثل دوراً في تلك الرواية . يا ابني (سرا) اليس عند خالتك ام وسيم نقطة عرق . او كأس نبيذ ؟ انا مريض احتاج الى بلعه .

طعام ـ عند خالتي ام وثيم قنينة نبيذ عمرها عشر ثنين .

الاعما ـ اعطني منها جرعة .

طعام ـ علي الذبيق والنبع ملوك لا يقدرون ان يأخذوا منها نقطة . خالتي ام وثيم كانتنها لخالي وسيم اتمع لي دوري ....

الاعما ـ ساراك على المسرح . (يخرج) .

طعام ـ اتمعي لي دوري يا ذليخه . الا تحبين ان تسمعي ادب .

زليخه ـ اتركني من الادب (يخطف الخبز من يدها ويهرب فيصطدم بعمّه ابي مرعي الراجع من المطحنة الحامل على ظهره كيس طحين فيقع الاثنان تحت كيس الطحين فينهض ابو مرعي غاضباً ويصفع طعام شاغاً ويصيح به « يا مدون . روح اربط الحمار » . فيركض طعام الى الخارج) .

ابو مرعي ـ (يقعد تعباً) كلامرّ يوم كلما استطلت طريق المطحنة كيفك يا ام وسيم ؟

ام وسيم ـ (في يدها الساعة الدقاقة) رجع قلبي الى الخفقان . ان الموت ارسل نذيره .

ابو مرعي ـ صار الذهاب الى المطحنة محنة . انتنوبيلات

وانتنوبيلات واطنوبيلات . وزمامير وغبار واغراب راكبه الانتنوبيلات . كل واحد يمد براسه من شباك الانطوبيـل ويرمي كلمه « انفخت دولاب ، حمـارك يا عم » « زمّر على الكوع يا عم » . « اضرب فرام الحمار » « ناقصك بنزين » . الخ من هذه الايام !

ام وسيم ــ يا زليخه . يا بقرة . اين الساعة ؟ الساعة .

ابو مرعي ــ الساعة بيدك يا ام وسيم (يأخذها من يدها ويعلقها على العامود) (الى زليخه) روحي الى العين .

زليخه ــ الجرّة ملانة .

ابو مرعي ــ قلت لك روحي الى العين . (تذهب بالجرة) (يدخل ظطام عارجاً) .

ظطام ــ آ . آخ . لبطني الحمار .

ابو مرعي ــ على اي رجل .

ظطام ــ اليمين .

ابو مرعي ــ خليه يلبطك على الشمال بتصح . يا ام وسيم معي خبر هام (الى ظطام) اغلق الباب (ظطام يفعـل) . وانا راجع من المطحنـة ناداني بحري من بيروت

واعطاني هذا المكتوب . مكتوب من خالك وسيم . فهمت ؟

ام وسيم ـ الحمد لله على هذه النعمة . اقرأوه لي .

ابو مرعي ـ انا وام وسيم لا نعرف القراءة . اقرأه لنا . ولكن هـذا المكتوب اذا عرف به احـد ووصل الخبر للجماعة ، يصل الخبر للحكومة أفهمت أفهمت ؟ اذا تلفظت بكلمة انتف ريشك واقطع لسانك واشويه . أفهمت ؟

ظظام ـ اذا تلفظت بكلمة اقطع لساني ، واثلقه واطعمه للكلاب . لما حرقنا بيادر بيت الحمشي الا تذكر كم ضربني الجاويش حتى اقر وما قريت ؟

ابو مرعي ـ اقرأ المكتوب بلا كتر حكي . (ام وسيم تـأتي بالقنديل فتحمله بيدها فوق رأس ظظام . وابو مرعي الى يمين ظظام واجم . ام وسيم مرفرفة يرقص القنديل بيدها . ظظام يفض الغلاف ويقرأ : « يا امي »)

ام وسيم ـ يا تقبر امك .

ينزل الستار

المشهد الثامن عشر الطحين

زليخه لاول مرة في حياتها هائجة تركض هنا وهناك وتصلح ثيابها . وتكلس وجهها بالبودرة امام المرآة وتكتحل . ثم تفتش عن محرمتها وترجع فتبودر انفها وهي فيما تفعل ذلك تعيد الاغاني التي انشدتها في الفصل الاول . ظطام يخرج من الدهليز ويده قنينة النبيذ .

ام وسيم — هات القنينة يا حرامي . هات القنينة والا خنقتك .

ظطام — اما قلت انك ابقيت القنينة ليوم رجوع خالي وثيم . اقول لك خالي وثيم رجع . اثمي الحدا . اثمي دوي البارود (صوت حدا وقواس من بعيد) كل اهل الضيعة يلاقونه . حتى الجماعة هناك . تذوج ابنة هدى . معهم طفل ثبي .

ام وسيم — اتحسبني مجنونة ؟ (تضربه) صرت اضحوكة الاولاد في هذا العمر . وسيم يتزوج من بيت الحمصي ! ؟ اخرج من هنا يا لعين (تأخذ القنينة منه) اخرج ولا تزد على بؤسي وتعاستي هزءك وتهكمك . (لنفسها) تزوج من بيت الحمصي ؟!

ظطام — وحياة الله هذا نحيح .

ام وسيم — (ترجع الى الثناء « ربي لماذا بنيّ » والتكلم لنفسها ولشخص موهوم على السطيحه في الخارج . « أتريد قهوة بعد ، عجّل الى عشائك . بعد صفحة ؟ ثم تضحك وتبكي وتفتح كتابها وتصلي بينما :)

زلفه — ظطام . مؤكد رأيت معه رفيق ؟

ظطام — معه رفاق .

زلفه — اعني رفيق بيوتي ، شاعر ، امبراطور الشعر . (تتنهد) كلامه ظريف ، شاب حلو .

ظطام — اسمه راجي !

زلفه — اسمه راجي ؟ (تهمس باذن ظطام كلاماً يعجب ظطام . ثم تفتح عبها وتتناول منه ورقة تعطيها الى ظطام الذي ينصرف) (يدخل ابو مرعي)

ابو مرعي — عودي الى وعيك يا اختي . وسيم هنا . هو على البوابة . انا يا اختي تزوج ابنة هدى وله منها طفل . صرنا اصهار الجماعة يا للمصيبة ! استقبليهم فهم هنا على البوابة . وسيم بصره ضعيف ، هدى معهم . كل الجماعه معهم .

ام وسيم — وانت ايضاً تهزأ بي يا ابو مرعي ؟ (ترجع الى النحيب)

(يدخل وسيم ، سارة ، على ذراعيها طفل . هدى ، راجي

يتبادلان الكلام مع زليخه . شمدص جهجاه ، قرويون من بيت الحمصي والحموي ، بعضهم بلباس القرويين ، آخرون باللباس الافرنجي . وسيم يمشي مشي اعمى وعلى عينيه نظارتان زرقاوان كثيفتان)

وسيم — امي . امي . (ام وسيم ترد وسيماً عنها جدوء ثم تتطلع به غضبى وتصفعه)

ام وسيم — صرت مضحكه ؟! اذاً فانت وسيم هاه ؟!
(تقترب هدى وتضحك لها)

ام وسيم — هدى ، أم غلطانه ؟

هدى — لست غلطانة يا ام وسيم . وهذه ابنتي ساره زوجة وسيم ، وهذا (مشيرة الى الطفل) ابنهما — ابننا .

ام وسيم — واين غدائرك (هدى مقصوصة الشعر) يا لعينة لاخنقك بها . (ابو مرعي يحمس كلمات باذن وسيم)

وسيم — امي ماذا جرى ، ألا تعرفين وسيمك ؟ (يضمها) اكانت غيبتي عنك مؤلمة الى هذا الحد ، استفيقي امي انا وسيم (ينتزع نظارتيه)

ام وسيم — (راجعها الرشاد فتنفجر بكاء) بـــلى ، انت وسيم ! (تضمه وتقبله) كيف اخطيء معرفتك يا حبيـــبي . شكراً لله على رجوعك . كانت الايام بعد هجرتك

قاسية ، قاسية . كل دقيقة كانت حبلى بعذاب الخوف والشك ، والحنين الى مرآك يا بني . ظطام ، هات النبيذ واسكب الى خالك وسيم . لنشرب كلنا نخب رجوعك . انظر الى هذا البيت كيف تتألق حيطانه (ابو مرعي يفتح القنينة ويوزع الكؤوس على الحضور ، تتطلع به) ما بال عينيك ؟!

وسيم — ضعف موقت. الدكتور نجيب اكد لي ان سيعاودني بصري .

ساره — (اراجي) غريب كنت انتظر ان يسترد وسيم نظره اذ يسمع صوت امه .

راجي — لا تقطعي الرجاء .

(صوت جرس حزين من بعيد)

ابو مرعي — ظطام رح انظر لماذا يقرعون جرس الحزن .

(ظطام يركض الى الخارج)

ام وسيم — (يعاودها السهو فتنتفض من ذراعي وسيم وتصيح) ابو مرعي اني جننت جنوناً كاملاً . كنت في الماضي ارى وسيماً على السطيحة يكتب . اما الآن فقد مرت بي رؤيا مرعبة . رأيته هنا ، ورأيت اللعينة هدى قربه وقد قصت غدائرها ، وابنتها . وعلى ذراعي ابنتها طفل تقول انه طفل وسيم . ورأيت بيت

الحمصي في دارنا وجمعاً من الضيعة كبير . وضمت وسيم ، وقبلت وسيم ، ورأيت كأن النور انطفأ في عيني ولدي . آخ يا ربي ! ابو مرعي ، متى رجع وسيم لا تقل له ان امه جنّت قبل ان تموت لا تقل له انها مجنونة .(هدى تقترب من ام وسيم وتضمها)

هدى — انه حلم يا ام وسيم ولكنه حلم جميل . انظري سيعيش ابناؤنا سعداء متحابين ، حيث عشنا اعداء متقاتلين .

شمعون — (يخاطب الطفل) ابوك حموي امك حمصية . خلقت في المهجر وستنشأ في الوطن — انت امل الغد ، انت الزيز ابو ليلى المهلهل .

ابو مرعي — (مخاطباً الجمهور) يا اخواننا بيت الحمصي . في تاريخنا صفحات دامية .

اصوات الجمهور — مزقناها ، حرقناها ، نسيناها .

ابو مرعي — واني اريد ان اتقدم اليكم بتضحية . عصا الناطور اقدمها لكم يا اخواننا بيت الحمصي (يزيح الستار ويتناول بيده ما يظنه عصا النوطرة ، فتظهر بارودة حربية ، فيرجعها ، ويتناول عصا النوطرة من جديد ، بيت الحمصي يتهامسون ، ابو مرعي يصبح برجل واقف قربه يظن انه من بيت الحموي ! « اتظن يقبلون الوظيفة » ؟ اذا فعلوا اضاعوا لي مستقبلي »)

فيجيب رفيقه « الحق عليك بيت الحمصي لا يؤمنون »

احد بيت الحمصي — يا ابا مرعي اليوم في « وادي الارز » لا يوجد حمصي ، ولا حموي . نحن عائلة واحدة .

الاغا — فليحي الوفق والاتحاد . هـذا ما كنا نسعى اليه دائماً . الوفق والاتحاد .

احد بيت الحمصي — نحن جسم واحد له ذراعان حموي : (مشيرا الى يساره) وحمصي (مشيرا الى يمينه)•(احد بيت الحمصي يثور ويصيح): من قال لك اننا نقبل ببيت الحمصي يكونون على اليمين (فيجيبه احد بيت الحمصي) ومن قال لك نرضى بيت الحموي على اليمين • (فيسكتهما الجمهور) (داجي يتضاحك مع زليخه خلال المشهد) احد بيت الحمصي متابعا — رزقنا رزقكم ، وشرفنا شرفكم ، وليس في « وادي الارز » من هو احق بهـــذه العصا منكم يا عمي ابو مرعي (يرجعها له)

وسيم — ما اجمل مـا اسمع . صار « وادي الارز » جنة تسكن . اشعر كانما نصب دونه الف مترااليوز وصار امنع من جبل طارق لقد خفت موازينكم يا بني « وادي الارز » وتصدر الشيطان مجالسكم فقصرتم جهودكم على التوافه ، وعلى هدم بعضكم بعضاً ، ولكني لا اصدق انكم تقهرون . اذ ان كهارب

نفوسكم طاهرة مجوهرة ، وهذه الادران ليست في خلايا دمائكم بل هي طفيلية على اجسامكم . رواها بالقذارة من روى ارضكم بدم قتلاكم ليبني من عظامهم سلماً يرتقي عليه الى مراكز الزهو والرفاهية . على انكم لا تقهرون . فلقد نزلت بنا منذ القديم المحن ، والبلايا ، والغزاة ، والتفرقة والابغاض ، وزالت المحن والبلايا ، ودالت دولة الغزاة ونحن الغالبون ، ان الصدفة رمت بين يديّ مبلغاً من المال هو رهن ارادتكم ، خسئت نفس تستعمل المال لغير خدمة الجار ؟ فمن تصدع سقف بيته ، او احتاج الى معونة فهذا بيتي وهذه يدي . ان المدفع ، والطيارة ، وكل آلة اخترعها الانسان لها حدود لمراميها وتخدم لمدى قوتها ، ولكن الانسان ، وهو اختراع الله ، لاحدّ لما يقوى على فعله اذا تكاتف مع اخيه الانسان فضعوا ايديكم في ايدي جيرانكم والى الامام . نخبكم يا اخوان .

(اصوات — كاس رجوعك) .

ظطام — « يرجع لاهثاً » — نخب الحمّى نخب الحموي نخب العدوّ « يخرج ظطام »

شمرص — نخب الزير وطمسن صاحب معدن الذهب . أصحيح

يا راجي ان معدن الذهب الذي اكتشفه طمسن ارتفعت اسهمه مئتي مرة .

راجي — مئتي مرة . الخمسة آلاف ريال التي وظفها وسيم صارت تسوى مليون .

شمدص — فليحي الزير ابو ليلى المهلهل (يأخذ الكتاب من المكتبة) (جيب بنطلونه) - معي من المعـــدن مئة سهم (يفتح الكتاب ويأخذ منه ورقة زرقاء) .

ظظام — (يرجع لاهثاً) جرس الحزن . جرس الحزن . وصل من اميركا خبر الدكتور نجيب .

وسيم — noi (اصوات مات الدكتور نجيب . راح الحكيم . سكوت شامل) .

وسيم — ساره . ساره . امي . عاد النور الى عيني ، انني انظر واری (يمشي في الجمهور) رحمك الله يـا دكتور نجيب ، حتى بعد موتك تقوم بالعجائب .

راجي — (لساره) صحت نبوة الدكتور نجيب . (ساره - تضمه باكية ممدة عينيه

ام وسيم — (ذاهلة مخاطبة السطيحة في الخارج) أتريد قهوة ؟

وسيم — اريد الكثير من القهوة . سأغمس قلمي في شعاع

هذه الشمس واكتب صفحات طاهرة حارة كروح الحكيم نجيب .

ظظام — (يأخذ من عبه ورقة) خالي وثيم . نظمت في رجوعك قصيدة .

زليخه — (لراجي)انا نظمتها له . صار لي عشر سنين اشتغل بها .

ظظام — (يقف وقفة خطيب وينشد) طلّ القمر ...

راجي — (يصيح) آه . يا قمر . وسيم اعطني كولونيا ، ماء زهر ، أمونيا . آه يا قمر (يقع على الارض اذ :)

ينزل الستار

اذا ثار تصفيق الجمهور فليظهر الممثلون هكذا - شمدص يقرأ في كتاب الزبر . ام وسيم ذاهلة تغني « ربي لماذا بنيّ » . زليخه وراجي يتغازلان « يطل القمر » . اولاد العرب يغنون : « نحن الاثاوسة اولاد العرب » . ابو رعي يقدم عصا النوطرة لبيت الحمصي . وسيم وساره يتطلعان ببعضهما . هدى تخاطب الطفل والدكتور نجيب بعيد عن الجمهور ، خلفه كانه طيف بلباسه الطبي الابيض يبتسم ، وينظف نظارتيه . الاغا مشوّم يلاعب المسبحه وجرس الحزن يقرع . ظظام في يده ورقة خطابه جم بالفائه . فرج الله يعدّ كدسة فلوس .

الثلج الأسود

وقصص أخرى

الثلج الأسود

•

تلك المنازل التي تطربشت بالقرميد الاحمر ألا تزال هناك ؟ أما تزال جالسة بين جنائن ساحل لبنان ، كأنها قصدت الى تلك المغـــاني لأجل النزهة ، فاغوتها الحمائل ، فضربت بينها « سيراناً » ؟ ألا تزال منتشرة بين تلك البساتين ؟ ألا يزال اسمها قرية « الحدث » ؟ الا تزال طفلة صغيرة متعلقة باذيال امها « بيروت » ؟ أهي حتى اليوم تحفل بالكنائس وترنّ في آحادهـا الاجراس ؟ وانت يا فرانسوا طانيوس مطر اين مكانك في الدنيا ؟ لئن وقعت بين يديك هذه القصة أتراك تذكر راويها ؟

* * *

كنا في الحرب التي سموها العظمى . وكان ابي على شدة الفاقـة التي غمرت لبنان ، في سعة وسعادة . ذلك لانه كان متربعاً في وظيفة باشكاتب المجلس الاداري — اذا صدقتني الذاكرة . ووظيفـة الباشكاتب في تلك الايام كانت مصدر سلطة وأبهة . يقضي نهاره خلف طاولة تكدست عليها اوراق فاحت منها رائحة حبر اسود صبغ الارض وزركش الحيطان . وازدانت بغمرة من اقلام قصب ، ما رأيت فناناً ألبق من ابي في تقليبها بين اصابعه . يجلس بقامته الجبارة راضياً بانه يملأ كرسياً يشتهي اعداؤه

ان يكونوا فيها ، ويهصر بصوت مرعب على الحاجب ، وعلى الكتبة . وان اتفق ان نزل الى السراي رجل من ضيعتنا ، قبّل الرجـــل يد ابي وسأله عن حال الجناب .

ويضرب البورجي دقته العسكرية عند العشية فينفر الموظفون من غرفهم ويجتمعون في ساحة السراي ، حلقات حلقات وكلهم « بكوات » و « مشايخ » فرّقتهم الاديان ، وجمعتهم رابطة الصداقة لبعضهم ، والبغض لاولئك الاعداء الذين يشتهون ان يكونوا في الكراسي التي يقتعـدها اولئك الموظفون . ثم ينصرفون الى بيوتهم على اشهى ما يكون .

الوظيفة في يده ، وموسم الزيتون كان مقبلاً عام ١٩١٦ وجورج بك الاندري — ذلك الموظف الزحلاوي المرح — يرسل له العرق هـدية بعشرات القناني . وتلك العصبة من « وجوه » لبنان يجتمعون في منزلنا على طاولة عرق كل عشية ، فهل تعجب لابي ان يكون سعيداً ، كثير الضحك ؟ وكيف لا يكون كثير الضحك من كان صفيّـــه اليوزباشي الياس بك الحوري ، الخفيف الدم ، الحاضر النكتة المجّان ؟

وكان شقائي انا بقدر سعادة ابي . فقـــد كنت غلاماً في العاشرة في مدرسة رهبان ، معلموها ، وتلامذتها مسيحيون ، وانا فيها الدرزي الوحيد . وكانوا بالطبع يشتهون النصر لفرنسا ، وكنت اشتهيه لتركيا ، وكنت غلاماً جباناً خجولا يتأكلني البغض — بغض النصارى — وتخنقني الوحدة اذ ليس لي في المدرسة عشير ، اما في البيت ، فأمي قد غلب عليها الخوف فهي ابداً جازعة ان يشي بأبي واشٍ الى الاتراك ، والخوف من الفاقـة ، وهي حريصة ، تخشى ان يطول الحرب وينزل بنا الجوع شأن سائرالناس واخـــتي واخوتي ليسوا بعشرائي فانا كبيرهم . وليس اتيس ممن يستبق

اخوته الى هذه الدنيا فيكون كبيرهم لا عشيرهم .

وكان اولاد المدرسة يأتونني كل يوم بألف قصة . غدا تنزل جنود فرنسا في بيروت ويحتلون البلاد . وغدا يفتك بالدروز جنود الفرنسيس . بل وربما يرحمونني فيقطعون مني اذناً واحدة ، ويفقأون عيناً واحدة فقط لا غير . وزادت في شقائي « خزما » تلك الخادمة الشمطاء البطاشة ، الحمقاء الدميمة القاسية ، ما رأيت عداء قتالاً مثل عدائها للمسيحيين والمسيحية ، فهي في صباح الاحـــد ، اذ تقرع اجراس الكنائس ، تخفي رأسها تحت اللحاف وتقذف شتائم تثقب اللحاف ، وتنفذ من السقف ، وتخرق قرميد البيت ، ثم ترتطم باصوات الاجراس في الفضاء ، فتنفجر قذائف قتالة . وكم مرة لفّت حول عنقي اصابعها الفولاذية وصاحت « ادخـــل الى المطبخ يا لعين ، ألم يكف ان حكم الله علينا بالعيش بين المسيحيين ، حتى جئت انت تزيد عليّ المصيبة بالتحدث الى « فرانسوا » ابن الجيران ؟ ثم تشدّني الى داخل البيت . مسكين « فرانسوا » لولا « خزما » لكان لي خلّا وفياً امیناً ، ترى ابن فرانسوا الآن ؟ اذكر كيف كنت اهرب له الرغيف من بين حديد نافذتنا واستبدله باللوز الاخضر الذي استحله هو من بستان الرهبان ؟

لهذا ضاقت نفسي بالناس ففاض كل ما فيها من عاطفة وتعطش الى الالفة ، على حيوان . بلى ، كان صاحبي الوحيـد وصفيي في تلك الايام حمارنا « العمروجي » الكبير الذي اطلق عليـه خالي اسم « جمال باشا » تحقيراً لحاكم البلاد . فمن الالغاز التي لم اكن افهمها كيف كان اهـــلي يمقتون الاتراك ، وكيف كانوا على إلفـة والنصارى ، ولماذا شببت انا على بغض المسيحيين ، حتى «خزما» لم تفهم ذلك اللغز ايضاً .

ولقد بادلني الود ذلك الحمار ، فكنت اتحدث اليه واعتني به وامتطيه ، فكان على كبر جثته وشدة شكيمته لي مطيعا ، وكنت ازدهي به فليس في قرية « الحدث » ولا جوارها حمار له شبيه . ألا فليهددني التلاميذ بجنود فرنسا ، وليهزأوا بي ، وليتبعني فيليب واخوه ميشال بالحجارة حتى خط السكة الحديدية ، فانا في كل يوم احد فارس اركب «العمروجي» واسمع الناس طنين اجراسه .

وكان الذل والشقاء والاضطهاد الذي توطن نفسي يجد منصرفاً في يوم الاحد. الله ، الله ،ما اجمل تلك الرعشة التي كانت تهزني اذا همز بقضيب النوت تلك الرقبة العضلية السوداء ، فيرمح بي « جمال باشا » وانا متعلق باصابعي بحلقة الجلال تذيع فروسيتي جلبة من غوغاء اجراسه . اي فاتح دخل اية مدينة على اي حصان ابيض شعر بمثل تلك النشوة !!

على ان امتطائي الحمار في يوم الاحد ، لا يتم بغير بعض طقوس ، اهمها ان استأذن ابي ، لذلك قفزت من فراشي فجر يوم ١٧ نيسان من العام ١٩١٦ وفتحت عينين مدهوشتين اذ رأيت ابي يلبس ثيابه وامي تروح وتأتي باكية غضبى ، والمصباح في خارج البيت مشعل وقد وقف بقربه اليوزباشي الياس بك الحوري وفي يده مسدس ، وحوله جنود ، وفي الزاوية ضابط غريب المظهر يدخن سيكارة ويقتل شاربين . الله ،ماذا جرى ؟ اترى صدق اولاد النصارى ، وجاءت فرنسا وجاء هؤلاء يقتلوننا في مطلع ذلك الفجر ؟ والياس بك الطلق المحبّا ، الذي ادعوه « عمي الياس » لماذا يشهر المسدس على ابي ؟ ترى أصدقت « خزما » برأيها في المسيحيين ؟

وأفقت من وهلة الدهشة الاولى ، فارتدت ذاكرتي الى الحادثة المهمة في صباح كل احد ألا وهي ركوب الحمار ، والى أهم الطقوس —استئذان

والدي . فقلت : « ابتي اتسمح لي بامتطاء الحمار ؟ » فاجابني ذلك الجبار بلهجة جزعة لم اسمعها منه قبل « افعـــل ما تريد ، انت رجل البيت منذ الساعة » !

الله ما اكثر الغاز ذلك الفجر !

وتهيأ ابي للمسير فسأل مخاطبا « عمي الياس » نمشي ؟ فاجابه هذا آمرا عابسا « امش » ومشى ابي في الطليعة الى خـــارج البيت ومشى الجنود والياس بك مصوب مسدسه الى ظهر ابي ومشيت انا خلف تلك الجماعة لا افهم ماذا يجري . ثم تقـــدم الضابط التركي الى الياس بك فتمتم كلمات تركية وانصرف بثلاثة جنود ، وبقي « عمي الياس » وجنوده سائرين بابي وانا خلفهم . فلما انقطع وقع اقـــدام الضابط التركي ، وضع الياس بك مسدسه في جيبه واقبل على ابي يقبله ويبكي كالاطفال .

حقاً انه نهار كثير الالغاز !

« اركض يا محمود من هذه الطريق ، وانا اركض في الطريق المعاكسة فان رجع التركي قلت له انك هربت ولم نقدر اللحاق بك » .

« وهؤلاء يا الياس » قال ابي مشيراً الى بيتنا « من يحميهم من بطش الاتراك ؟ » واجهش الاثنان بالبكاء .

وفتحت نافذة بعنف من عل ، فتطلع الصديقان ، فاذا في النافذة سليم بك ملك تتوج رأسه قبعة صوف وبتدلى شارباه من النافذة يهمّان بالسقوط « محمود ، الياس ، ما الخبر ؟ » صاح سليم بك .

لا ادري لماذا لا اذكر دين سليم بك ملك فها قد مضى على تلك الايام ثلاث وعشرون سنة وفي وسعي ان اخبرك عن دين جميع موظفي حكومة جبل لبنان في تلك الايام . اقول لك ان احمد بك البدوي مسلم شيعي ،

وحنا بك كنعان روم – روم ارثوذكس . اقدر ان اسمي دين كل واحد منهم ، الا سليم بك ملك ، لا ادري لماذا لا اذكر دينه . لعل دعة نفسه وصفاءها وطيبها ، قصرت عن ان تطبع في ذاكرتي الكثير من مميزات الرجل . ومميزات الرجال في تلك الايام دينهم .

وصعدنا الى دار سليم بك فاخبره ابي ان امرا صدر من القائد التركي بالقبض عليه وانه سائر الى حيث يؤمر – ربما الى منفى او مشنقه. فاطرق سليم بك ، ثم اقفل الباب ، وهرع الى المطبخ فتناول ازميلا وقرفص قرب الحائط واخذ يقلقل بلاطة في ارض المطبخ حتى انتزعها ، وتناول من تحتها صرة ملؤها ليرات ذهبية فاعطاها الى ابي قائلا « خذها ، هذه كلمات فصيحة يفهمها الحكام ، لعلها تدفع عنك نقمة » . وراح الاثنان يتجادلان فاصر ابي على ان لا يأخذ الذهب ، واصر سليم بك على اعطائه اياها الى ان اتفق الاثنان على اقتسامها ، فحملني ابي نصف ما اقترض على ان اركض بالليرات الى امي ، واخذ هو الشطر الثاني .

وكأن الضجة التي اثارها عرض المال ، ورفضه ايقظت « جميلة » ،طفلة في السادسة من عمرها ، هي وحيدة سليم بك ملك ماتت امها منذ شهور فهي الحياة لابيها . وفتحت « جميلة »الباب وقفزت كالارنبة حافية القدمين نحو ابي وصاحت « شكولاته » . ذلك ان ابي كان يحتفظ دائماً بقطع الشكولاته – ماركة نستله – للطفلة جميلة ، فما لقيها مرة الا واعطاها قطعة او قطعتين – على غلاء الحلويات الافرنجية في زمن الحرب . فتش ابي جيوبه فلما لم يجد فيها حلوى تطلع بي وامرني : « في غرفة النوم بضع قطعات ، لا تغفل ان تعطيها الى جميلة » .

كان ذلك آخر عهدي بجميلة فاني حين قفلت الى البيت وحملت

الشكولاته الى « جميلة » لقيني « فرانسوا » واقنعني ان اقتسم الشكولاته بيني وبينه .

***

كان الاسبوع الذي تلا يوم ذلك الاحد فاجعا . فقد علمنا ان ابي نفي الى الاناضول وقد لا يرجع .

وقر القرار على هجر « الحدث » والرجوع الى قريتنا في الجبل وبعنا من ادوات المنزل ما قدرنا ان نجد له مشتريا وبعنا - ويا للفاجعة - الحمار العمروجي . وكأن الايام لم تقنع باضطهادي فلم يكف اني فقدت « جمال باشا » حتى كان مشتريا الحمار ، ابو فيليب والياس ، فاطلق هذان اللعينان على الحمار اسما ... يا ويلي من ذلك الاسم . لاهتز رعبا كلما ذكرته . لا تسألني ان ابوح لك بذلك الاسم .

ويوم الرحيل اذ نحن نتهيأ لركوب العربة الى قريتنا في الجبل مرّ فيليب والياس و « جمال باشا » امامها وقد اعتلته اربع جرار ماء ، وهما يضربانه ، ويشتمانه وامش يا . . العياذ بالله من ذلك الاسم .

ولقد اصاب بالصمم فافقد استماع كل صوت ، الا نهيق « العمروجي » اذ نحن نركب العربة في طريقنا الى الجبل ، والعمروجي مسمّر حوافره امام بيتنا ينهق حزنا ، تعلوه الجرار ، وتنهال عليه ضربات فيليب والياس وتمطر عليه الشتائم . وتحركت العربة بنا . واجراس الكنائس تقرع . فسدت « خزما » اذنيها - لتقرع الكنائس اجراسها ما تشاء ، فلن تسمعها خزما بعد اليوم فنحن في طريقنا الى بلاد الدروز .

***

استمرت الارض في دورانها ، وبقي من عليها في غفلة عن سير الزمان

عاماً ، خمسة ، عشرة ، عشرين – وها انا بعيد عن لبنان ، في الشرق الاقصى ، وابي عاد من منفاه ، ورجع الى البيت برأسه ، وقد طمست الايام الكثير من الذكريات، وغيبت الكثيرين من الاحباب والاصحاب وعرفتني الى الكثيرين . ولعل احب الناس اليّ في هذا المهجر ، فؤاد الخوري ، الذي وسعت نفسه لكل غريبة ، ومن الغرائب ان يكون فؤاد هذا ، ابن اخت الضابط الياس – عمي الياس – الذي ساق ابي الى منفاه ، ونحن في هذا المهجر ، قليل عديدنا ، كثير تباغضنا ، اغراب عن بعضنا ، ثقافة ، واطباعا وتربية . لذلك وجدت في فؤاد الخوري خير صديق اذ تشابهنا بالكثير من الصفات ، وصرنا نجتمع مساء كل يوم بعد الانصراف من الاعمال ، وصار الواحد منا يبوح الى الاخر بكل ما في نفسه من اخبار واسرار . وكان من الطبيعي ان اخبره عن خاله الياس ، واحدثه بنبأ مروءةسليم بك ملك، واعترف بشدة تشوّقي الىانافيه ، او احدا من اهله ، دين معروفه .

وفؤاد هذا من المهاجرين الذين جاهدوا وشقوا ، فهو غريب فيمهجره غريب في بلاده اذا عاد اليها ، اعزب كثير الزوجات ، لا مال ولا عائلة، يستعين على خدع نفسه بان يزيف ما حوله ، فهو مرح كثير الدعاب ، يتناول الحوادث والاشخاص بلسان ساخر لذاع . وقد وجد في قصة سليم بك ملك ، وخاله الياس واللهجة الشعرية الوقورة التي اقص بها رواية منفى ابي ، ملعباً لهزءه ، فمسخ القصة وتلاعب بحوادثها ، وجعل مني كاريكاتورا يخطف الحلوى من افواه الاطفال ، ويسرق الاثمار من بساتين الرهبان . ولكم دخلنا الرستوران فدفّعني ثمن ما نأكل، قائلا «احسبني من بيت ملك» واذا ركبنا التاكسي سبقني الى الخروج منها مشيراً الى السائق ان يقبض

منّي صاخباً» قيّدها عـــلى حساب خالي الياس » . او احسبني من « بيت ملك ». وليلة اجتمع فؤاد ورفاقاً على طاولة بوكر، فنادوا عليّ فلم اذهب، وتلفنوا لي فلم اجب ارسلوا لي شوفر صديق ، اخبرني ان في البلدة غريباً من بيت ملك يسأل عني ، فلما ركبت السيارة ، ركضت بي الى حيث فؤاد والبوكر .

وحقاً اني لأجهل لماذا تضخّم الايام في مخيلتي صورة سليم بك ملك ، وابنته « جميلة » . الأن العمر كشف لي عن غدر الناس ولؤمهم ، فكبرّ سليم بك ذا المروءة اذ قابلت بين فعله ، وفعل الناس ؟ ام لأن الوفاء الشريف في الرجل الذي اقتلع بلاطة داره واعطى صديقه كنزه في ساعة الضيق ، وفي زمن لا يسمح الرجل فيه عن لقمة ، كان بنفسه عملاً نبيلاً ؟ ، ولكن الذي لا اجهل اني حملت في نفسي املاً خفياً هو ان الزمان سيتيح لي يوماً من الأيام ان أفي بيت ملك صنع الجميل ، فما سمعت بان مواطنـاً قدم مهجرنا الا خففت استقبله ، بلباقة ، هل هو ذو قرابـة بسليم بك ، وما سمعت بامرأة نزلت ماتيلا الا قلت لعلها « جميلة » !!!

لذلك لا يصعب عليك ان تتصور فرحي حينما استلمت من ابي في ١٨ حزيران سنة ١٩٣٠ رسالة يقول لي فيها ان قريباً للمرحوم سليم بك ملك — هل تذكره يا ابني ؟— هل اذكره ؟ !—جاء ورجا الى ابي ان يسألني ان ازور بلدة « ايلوكون » التي تبعد عن ماتيلا ١٢٠ ميلا ، فان جميلة ابنـــة المرحوم سليم بك — هل تذكرها يا ابني ؟ — قد تزوجت في اوسترالیا ، وانتقلت مؤخراً الى تلك البلدة القريبة منكم، واذا كنت يا ابني قد نسيت المرحوم سليم بك فهو ... (وهنا قص عليّ ابي الحادثة الـــتي صار لي عشرون عاماً اكررها) فابذل لها كل مساعدة، واذا لزمها المال، وكنت

انت على غير سعة ، فارسل لي تلغرافاً ، فليس بكثير علينا ان نبيع سقف البيت لاسعاف ابنة الذي اقتلع بلاط داره فاعاننا في ساعة الضيق.

وركضت الى فؤاد الحوري اذيع عليه الخبر واستودعه اذ عزمت على السفر حالاً الى « ايلوكون » فودعني واستوقفني متسائلاً من اين لي اجرة سيارة ، فلقد اعماني الفرح عن رؤية بؤسي ، وتذكرت ان جيبي اطهر من قلوب القديسين . غير اني غني بالاصدقاء فصحبت احدهم الى مصرف وامضينا ورقة وخرجت بمائتي دولار وتلفنت الى صديق آخر فارسل لي سيارته الفخمة ، واصلحت من شأني ، وطفت حوانيت المدينة فانتقيت اجمل علبة من شوكولاته « نستله» وملأت جيوبي من الشوكولاته ايضاً ، وغادرت « مانيلا » ميمما « ايلوكون » وفي يدي اسم زوج « جميلة » وفي قلبي موجة من السرور .

والرجل في المدينة نملة في وكر نمل . فما برحنا العاصمة حتى صرت اضخم واعظم ، وصار ما حولي يصغر . فمن بلدة صغيرة ، الى قرية ، الى ضاحية ، وكنا كلما توغلنا في الطريق كلما عظم شأننا وحقرما حف بنا . وانا ساه ، حالم ، لا ارى الا جميلة ، طفلة في قميص النوم البيضاء تركض الى ابي حافية بقدمين صغيرتين حمراوين ، تصفقان على ذلك البلاط ، وتنادي « شكولاته » . ثم ارى نفسي حاملاً « الشكولاته » من بيتنا فيلقاني « فرانسوا » ويقنعني بان اقتسمها معه . ساخبر جميلة بتلك القصة . ساعترف لها باني كنت لصاً . ساقبلها واناديها « يا اختي » . ساعانق زوجها . بل ساداعبها واتظاهر باني بائع شكولاته .

واحاول ان اتصورها امرأة او فتاة فيعصاني الخيال ولا اراها الا طفلة .

ووصلنا البلدة وهي صغيرة غير انها آهلة ، ضجاجة الاسواق ، اذ ان فرقة من الجيش الاميركي عسكرت في ضواحيها ، فسألت اول من لقيته عن العنوان الذي في يدي ، فدلني على البيت حالاً وابتسم .

ووقفت السيارة امام البيت فقفزت الى الباب وقرعته بشدة كصاحب الدار اذا عاد اليها ، فجاءت خادمة ودعتني الى البهو تواً حيث لقيت امرأة متقدمة في العمر ، ضخمة تتكلم الانكليزية ، بلدغة روسية ، قلت في نفسي لعلها حماة « جميلة » فمواطنونا حريصون على انتقاء ما يأكلون وما يلبسون ، غير انهم ليسوا شديدي العناية في اختيار من يتزوجون . ولقد امرفت السيدة بالترحاب بي وانهالت عليّ بصوب من الاسئلة ، فلما علمت اني لجميلة مواطن ، التفتت نحو غرفة تلاصق البهو وصاحت « جميلة » ان بيننا ضيفاً هو لك مواطن . وسألتني بلطف ان كنت ارغب في اكل او شرب ، فاعتذرت فالحت وقالت « دعني آتيك بكأس من شمبانيا . شمبانيا ؟ ها انا ساجتمع بجميلة بعد هنيهة وهذه جيبي امتلأت بالشكونه ، وبين يدي منها صندوق هوذا الايام قد عدلت فسهّلت لي ان أني معروف سليم بك ملك . متى يشرب الرجل شمبانيا ، اذا لم يشربه في ساعة كهذه ؟!؟ « اني لأشكرك على كأس شمبانيا يا سنيوره ».

واطلق المدام لساني ، فرحت اتحدث لمضيفتي بنشوة وحماسة ، وكان النهار حاراً والشمبانيا حامية فتجمّر وجهي وتوترت اعصابي .

واخيراً سمعت حركة في غرفة « جميلة » فخفق قلبي ، وانفتح الباب ، فتطلعت فاذا بضابط اميركي خرج من الغرفة مسرعاً ، مغطياً وجهه بمنديل ، واطلّت جميلة ، امرأة ضخمة منفوخة ، متبذلة العهر تلبس فوق جلدها قميصاً ارق من خيال جبران خليل جبران . فغمزتني ضاحكة خشنة

« مواطن ؟؟! لعلك جئت « تبترد » في هذا الحر المحرق » .

فقفزت من مقعدي وتدحرجت على سلم البيت الى السيارة ، وصحت بالسائق « الى مانيلا » واصبت بالعمى وبالصمم فلم اسمع صراخ استغاثة المرأة الضخمة من نافذة البيت الذي تركته . ولم اسمع صفارة عسكرية . ولم ارَ البوليس يقترب . ولم اتفهم كلامه حتى اعاده مراراً ففطنت الى قوله « ان صاحبة الماخورة تدعي انك شربت كاس شمبانيا ولم تدفع ثمنه . فمددت يدي الى جيبي ونقدته — حفنة شكولاته — « اصاحبك معتوه ؟ » استفهم البوليس من سائق السيارة الفخمة التي انا فيها .

* * *

حتى اليوم ، فؤاد الخوري ، لا يدري لماذا ابوح له بكل اموري واتشدد بالكتمان عما جرى في سفرتي الى « ايلوكون » وامس اخذت رسالة من اخي في بيروت في ذيلها هذه الحاشية قرأتها على فؤاد .

« ان ابي قد قطع عنك رسائله وهو يريدني على ان اخبرك ان سكوتك وتهاملك عن زيارة « جميلة » هو نكران للجميل وهو يريدك ان تفهم انه اذا كان طلب الدولار في المهجر قد حجّر عواطفكم ، فالدنيا في ضياع لبنان الفقير ، لا تزال مروءة وشرفاً — قرضه ووفا ».

***

وضحك فؤاد .

ولم اضحك انا .

حلم البولفار

•

رأيت معدماً يأكل قملة من جوعه ، وأبصرت أمّا تَشهد كلاب البحر تنهش طفلتها حية إذ سقطت من باخرة، وتطلعت الى أبوين يريان اطفالهما يحترقون في بناية تلتهب ، ولكني لم أر شخصاً أحق بالشفقة من ذلك الذي يقرأ الجريدة من أولها الى آخرها .

إذ ان قراءة كل كلمات الجريدة تدل على عزلة عاطفية وجفاف روحي، وفقر عقلي . كجائع يأكل كل ما يُقدم له ، او غريب في حمّارة يشارب أيّاً يلقاه ، وكمغفل يستطيب التحدث الى أيّ من فتح فمه.

اما فهد سرحان فقد كان جالساً على مقعد خشبي في « البولفار » لا يقرأ جريدة بل يعيد قراءة الجريدة ، وأوجع من هذا ان الصحيفة كانت تحمل تاريخ اليوم السابق ، وافجع من كل هذا ان فهد سرحان ما كان ليقرأ تلك الصحيفة لو لم يجدها مطروحة على « البولفار » لعلها كانت لفافة سندويش ، طرحها من أكل السندويش فمن اين لفهد ثمن صحيفة في هذه الايام ؟! فهد الجالس على المقعد الخشبي في « بولفار » مدينة « مانيلا » كان افقر من جرذ الصحراء ، فلا تخدعنّك انافة ثيابه فهذه اشتراها يوم كان يدير محل ابناء اخيه : ابراهيم، ومالك، ونجيب سرحان في مدينة «ماسباتي» البعيدة عن « مانيلا » . ولقد جرى بينه وبين ابناء اخيه — والمحل مسجل

باسمهم – عراك فطردوه ، فجاء الى « مانيلا » يبتغي عملاً او اسعافاً ممن ظنهم اصدقاءه من المواطنين ابناء العرب فأعرض هؤلاء عنه . مضى زمن كان فيه فهد سرحان ينزل « مانيلا » فتولم له الولائم ، وتُدق له «الكبة» وتغتصب له القهقهات على تلك القصص التي ما زال يكرر سردها من يوم وصل الى « مانيلا » عام ١٨٩٨ . إذ ماذا يريد منه ابنـــاء العرب اليوم وليس في جيبه ثمن ثوب جوخ وليس في وسعه شراء دزينة برانيط، وابراهيم قد كتب الى المواطنين جميعاً ان من يمدّ يده باسعاف الى عمه فهـد ، فهو عدو لابراهيم ، ومالك ، ونجيب سرحان ، يقطعون الشراء منه ، وهؤلاء هم ذوو شأن في التجارة . وفوق هذا فقد كان فهد ثقيل الظل موحـــد الحديث، وجاء بقصة عن ابناء اخيه يفتتحها بـ : يا ليت أخي خلّف سعدانا، وحملاً ، وضبعاً ، ولم يخلف ابراهيم ، ومالك ، ونجيب : ثم يقص عليك كيف غدر به ابناء اخيه ، ويختمها « الله يعمق مرقدك يا اخي على هؤلاء الابناء الذين انجبتهم » ويكرر حوادث لؤم مضطهديه ، ونـــذالة هو ، ودناءتهم ومروءته – ومن روى عليك قصة هو بطلها ، وخصمه نذلهـا ، فاعلم ان الرواية كاذبة يقصها كاذب – ثم يخلط فهد عربيته الجبلية ، باسبنيولية مكسرة سمجة يحسبها قاموسية لبقة ، فلا عجب إن تجنبه من يعرفه وصاروا يتمشون على الجانب المقابل من « البولفار » ويعرضون عنه .

لذلك راح فهد بعيد قراءة الجريدة من جديـد . وكان مشهد مغيب الشمس رائعاً يسحر ، فلم يأبه له، وكان البحر على خطوات منه فلم يبصره، وقطع الاسطول الاميركي مراسيه على بعد مئة متر فلم يكترث به ، والناس زرافات ، وضحكات ، وفهد لا يتطلع ، وحرارة الطقس مخدرة ، والجو ساكن فلا نسمة ولا هينمة ، وفهد يلتهم حروف الصحيفة مشدوهاً الى أن

عثر بصره بسطرين ، فانتفض كأنما قرأ ان نمرة يانصيب يحملها قد ربحت ، اما الخبر الذي هزّه ، وجمر وجهه ، وألهب بالاحمرار أنفه حتى لتكاد أن تشعل به سيكارة وهو :

« اخبر الطيار « جونسون » انه في طيرانه الى « مانيلا » لاحظ أن البركان « مايون » تعلوه غيوم لعلها بخار حمم . وأثبت هذا الظن برقية من مدينة « ماسباتي» ان ارتعاشات ارضية هزّت المدينة في اليومين السابقين، فقد يكون البركان ثار من جديد ». فتنهد فهد ، وحدّث نفسه ، أن الأقدار ستنتقم له وراح يحلم : مدينة « ماسباتي » تعشش في سفح جبل البركان مايون ، البركان الهادي الذي تحدث كتب التاريخ انه طمس المدينة مرتين في الجيل الغابر . بلى ، فهذا البركان سيثور ، وتسيل حممه أنهاراً على « ماسباتي » هوذا اللئيم ابراهيم يمشي في سوق المدينة متبختراً فتطوف الحمم . ها هو ابرهيم يكابدها ويحاول الهرب منها فتغمره بنيرانها السائلة وتسلقه . ابرهيم مات مسلوقاً . لعل النار ليست من الحماوة بحيث تقتله بسرعة ، بل تعذبه على مهل حتى تميته. آه ما اجمل منظر ابرهيم يطفو ويغطس في نار سائلة .اما مالك – مالك عابد الدولار – فقد فاجأته الهزة وهو يعد الفلوس ليحملها ويودعها البنك . ها هو قد فرغ من عدّ الألف الاول ، وبدأ بالثاني . فاذا بالارض ترجف... وتميد... وتميد ...ومالك قابض على كدسات الدولارات . ليهنأ بالدولارات (وهنا قهقه فهد) فالبناية تهدمت على رأسه . لا لم تصب رأسه ، بل سجنته بين انقاضها، فهو سيموت بعد يومين ، يموت مفتح العينين عالماً ان الدولارات لن تُنقد له في البنك . هو يصرخ ويستنجد ....مت على مهلك يا مالك .

بقي من الاخوة الثلاثة ، مضطهديه، اصغرهم ، وألأمهم نجيب. كيف

يموت نجيب ؟ ينقطع شريط الكهرباء عليه فيقتله ؟! لا . هذه ميتة سريعة ، لا تطفي الحقد في قلب فهد .اذن فنجيب يتنزه في ضاحية مدينة «ماسباني» وفي ضاحية المدينة تكوّم هضبات الاقذار . ولكم تقزّز نجيب ،المتعنت الانيق، من رؤيةالاقذار ، بل لكم صاح « أما آن لادارة الصحة انتنظف المدينة من هذا المنظر ؟ بل هو يتنزه في الضاحية . الارض مادت والعياذ بالله ، وها هو نجيب بين كوم الاقذار النتنة كلما حاول التماص ، غطس . مكانك نجيب ! ستنظف دائرة الصحة المدينة من بعدك يا « حبيب » عمك.

وكان فريد يحلم بهذا ويقهقه والناس يمرون به ويبتسمون . ونسي فهد جوعه وبؤسه ، وتطلع الى البحر فأبصر دارعة اميركية رفعت مرساتها واقتربت من الشاطىء ثم تثاءب نشواناً بحلمه ومدّ ذراعه الى خلف المقعد، بحيث انقلب رأسه وكاد شعره يمس الارض فداخ وتطلع الى البناية خلفه بنظرة المقلوب فأبصر انوارها ترقص وتكاد ترتطم ، وكأن الارض تسبح تحت قدميه ، وكأنه سمع اصوات استغاثة . لعل جوعه وحلمه أوحيا اليه هذا الشعور ، فجلس الى المقعد دائخاً ، ففاجأته المياه بل جذبته في تيار نحو تلك الدارعة التي كانت تقترب ، ودار حول الدارعة سابحاً بحيث حملقت به رفاصات ،كل واحد منها ذو ثلاث شفرات قاطعة هائلة .ولم يدر الا والتيار يدفعه الى رفاص الدارعة ،انهحلم حلمه معكوساً.وان الهزة التي اشتهاها لـ « ماسباني » قد نزلت بـ « مانيلا » !

عن سجلّ البوليس :

« ان الـ ٧١٦ جثة التي وُجدت بعد الهزة الارضية التي هدمت«مانيلا» في الاسبوع الماضي عُرفت اسماؤها ، ولم يبق لغزاً الا الجثة التي وُجدت على شاطىء البولفار مقطوعة الرأس كأنها فُصلت عن رأسها بمقصلة .

الشيخ عجاج

في ١٣ اوغست عام ١٨٩٩ حطم الاميرال «ديوي» باسطوله الاميركي، اسطول اسبانيا ، في معركة بحرية على شواطىء مدينة « مانيلا »،وزرع الراية الاميركية ، حيث اقتلع العلم الاسباني .

وفي ١٣ اوغست عام ١٩٣٩ كانت مدينة مانيلا تلبس اثواب الكرنفال، تعيّد يوم ظفر الاميرال « ديوي » ، وكان يدخل « مانيلا » عن طريق مرفأها شخص يتبختر مزبطراً ، تحسبه الاميرال « ديوي » تقمّص وجاء يشهد العيد الذي يقام من اجله، ويتذكر ذلك الفتح الذي سجلته للدنيا في تاريخها .

ولو ان احداً هزّ عن نفس الشيخ «عجاج جاد الله» اسرارها،لاكتشف ان الشيخ عجاج ، المتبختر المزبطرّ على رصيف مرفأ « مانيلا » ، يحسب نفسه ارفع منزلة من الاميرال « ديوي » ، كيف لا ، وهو من مشايخ جاد الله زعماء قرية « سحتوف » ، اللبنانية — منهم الشيخ فرهود العباس جاد الله الذي خنق النمر بيديه ، ومنهم الشيخ حسّون اسعد جادالله الذي هزم جيش نابليون في عكا ، ومنهم الفارس الشيخ هوّاش جـــاد الله من

برّح العطش بفرسه ، واعياه الماء ، ففتح وريد زنده وسقاها دمه ،ومنهم الشيخ جاد الله جاد الله ، الذي جاءه بيروتي يبغي شراء قطعة من اراضيه ليبتني فيها « هوتال » ، فصاح به الشيخ جـاد الله جاد الله ان كل اموال بيروت لا تشتري شعرة من ذنب بقرة مشايخ جاد الله – تلك البقرة التي ماتت في العام الفائت ، وانه في وسعه ان يقتلع بيروت بنفخة ، ويطحنها بضربة ، ويفرقها ببصقة ، ويلعن دين المال الذي جرّ خواجات بيروت على وقاحة محاولة شراء املاك مشايخ لبنان .

وشيخنا عجاج لم يأت « مانيلا » سائحاً ولا فاتحاً ، فهو قد هجر لبنان حين تغيرت الدنيا واثرى ابناء « العامة » ، والمشايخ قلّ احترامهم . وحان زمن دفع الرهن عن املاكه ، فهجر لبنان الى اوستراليا ، حيث اكثرُ اولاد العرب من البيارتة الذين للمشايخ لا يقيمون وزنـــاً ، ولا يعرفون عن بني جاد الله تاريخهم المجيد ، ولقد ضايق الشيخ عجاج هزؤهم به وهدّمه الفقر فركب باخرة الى حيث لا يـــدري ، فلما القت مراسيها في « مانيلا » جاء القبطان وقال ان تذكرتك توصلك الى هـذه المدينة ، وبخاطرك يا « صاحب الجلالة » بلى لقد لقبه ركاب ذلك البابور بـ « صاحب الجلالة » فقد كان الشيخ عجاج في مثينه ، وحديثه ، وركزته كانه لا يزال الشيخ عجاج جاد الله يتحدث الى العامة في قرية « سحتوف »

واحتمل صرّة ثيابه والمحدر من المركب فصاح به احدهم هازئاً « اما تبغي حمّالين لينقلوا حقائبك ؟ » اما سواقو « التكسي » فعلموا من زريّ ثيابه انه من « رأسماليّ البور » وهو لقب يطلقونه في الشرق الاقصى على البيض المعدمين الذين يقتاتون من فضلات موائد البواخر الراسية .

ومشى عجاج ينظر الى الزين ، والى اسم « ديوي » يبرق في كل مكان

« من هو هذا الاميرال ديوي »؟تساءل الشيخ؟ لعله من « عامة » الاميركان المحظوظين . حظه طيّب ان كان وراءه اسطول وبحّارة . اعط مشايخ جاد الله اسطولاً وبحارة ، تر الدنيا اي مدن يفتتحون، وقطع على الشيخ عجاج تخيلاته جوع بدأ ينهشه، وارهفت شهيته رؤية المطاعم تحفل بالمآكل والآكلين ، وراح يطوف في المدينة ، واكثرها مقفل ، الى ان زلق الى الشارع الكبير حيث الانوار والمخازن الكبرى ، فاخذ يشبع نظره برؤية التحف ، والبضائع، الى ان وقف نظره عند مخزن عظيم مفتوح الابواب، فحدّث نفسه ان حوانيت المدينة اذا قيست بهذا المخزن العظيم كعامة « سحتوف » ازاء مشائخ جاد الله . ولقد اعجبه هذا التشبيه فمشى نحو المخزن تتعجل خطاه حاسة غريبة فهمها حين رفع نظره الى الآرمة فقرأ « حسيب نبهان » . ترى أهو من بيت نبهان « السحاتفة » ؟! وتطلع في المخزن فراعه المنظر – حرائر ، وجواهر ، ومرايا . وتحف ككنوز الف ليلة وليلة . ومستخدمون في أبهة كأنهم حاشية ملك . ولكن الشيخ لا يروعه شيء فاستعاد صوابه بعد دهشة المفاجأة ودخل المخزن ، ونقل قدميه على ذلك البلاط الملوّن ، فعاجله ضبع انساني وصاح به يريد طرده قائلاً ان صاحب المحل ليس هناك . وهذه العبارة يطردون بها الشحاذين البيض . فيبس الشيخ في ارضه وطار صوابه ، ولم يدر ماذا يفعل ، ولكن صوتاً كبوق دوى من داخل المحل انتهر الخادم بالاسبنيولية ، فتطلع الشيخ عجاج الى مصدر الصوت ، فاذا صلعة تتحرك صعداً ، تبعها عينان كمصباح اوتومبيل ، ثم ظهر شاربان كعصا الناطور ، وانفتح فم عن كلام عربي « لعلّك ابن عرب يا ابني ؟ » وكان ذلك الكلام بلهجة لبنانية عليها طابع « سحتوف » . فطافت الثقة على نفس الشيخ عجاج ،

وجد مكانه ، بل شمخ وصاح كأنه يذيع « نحن ملك انكلترا وامبراطور الهند » ، وقال « انا الشيخ عجاج جاد الله » . اما صاحب الصلعة – حسيب نبهان – فبهت ، وضرب بكفه جبهته المجعّدة ، فكأنه لمس زراً كهربائياً غير منظور ، فشعّ مصباح انار ظلمة ماض بعيد ، اذ قفزت السنون القهقرى ، فاذا هو غلام في ضيعة « سحتوف » وابوه ناطور الضيعة ، واذا هو ذات يوم يلعب في « ساحة المشايخ » – مشايخ جاد الله . فيداهمه الشيخ عباس جاد الله بصيحة « الا تعرف ان ابناء العامة لا يلعبون في ساحات المشائخ » . ويتناول الشيخ عباس حجراً ويقذفه به ، فيصيب جبين حسيب نبهان ، ومرّ حسيب يده على تجاعيد جبينه من جديد ، فاذا بينها واد هو اثر جرح حجر الشيخ عباس ، فيه اختبأ الزر الكهربائي غير المنظور . وها هو ابن الشيخ عباس يطرد من مخزن حسيب نبهان ، وها هو حسيب نبهان في مخزن كعلم اليهودي ، بضاعة ، وبيعاً ، وزبائن ، وها هي اربعون سنة مضت على الغلام الجريح . ودارت الدنيا بحسيب واختلطت في نفسه العواطف من خيلاء بنجاح اصابه وعطف على فتى فقير ، واحترام لمشيخة نشأ على تبجيلها ، ومروءة نحو شيخ منكوب ، وحنين الى وطن كادت تطمس ذكراه السنون ، فداخ وما استفاق ، الا حين سمع الشيخ يتنحنح وهو مازال منتصباً في مكانه ، فوثب حسيب الى باقته فلبسها ، وطوّق عنقه بربطة رقبة ، ثم تناول سترته من الحائط فادخل في كميها ذراعين غليظين كجسرين ، واهوى على حذائه فشدّه ، وتقدم بكل خشوع الى الشيخ عجاج وانحنى مسلماً « كيف حال جنابك يا سيدنا الشيخ عجاج ؟ » . اي موسيقى كانت تلك الكلمات في اذني الشيخ التائه . بارك الله في هذه المدينة حيث يعرفون القاب الناس ،

ومقامات الناس ، ولعن الله اوستراليا حيث لا يعرفون مراكز الرجال . وتمهّل الشيخ عجاج بالجواب قائلا « انت من بيت نبهان ؟ بيت نبهان في سحتوف يخصونا . » — بيت نبهان محاسيبكم يا سيدنا الشيخ . شرف الى الداخل يا شيخ عجاج .

وادار الشيخ بصره في المحل فاكتشف شيئاً لم يظهر له من الخارج وهو ان ذلك المخزن ذو اربع طوابق ، وان البناية التي تأويه تحمل اسم « حسيب نبهان » فهي ملكه . وساد على الاثنين سكون حتى فتح الشيخ فمه واحسن الى صاحب المخزن بهذا السؤال « ابوك كان ناطور املاكنا؟»

— ابي كان ناطور املاك جنابكم يا سيدنا الشيخ .

ولقد يتلطف حسيب بالحديث ، وينحني للمشيخة ، ولكن ذلك الأمي العصامي ، ابن الناطور ، الذي جاء « مانيلا » وليس في جيبه الباسبور ، والذي يملك الآن اكبر مخزن وينشر اسمه على عـــدة بنـايات ، ليس بالابله ، فما ان حدّث شيخه دقائق حتى عرف حقيقة امر الشيخ عجاج ، والى اي فقر وبؤس انتهى . فدار حسيب بضيفه في مناورة كلامية فحمله ان يتنازل فيسأل ابن الناطور عن حالة التجارة ، فاسرع هذا فاشتكى وتذمر من عطل الحال وتوقف الاشغال ، وشدة المضاربة . فاجفل الشيخ وحسب ان محدثه بدأ يهيء المعاذير عن اسعافه . ولكنه استعاد روعه اذ سمع حسيباً يرجوه ان « يشتري » شيئاً من المخزن يقيدعليه « بالحساب». وطاف التاجر بذلك « الزبون » — الشيخ « فباعه » بضع بدلات وقمصان واحـذية ، ومناديل ، وكلسات ، وناداى الكاتب ان يفتح حساباً باسم الشيخ عجاج جادالله ، ويقيد عليه ثمن كل ما اشتراه . وشكر الشيخ على تلك الشروة اذ لولاها لكان نهار التاجر حسيب نبهان نهاراً كاسداً . ثم

شردت بها الاحاديث فافهم حسيب شيخه بلطف ، انه بسبب عطل الحال وعسر توظيف المال فقد فاض النقد بين يديه ، والبنك لا يدفع له على فلوسه فائظاً الا اثنين بالمئة ، وان الشيخ ليحسن الى حسيب اذا استدان منه كم مئة ريال بفائظ احسن من ٢ بالمئة . فاطرق الشيخ عجاج مفكراً وقال لا بأس ، هات خمسماية دولار ، واعمل بها كمبيالة لسنة ، فائظ بالمئة تسعة . فتظاهر حسيب بالفرح ، ووثب الى صندوقه وانتزع منه المبلغ المرقوم ، ونقده للشيخ شاكراً له الاعانة على توظيف المال ، مذكراً اياه ان مشايخ جادالله كانوا دائماً يعطفون على محاسيبهم بيت نبهان . فلاعجب اذا تنازل الشيخ عجاج فاسعف محسوبه ابن نبهـــان ، بأن اشترى منه واستدان !.

وحانت ساعة الانصراف ، فاقفلوا المخزن ، وخرج منه المستخدمون بالعشرات ، وجاءت سيارة حسيب ففتح السائق بابهـــا ، فاشار حسيب للشيخ ان « شرّف جنابك » فصعد الشيخ وجلس الى اليمين ، وطافت بهما السيارة ، وحسيب يدل رفيقه على فنادق المدينة ، ثم يقول « ليس من اللائق ان تنزلوا جنابكم في فندق يؤمه اي من الاغراب . ان منزلي على حقارته افضل لايواء جنابكم من اي فندق . وانتهى التجوال فوقفت السيارة امام منزل ابن الناطور ، فاذا هو قصر تحيط به الحدائق ، وفيـه اسطبلات الخيول ، والاوتوموبيلات ، والبحيرات الاصطناعية ، وكل مظاهر الثروة والبذخ . واذا بالجنينة التي تحيط به اوسع من كل املاك قرية « سحتوف » . غير ان الشيخ شيئاً من هذا لم ير . فكل ما يعرف عن الدنيا انه « شيخ » وان ابن العامة قد يغتني ، وقد يتثقف ، وقد يفتتح ، وقد يظفر ، ولكن الله خلقه من العامة ، لابن المشايخ تابعا . اذاً فعيون

من تبهر هذة الجنائن والمخازن ، والخدم ؟ هكذا مرت الحياة على الشيخ عجاج ومضيفه . اذا الشيخ اعوزه المال « استدان » من حسيب ، واذا احتاج ملابس وحاجيات « اشترى » من المخزن .

وفي « مانيلا » نحو مئة من « ابناء العرب » كلهم يحبون حسيب نبهان ويحتاجونه ، ولقد رأوه يحترم الشيخ عجاج باخلاص وعطف ، فاظهروا لعجاج الاحترام ، ومشيخوه . غير انهم فيما بينهم كانوا يتساءلون ان لم يكن في دماغ ذلك « الشيخ » مس من الجنون ، حتى له الى بلاد الغربة عظمة موهومة جوفاء ، ولولا احترامهم لحسيب لتساءلوا ايضاً ان لم يكن هذا باكثر من « الشيخ » جنونا اذ هو يثبت في دماغ الابله عجاج الاعتقاد بتلك العظمة الخيالية .

*

اما حسيب نبهان فلم يمر به في سنين غربته الطوال اجمل من ضيافة الشيخ عجاج فلقد عاش في عالم جديد من ذكريات ، تتدافعه تيارات من العواطف متناقضة ، لا يدركها الا انها في مجموعها تترك في نفسه سكرة عاطفية لا يفهمها .

*

في تلك السنة اقامت حكومة جزائر الفلبين في العاصمة — مانيلا — يا نصيباً عالمياً وقفت نصف ريعه على جمعيات الاحسان ، وجعلت الجائزة الاولى ربع مليون دولار . فاقبل الناس على الشراء طمعاً بالربح ،وعطفاً على جمعيات الاحسان ، وطفقت تلك الجمعيات تحمل على التجار بجيش من بياعين لتصريف اوراق اليانصيب ، وكان من الطبيعي ان ينصب على حسيب نبهان صوب من اوراق اليانصيب من زبائنه واصدقائه ، وكان

حسيب سخياً بالشراء كريماً بالعطاء ، يشتري هذه الاوراق ويوزعها مجانا على اصدقائه . وفي ذات يوم تقدم ضيفه وقال « تكرم واقبل هذه الورقة هدية يا شيخ عجاج ، فتطلع هذا بتلك الورقة الزرقاء وقرأ ، « الجائزة الاولى ٢٥٠،٠٠٠ دولار . نمرو ٧١٢٥٣٧ فجمع هذا الارقام فاذا هي — ٢٥ . بلى لقد كان في اسطبل جده الشيخ فرهود ٢٥ فرساً اصيلة . فتفاءل بتلك الصدفة . « ستربح هذه النمرة » حدث نفسه ثم تمتم « شكرا يا حسيب » . وخرج الى الشارع ، فاشترى عشر نمر ودفع ثمنها من محفظة جلبى ، اذ كان قد « استدان » مبلغاً في ذلك الصباح . ورجع الى حسيب فناوله الاوراق العشر قائلا في نفسه : هكذا اعلم العامة كرم المشائخ »

*

وجاء يوم السحب وازدحمت الالوف في ميدان سباق الخيل ، تتواثب في صدورها الامال ، وتنطلق من حناجرها الصيحات ، وكان بين تلك الالوف شخص هادىء كأنه في عرس بين عامة « سحتوف » ينتصر المجلس وينتظر ان تقدم له القهوة والحلويات . وركضت الخيول ، وجاءت لجنة القضاء ، ووقفوا ازاء طبل فولاذي فيه مئات الوف من كروات طبعت عليها النمر . وتقدمت ممرضة من الطبل فكبست زراً كهربائياً فدار الطبل ، ووقفت منه كرة فحصها القضاة . فسكتت الجماهير ، في رهبة ، ووقف قاض امام المكروفون فقرأ النمرة الرابحة ٧١٢٥٣٧ ورفعت راية عليها النمرة الرابحة - ٧١٢٥٣٧ ، وانتشل الشيخ عجاج الورقة الزرقاء من جيبه وفرك عينيه وقرأ ٧١٢٥٣٧ — مئتين وخمسين الف دولار ، قصر في « سحتوف » وقصر في بيروت — خدم

وحشم وخيول ونيـــابة في مجلس بيروت . ستزوره الامراء، ويستقبله الجبليون بالحدا والقواس . غريب كيف تهبط الثروة على الشيخ عجاج جاد الله فلا يخفق قلبه ، ولا يحمرّ وجهه ، ولا يرتجف صوته . وفجأة لمعت عيناه ، وشعّ منهما نور غريب . « مشايخ جاد الله » فكّر الشيخ « بنوا مجدهم على السيف ، والكرم ، والبأس ، والمروءات ، أ أوسّخ اسمهم بمال جاء عن طريق اليانصيب ، من ورقة اعطانيها ابن العامّة ؟! مئتين وخمسين الف دولار ؟! هاه !! ما هذا المبلـــغ التافه . ابن ناطورنا عنده اكثر منه . سيركبنا عار اليانصيب الى الابد . سينقطع الناس عن الاشادة بذكر مشايخ جاد الله ، ويلقبوننا « ببيت بو يانصيب » كما لقبوا مشايخ « ابو راضي » ببيت « ابو كبريت » . وتاهت نظرات الشيخ عجاج واهتز جسده ، وسال الدم من انفه فصبغ شفتيه . ووقف على كرسيه ، كمن يرتقي منبراً ، وصاح في الناس خاطباً بالعربية : « ايها النـــاس ، جدي خنق النمر بكفيه ، جدي هزم نابليون ، جدي سقى فرسه من دمه ، جدي اغرق بيروت ببصقة ، وها انا امزق الورقة الرابحة ، فاشهدوا على أنفة مشايخ جاد الله يا اهل الله » . وتناول الورقة الرابحة فمزّقها ورمى بقطعها ونزل عن كرسيه . اما الناس فكانوا في هستيريا ايضاً إذ ان القضاة كانوا يذيعون النمر الرابحة ، — الجائزة الثانية ، مئة الف دولار ، الثالثة .... والجماهير في هياج وصياح ، فمن يصغي الى الخطب العربيـة في جمهور لا يعرف العربية . وكأن الشيخ عجاج توقع ان يحمله الجمهور على الاكتاف ، ويهللوا له بالحدا « يا شيخنا ، يا شيخ عجاج » . فلما رأى انه لم يكترث به احد خنق ، وراح الى بيت حسيب نبهان ذلك الذي يعرف مقـــام الرجال وقدرها .

ودخل قصر حسيب كأنه زوبعة ، وكان هذا في المطبخ يلقي عـــلى الطباخ درساً في علم تحضير صحن « حمص بطحينه » ، فهجم عليه الشيـخ وصاح « أتذكر ورقة اليانصيب التي قدمتها لي » ؟ اجاب حسيب « لقـد تكرّمت علي بعشرة يا شيخنا » . قال « ليس هذا هو الذي اقصد. أتذكر ان نمرتها ٧١٢٥٣٧ ؟ » اجاب حسيب « ربمـا . ولكني لا اذكر النمرة فقد كان بين يديّ منها مئات » . صاح الشيخ عجاج « لا بأس إن انت لم تذكر النمر . إعلم انها ربحت ، وانني مزقت التذكرة » وارتقى كرسياً في المطبخ وخطب « ان امجاد مشايخ جاد الله لا تبنى على اليـــانصيب . أفهمت ؟ ليفرح العامة والسوقة بمال يقذف في وجوههم ، امـــا نحن ، فبالسيف ، والبأس نبني . أفهمت ؟ »

اما حسيب فـكان كل همه في تلك الساعة ان يتعلم طباخه صنع صحن « الحمص بطحينه » . فبقي ساكتاً ولكنه تحقق حينئذ ان الشيخ عجـاج مجنون من صحيح . وطبعاً لم يصدق خبر تمزيق ورقة اليانصيب .

*

مرّت شهور خمسة ولم يتقدم احد بورقة اليانصيب الرابحـــة لقبض الجائزة من الحكومة . والقانون ينص على ان الجائزة تتحول الى صندوق الحكومة إن لم يظهر حامل التذكرة الرابحة خلال ستـة اشهر . ولقـد كثرت التقولات في آخر الأمر إذ ادعى مئات أن الورقة كانت في حوزتهم وضاعت ، وجاؤوا بشهود وبينات وزوّر اناس آخرون تذاكـر رابحة ، ولكن اخصائي الحكومة اكتشفوا امرهم ، وفي آخر يوم من السنة اشهر طلع صحافي شاطر على قرائه بأعمدة ثمانية يخبرهم فيها كيف ان مثرياً عظيماً أسرّ اليه ان النمرة الرابحة في حوزته ، وانه لا يرى من اللائق ان يستأثر

بتلك الثروة الصغيرة وهو صاحب ثروة كبرى ، وانه يؤثر ان يبقى امره مكتوماً وان يعرفه الناس باسم « المحسن المجهول » ، وانه يرجو الحكومة ان تبني بالمبلغ مستشفى . وزاد الصحافي بان اقترح ان يكون ذلك المستشفى للمجانين ، إذ زعم ان من يرفض ثروة ٢٥٠،٠٠٠ دولار ، غنيّاً كان ام فقيراً ، لهو مجنون بلا ريب .

*

ولقد استأثرت الحكومة بالمبلغ وشادت مستشفى دعتـــه « مستشفى المحسن المجهول » ، وخصصته باصحاب الامراض العقلية من مجانين ومخابيل ومعتوهين .

*

اما حسيب نبهان فلا يزال حتى اليوم صاحب التجارة العظمى وهو في كل يوم احد يحمل الهدايا من مآكل ، ودخان ، ويذهب الى « مستشفى المحسن المجهول فيطلب مقابلة نمرو ٧١٣ فيدخل الغرفة ويقول « صباح الخير يا سيدنا الشيخ عجاج » فيرد هذا « اهلاً بابن الناطور ، هل يعرف الناس ان جدي هزم جيوش نابليون في عكا ، وان جدي سقى فرسه من دمه ، وان جدي اغرق بيروت ببصقـــة ، وانني رميت بوجههم ٢٥٠،٠٠٠ دولار !؟ » .

— انهم يعرفون يا سيدنا الشيخ .

— وماذا فعلوا بالفلوس ؟

— بنوا مستشفى سمّوه باسمكم ، واشار حسيب باصبعه الى الرقعة على رتاج البـاب فقرأ « مستشفى المحسن المجهول — الشيخ عجاج جاد الله . نمرو ٧١٣ » .

فيبتسم الشيخ عجاج زهواً ويسأل عن معنى ٧١٣ ؟

ـ عدد محاسبيكم يا سيدنا الشيخ عجاج .

فيضحك الشيخ ، ويسرغس .

ويدق جرس ، ويصيح صوت « الزوار الى الخارج . انتهى وقت الزيارة » .

فينحني حسيب نبهان ويقول باحترام، سارجع الاحد القادم فاتشرف بسؤال خاطر جنابكم يا سيدنا الشيخ .

التجارة شطارة

●

لو لم يكن في « مانيلا » – عاصمة جزائر الفليبين – رجل اسمه بشاره سكّر، لوجب خلقه. ولو لم يجتمع بشاره في شبابه بروز حلواني، ويتحابا ويتزوجا، لكان على الاقدار ان تجمعهما وتزوجهما ولقـــد اشترك روز وبشاره في الغنى والصحـة والمرض والشقاء، والافلاس وكانا سعيدين. وامتلأ بيتهما اولادا وكثر اصدقاؤهما، ولم يسمع الجيران قط ان بينهما اختلافاً بل كانا مثال الزوجـــين المحبين لولا ... لولاان يكون بشاره من « بكاسين » لبنان، وتكون روز من « بشراي » لبنان. وبكاسين بلدة البطل « ابو سمرا » وبشراي بلدة البطل « يوسف بك كرم » – لولا هذا لما اختلف بشاره وروز على امر من امور الحياة.

فبشاره علق صورة « ابو سمرا » في صدر القاعة وكتب تحتها « بطل لبنان » فعلقت روز صورة « يوسف بك كرم » فوق صورة « ابو سمرا » وخطت « بطل لبنان الوحيد » وكبّر بشاره عنـد المصور صورة بطله، فراحت روز وجعلت من بطلها صورة اكبر. ولا تحسبن الامر كان دعابا، بل كان الجد كل الجد، حتى انقطع اصدقاؤهما عن الحديث عن ابطال لبنان خشية ان يحدث بين الزوجين فتنة.

اما فيما عدا بطولة لبنان ، فقد كان الزوجان « غراما تزوّج » ، حتى لقد كثر اصدقاؤهما واحترمهما الناس . ولقـــد انصرفت روز الى تربية الاولاد ، وادارة المنزل وتدبير امور العائلة . وانفرد بشاره بالتجارة . وكان في كل سنة يسافر الى نيويورك فيشتري من الفبارك « جوب » اي متروكات الفبارك يابخس الاثمان ويبيعها في مانيـلا باسعار فاحشة فيربح ارباحاً طائلة . اما اين هي الثروة التي تجمعت من الربح ، فلاتسأل بشاره عنها . اذ كيف يتسنى لمن صارت جيبه مشاعاً ان يجمع ثروة. بشاره يؤمن الناس ، ويدينهم ويسعفهم ، ويهبهم ويلقى جزاءه في اكثر الاحيان غدراً ونكراناً جميلا . ولكن بشاره لا يكترث ولا يحقد . فما دام في البيت حاجات البيت فهو ضحّاك الوجه . واذا اشتدت عليه الازمة ، وتعقدت الامور ، وحاطته النيران ، اطفأها بكاس وسكي ثمنه نصف ريال . ولكم وعظ في الناس قائلا ، لماذا تحملون الهم ايها النـــاس وفي وسعكم ان تحلوا مشاكل الدنيا وتطردوا هموم العالم بكاس وسكي ثمنه نصف ريال .

ولقد كان من الطبيعي لرجل طيب ، مرح ، سخي ، مثل بشاره سكر ان يكثر اصدقاؤه الخلص ، وغير الخلص ، فاصبح بيته مضافة ، ودكانه مجمع الخلان يقصده المحتاج وغير المحتاج . لذلـــك لم يكن من الغريب ان يتوجه اليه رأساً من البابور ، كل مهاجر قادم « من البلاد » ، حديثاً ويسأله اسعافاً ولقد وصل الى مانيلا ذات يوم ثلاثة مهاجرين هم: حندوش الثعيلبي ، وظطام مغدوش ، ومثقال العياش ، وقصدوا الى محـل بشاره سكر رأساً وبشروه بسلامة الوصول ، واخبروه انهم معدمون يجهلون اللغة ، لغة البلاد الفلبينية ، وانه ليس لهم الا الله وبشاره سكر .

واستمع بشاره اليهم فعلم من لهجتهم انهم من تلك القرى الشاميـة

التي تخضرمت بين البداوة والحضر. ورآهم في حديثهم ووجوههم ، واسمائهم كانهم قفزوا من سطور كتاب « الاغاني » وتردوا اثواب القرن العشرين. فاشار الى مثقال وظطام ان يعاوناه في الحانوت وتطلع الى « حندوش » وقال « وجهك وجه غزو يا بدوي » فساعطيك بضاعة ، فاغز بها بيوت مانيلا ، وأرجع لي رأسمال البضاعة وما تكسبه فهو لك .

ودار بشاره في الدكان يفكر فيما عساه يحمل « حندوش » منها — شيئاً خفيف الوزن ، قد يعود بيعه على « حندوش بالربح الكثير . فوقعت عينه على اطارين مدهبين ، وراح يفتش بين اوراقه يستخبر عن ثمن هذين الاطارين حتى اهتدى الى فاتورة زرقاء من نيويورك .

« ٢ دولار · ثمن اطارين ثمينين » .

وفي اسفل الفاتورة « هـــذا سعر بخس منحناه الى الحواجه بشاره سكرلانه امير » .

وتطلع بشاره بحندوش فقال « ساعطيك هـــذا الاطار وسعره عليّ دولار واحد . احمله وبعه بالسعر الذي تقدر ، وادفع لي دولاراً واحـداً واحتفظ بالربح كله . ومتى ارجعت لي الدولار فسأحملك الاطار الثاني . وهكذا كلما بعت بضاعة ودفعت ثمنها ، حملتك بضاعة .

وحمل حندوش الاطار وانصرف شاكراً .

كان ذلك بعد ظهر يوم سبت . وتكاثرت التلفونات عـــلى بشاره من اصدقائه « يا بشاره غـداً الاحد سنزورك ، يا بشاره غداً طاولة بوكر عندك اعمل لنـا صينية كبه ، يا بشاره نحن غداً ضيوفك » فتلفن بشاره الى زوجته ان اعدي للغد وليمة فنصف سكان المدينة في ضيافتنا هذا الاحد !

— « والفلوس يا بشاره ؟ »

– « سارسل لك مئة دولار مع الغلام » .
– لا . لا ترسلها مع « فلكس » فهو حرامي .
– سأرسلها مع « فلكس » . لن يسرقها . لا تخافي .
وفتح بشاره صندوقه ، وناول فلكس مئة دولار وأمره ان يوصلها للبيت .

*

كان بشاره يقفل حانوته حين اتاه « حندوش » لاهثاً وصاح « بعرضك يا خواجه بشاره ! دخلت على بيت اسبنيولي وبعتهم الاطار بمئة دولار انما لم يدفعوا ثمنه الا اذا اعطيتهم زوج اطارات . حملني الاطار الثاني ويوم الاثنين بعد الظهر ادفع لك الدولارين . لا تخف يا خواجه بشاره ، انا استلمت مزرعة عبد الرحيم بك الحاوي سبع سنوات ولم يتهمني احد باختلاس . اربحني اغناك الله يا بشاره بك . اذ يجب ان اسلم الاطار الثاني في صباح الاثنين باكراً قبل ان تفتح محلك يا خواجه بشاره »

وما زال ببشاره حتى سلمه هذا الاطار وانصرف الى منزله . فلما صعد الدرج لاقته زوجته على عادتها مرحبة وسألته لماذا اقفلت باكراً هذا النهار فقد تلفنت لك مراراً اريد فلوساً .

– فلوس ؟ لعل اللعين « فلكس » لم يوصل لك المئة دولار ؟
– وصلتني المئة دولار . انما انظر .

واشارت الى صورة يوسف بك كرم ، فاذا هي في اطار مذهب ، حملق به بشاره وبلع ريقه .

– اشتريتها من متجول ابن عرب بمئة دولار . الظاهر انه واصل من البلاد حديثاً ، هو حسبني اسبنيولية وانا لم اكلمه بالعربية مخافة ان اجرح عواطفه ، تفاهمنا بالاشاره ، طلب مئة دولار بالاطار فقبلت حالا . مسكين

هيئته جديد في هذه البلاد ، لا يعرف كلمة اسبنيولية .

وبهت بشاره ، ثم احمر وجهه وارتجف صوته . فعانقته روز ، وقالت مراضية « لا تحنق يا حبيبي فقد وعدني ذلك المتجول باطار ثانٍ يأتيني به صباح الاثنين ، اهديه لصورة « ابو سمره » فلا ينكسر خاطرك . وضبط بشاره عواطفه ، وتظاهر بالجـــد وقال : « اتعديني باطار مثله لصورة « ابو سمره » ؟

ـ أعدك يا بشاره ، واحلف بـ « يوسف بك كرم » . انما يلزمني مئة دولار ثانية »

ورجع بشاره الى المحل في طلب الفلوس .

***

اليوم لا تزال الصورتان في اطارين مذهبين جميلين ، ولا يزال بشاره ضحاكاً كثير الاصدقاء . لا يزال يربح ويهب . اما « حندوش » الذي نسي ان يرجع بعـد ظهر الاثنين ليدفـع لبشاره ثمن الاطارين ـ فقد اثرى بسرعة . وهو اليوم في بيروت يركب سيارته الوهاجة الى المقهى فيقص على عشرائه انباء غماره التجاري ...« وكان بدء ربحي اني اشتريت اطارين بدولارين من ابن عرب غبي ، وبعتها بمئـــتي دولار من امرأة اسبنيولية غبية : ولكنـه يغفل ان يـذكر انه « نسي » ان يدفع الدولارين . بل ينفخ دخان اركيلته بالفضاء ويقول : « بلى يا اخوان التجارة شطارة » .

اما روز فهي للان لا تعرف حقيقة امر الاطارين ، امـا بشاره فاذا بلغت في عشرته الى حيث يحدثك حديث الاطارين ، فاعلم انك لم تعـد صديقه بل صرت اخاه .

دون كارلوس

•

في جزائر الفلبين دزينة « اولاد عرب» اود معاشرتهم بقدر ما تستطيب انت النوم في مقبرة – جثث تعيش بدون حياة ، استكانت الى الخيبة ، واعترفت بالفشل من غير مرارة ، ولا تحسّر . واني لاحب الحياة وهاجة ، جموحـــة ، بطرة ، وثابة (صخابة) ثائرة ، ولا يهمني اكان شريبي لصا ، جانياً ، محسناً ، غبياً ، ذكياً ، لئيماً ، بذيئاً ، نبيلا ، بشرط ان اشعر بكهارب القوة تنبعث من محرك نفسه فتنير ما جاوره او تحرق .

اما هؤلاء الحفنة من المواطنين فقد ودعوا الكهولة ، وليس فيهم من لم يصبه حظ فيما مضى . هـــذا كان مثرياً ، وذاك كان صاحب تجارة وذاك ... اما اليوم فكل واحد منهم انطوى عـلى نفسه ، وتقلص في صدفته ، فهذا في مزرعة مكرسكوبية يشتغل حقلا من شجر جوز الهند ، وذلك سردن (١) معه عائلته في غرفة سماها بيتاً واكبر حدث في يومياتهم ان يكتشف احدهم البقال الذي يبيع اللوبيا بارخص ثمن ، والحـانوت الذي تباع فيـه دزينة البيضات بـ ٣٤ سنتيم ، وكيف توفر في اليوم ٤ سنتيمات اذا ركبت التراموايي من الزاوية الفلانية ونزلت منه في الزاوية الفلانية .

(١) نسبة الى السردين . اي حشر .

ولقد يتهمني هؤلاء بالكبرياء اذ انا اجتنب بمشرهم على انهم مخطئون فاني اتقي ان التقي بهم لاكبرا ، ولا عجرفـــة ولكني ارى بهم طيف مستقبل قد ينزل بي فاني اعلم ان اشد انواع السقوط خطراً هو التزحلق الهادىء ، فانا ارى بهم شبح غد قد يجدني مثلهم اسكن غرفـــة حقيرة اكحل عيني برؤية اثواب الجيران المغسلة تنتشر على حبال تحيط بمسكني واشنف اذني بموسيقى اهتزاز الاسرة في الغرف حولي – ترى اتخمد ناري شيئاً فشيئاً حتى يقتصر همي عـــلى ان اكتشف اين تباع دزينة البيضات بـ ٣٤ سنتيم ؟

هؤلاء الناس كانوا فتيانا مثلمـا انا فتى ، واصابوا الغنى ، كما انا اصيبه اليوم ، وانساب بهم الزمن الى الضعة ، فهل ينساب بي ؟ من لي بمن يشرح لهم انني اذ ازورّ عنهم احاول الفرار من طيف مخيف .

لذلك امسكت قلبي بيدي حينما صعدت الى غرفة قبطان البابور عشية ١٧ نيسان سنة ١٩٣٢ وسألته الى اين نحن سائرون اجـاب : يؤسفني اننا لن نمر بمزرعـــة مواطنك « دون كارلوس » فسنمخر رأسا الى « سوجود » ولن نمر على « دون كارلوس » الاّ في السفرة القادمـــة والتفت الى المحك امامه وانتهر ذلك الواقف خلف مقود الباخرة وصاح : « شرق ، شرق ، شمال » فادار الزنجي الدولاب وأجاب « شرق ، شرق ، شمـــال » .

وشعرت ان الباخرة تنحرف بنا فشكرت القبطان وشكرت الحظ الذي ابعد عني خطر الاجـتماع بـ « دون كارلوس » ونزلت الى مضجعي فوق اكياس جوز الهند فنشرت مجلة اميركية ،واحكمت وضع المكتوب الذي وصلني من البلاد ، في الاسبوع الماضي تحت مخدتي ، ورحت اقرأ

الى ان غفوت على هينمة نسيم البحر ، ووشوشة مياهه . الحمد لله لن اجتمع « بدون كارلوس » . وكنت في نومي غارقاً اذ احسست بطوف من المياه يغمرني ، فقفزت شبه حالم فرأيت البحر جبـــالاً ، والباخرة ترقص ، وتميل يميناً ويساراً ، ثم يغطس مقدمها فيغمره الموج ، ثم تنهض متثاقلة ، والركاب في رُعب يصلون،ويشتمون ، وبعضهم اصابه بله وجنون، ومجلتي ومخدتي ورسالتي ، في طيات المياه . فوثبت الى غرفة القبطان وصحت : « ما الخبر ؟ » .

— زوبعة يا سنيور،بل اعصار مفاجيء انظر ... واشار الى البارومتر فرأيت مذعوراً ان الابرة تكاد تلمس درجـــة الخمسين — يا للعياذ بالله — غرق محتم ، وسألت القبطان ، محاولاً الابتسام ، ماذا انت فاعـــل ؟ اجاب « حملق في البحر ، ترانـ جحافل الانواء تندفع في صفوف من ثلاثة امواج ، وبين الثلاثة والثلاثة فترة لحظات هدوء ، اذا اسعفنا الحظ ودرنا بالباخرة خلال ذلك الهدوء بحيث نعكس مسيرنا الى الملجأ هناك ، واشار الى الشاطيء خلفه ، كان لنا امل بالنجاة والا ... اصغ الا تسمع بوق جبريل ؟

واغتصب ضحكة واغتصبت ضحكة . ثم صفر فاقبل عليه عتاليت(١) ثلاثة امرهم ان يتولوا امر الدولاب وان يكونوا على حذر ، فاذا امرهم داروا بمقود الباخرة في عجل فعكسوا سيرها . اما انا فقد رحت اتفرس بالبحر واعجب كيف تستوي الامور في عين الجاهل . فهذه المياه الـــتي كانت منذ هنيهة في نظري « بحراً » فداستحالت الان ، اذ علّمني الخبير ، الى شيء حيّ ، يسري حتى في ثورانه على نظام . وهذه الامواج ثلاثـة

(١) — جمع عتليت اي Athlète (كلمة بالافرنسية) .

ثلاثة ، صغرى ، فكبرى ، فاكبر ، ثم لحظة او لحظات من هدوء تعقبها ثلاثة امواج . والقبطان ينظر الى الافق ، ثم الى المياه ، ثم الى الثلاثة العتاليت بعيني نسر ، ويتبختر كانه حصان جماع .

ومضت الساعة والساعات الى ان انتصفت الثالثة ، وانا قابض على عمود من حديد ، ضائع — لا ، لم اكن قد تعلمت الخوف بعد في تلك الايام . وفجأة ارعد القبطان امراً ، فاذا بالعتاليت الثلاثة يتألبون على الدولاب ، واذا بتلك الباخرة تخدع الهلاك وتدور على نفسها في طريقها الى الملجأ الامين . وضحك القبطان ضحكة غير مغتصبة ، وصاح فرحاً : « لقد علق جبريل بوقه على الحائط » ، فابتسمت وسألته « الى اين نحن الان سائرون ؟ » اجاب « الى الملجأ الامين ، سنلقي المرساة على شاطيء مزرعة « دون كارلوس » .

يا ربي !! امن العاصفة الى دون كارلوس ؟؟! وحقاً لقد ظلمت « دون كارلوس » بمثل هذه التوطئة ، فليس الرجل رديئاً ، بل هو مواطن لي من بيروت اسمه العربي « شكري سمعان » ولكن ليس من ينـــاديه الا « دون كارلوس » . فشكري بالاسبنيولية يدعى « كارلوس » وشكري في تلك الزاوية من الارض شبه شيخ ، يلقب احتراماً بـ (دون) ، غير ان خوفي من لقائه سببه انه من المواطنين الذين يفتشون عن سعر اللوبياء ، اولئك الذين انطفأت نارهم ، دون كارلوس ، خبت ناره فلا يشتعل ولو رميته بآتون . اما فيما عدا ذلك فما هو بالرجل الذي يجتنب .

ورمت الباخرة مراسيها ونزلنا الى الشاطىء فاذا هنالك كل سكان الضيعة - نحو مئة رجل ، وامرأة ، وطفل . واذا بدون كارلوس بينهم ككبش القطيع فقد كان اطولهم قامة ، وكانوا كلهم حفاة ، عراة الرؤوس

واما دون كارلوس فكان على رأسه برنيطة كرغيف المرقوق ، وفي قدميه نعلان كأحذية الآباء الكبوشيين . وكان الرجال لا يلبسون الا الكلسون اما دون كارلوس فقد لبس فوق الكلسون قميصاً سوداء .

وناديته مسلماً « هلو دون كارلوس » فما اجاب . وأعدت عليه بالعربية « مرحبا شكري » فالتفت الي وخلته هزّ رأسه ، فتقدمت نحوه وهززت يده ، فكانت « ها » كل جوابه . ولا تحسبن ان شكري تعمّد عدم الاكتراث بي . هكذا كان يستقبل الناس ويودعهم ، واذا نطق فاكثر كلماته « ها » ! — هامعناها (نعم) ومعناها (لا) ومعناها (يمكن) ، ومعناها (اهلاً وسهلا) ومعناها كل شيء . يا ليتنا لا نزال بين اشداق الامواج .

ولم اكن من الغباوة بحيث انتظر دعوة من « دون كارلوس » فسألته اين بيته فاشار اليه ، وتقدمني ، فبلغنا كوخاً سقفه قش ، وحيطانه ، وارضه من القصب ، يعلو عن الارض نحو متر ونصف المتر ويصل بابه بالارض سلم من قصب ، ما ان علوته حتى اهتز السلم ، واهتز البيت ، وتطلعت الى داخل المنزل فاذا فيه زنجية حولها اولادها كأنها عنزة هائلة حولها قطيع من الجديان لا ادري عدّه . فتطلعت الى « دون كارلوس » وهممت ان اهنئه « بارك الله في همتك » وانكمشت الزوجة واولادها الكثر خائفين من رؤية الغريب الضخم الذي هزّت البيت قدماه ، وتناولت كرسياً ما ان جلست عليه حتى انكسر ، فصاح « دون كارلوس » « هاه ! » وضحك الاولاد وضحكت امهم وضحك الضيف معهم ، وارتفع ما بيننا من كلفة . وادرت عيني في المنزل فاذا هو عار الا من خزانة هي شبه مكتبة ، مشيت اليها فاذا فيها جرائد بيروتية عربية يرجع عهدها الى

سنين ، واذا في الزاوية مجلد واحد من مجلة « الضياء » . غريب كيف تختلف قيم الاشياء باختلاف المكان والزمان . فتلك الصحف التي تكدست في « المكتبة » كانت تنشر في بيروت وكنت لا اتطلع بها الا متقززاً ، وها انا الان اهفو اليها بلهفة الجائع الى طبق شهي . وقد عزّيت نفسي ان في البيت شيئاً يقرأ ويطرد السأم اذا طال امد العاصفة ولم نستأنف السفر في الليل الثاني .

واقبل الليل فوضعت الزنجية طبقاً من الرز المسلوق وصحناً مقعّراً فيه سائل احمر قد لا يقوى الكيمائيون على معرفة ما هو ، ولكن له في الفم طعماً كشتائم البحارة . وسكبنا السائل على الرز وحشوت فمي مرّات ، وبلعت الرز حتى امتلأت معدتي . وسميت تلك العلقة عشاء . ثم تمددنا جميعاً على قصب ارض المنزل ونمنا .

والله اخبر ، في تلك الليلة وانا امتحدل على القصب ، ماذا كان يحدثني في الشمال والجنوب ، والشرق ، والغرب .

واقبل الصباح فنهض « دون كارلوس » ووضع رغيف المرقوق على رأسه ، واحكم وضع سكين هائل ، شبه البطقان ، على زناره ، وقال لي « هاه ! » من جديد ومضى الى كومة من جوز الهند قرب البيت يفجّ الجوز بالبطقان ويضعه في الشمس . وسرح قطيع الجديان خارجاً ، وبقيت العنزاء الكبرى ، وانا ، في الكوخ افكر سبحان الله كيف انتقى « دون كارلوس » – وهو ابن مدينة بيروت – هذه الزنجية زوجة ، وهي من قبائل الجبال غير المتحضرة ، وقد كان في امكانه ان يتزوج او يقتني فتاة تشبه مخلوقات الله الناطقة . وملكتني الوحدة ، والبحر لا يزال في هيجانه ، والباخرة مختبئة وليس معي من احدثه ،

فرحت الى المكتبة واخذت اتصفح تلك الصحف القديمة ، ساعة ، ساعتين ثلاثاً ، حتى غلب عليّ السأم من جديد . وحانت مني التفاتة نحو ربة المنزل وانا افتش في المكتبة ، فاذا بهـــا تنظر اليّ نظرات مريبة . ما انت يا « دون كارلوس » بفرعون ، وما اعطيتني يا ربي جمال يوسف ، فلماذا هذه النظرات ؟! ولقد اجهزت قراءة كل ما في المكتبة من صحف الا اعداد مجلة « الضياء » التي لم المسها . ذلك لان لاسم ابراهيم اليازجي « صاحب الضياء » في ذهني مقاماً فخماً وذكرى اعجاب ، واني لأخشى ان اقرأ في كبري ما كنت اعجب به في صغري ، فتضمحل تلك الذكرى الجميلة للاسماء التي اعجب بها – تلك الاسماء التي لمعت لا لما فيها مـــن ضياء ، بل لما كان يكتنفها من ظلمة ، فلماذا انا اقرأ اليوم « ابراهيم اليازجي » فاخاطر في ان امحو من مخيلتي شيئاً فخماً جميلا ؟!

على ان السأم برّح بي فلم اعـد اطيق صبرا ، وكاني خشيت ان ترتّد بي قدماي عن المكتبة ان دنوت اليها هادئاً ، فوثبت وثبـــاً واختطفت « مجلة الضياء » اختطافاً . ولم تكد يدي تقبض على المجلة حتى دوى صوت الزنجيـة كنورية تستغيث « يا ... كا ... ر ... لووو ... ووو ... س مواطنك يعبث بكتاب العبادة يا ... كا ... ر ... لووو ... ووو ... س ...» فبهت بل ذهلت ، بل اصابني شلل .

واقبل دون كارلوس راكضاً ، والبطقان مصلت في يمينه وهجم علي . ولم افهم كيف استحال ذلك المخلوق الهادىء الى شبه مجنون ، واين كانت كامنة تلك النار التي لمعت في عينيه . ولم افهم معنى غضبه ، ولمـاذا هو اختطف مجلد اعداد الضياء من يدي .

وهوّن الله فارجع شكري البطقان الى قرابه ، وعاد الى عمله ، بعد

ان رد مجلد الضياء الى مكانه . ورجعت انا الى مكاني احـــاول فهم تلك الالغاز .ثم تطلعت نحو المرأة فاذا هي ضبعة تتحفز للهجوم عليّ . يا لغباوتي اذ حسبت انها كامرأة فرعون وفركت عينيّ ، فما كنت حالما . واستفقت من ذهولي وانتبهت بي غريزة المحافظة على النفس ففككت أزرار قميصي وانسلت يميني الى مقبض مسدسي المختبيء تحت القميص ، وقعدت انتظر المقـدر .

ومضت ساعة فاذا « دون كارلوس » عائد الى البيت متثاقل الخطى ، فرمى ببونبطته المرقوقية ، وعلق بطقانه على الحائط وتقدم نحوي فتفرس بي ، ثم امسك يدي بيديه وانفجر باكياً ، كأم اكبّت على جثة وحيدها وراح يعانقني ويعتذر . وتبلبل عقلي وزاد الغموض عليّ الى ان هـــدأ روع دون كارلوس ، فتناول مجلد « الضياء » وقال اسمع .. هـذا مجلد الضياء ، ما هو بكتاب عبادة ، ولكنه اثمن ما املك في الحيـاة . صار له في تلك الزاوية اثنتا عشر عاماً لم تمسه أنمل . ربيت يتيم الأم منذ الصغر ، فأبي جاء هذه البلاد وانا طفل ، وماتت أمي وتولت أمر تربيتي في بيروت جارة اسمها « ام الياس » . كان بيتنا في ضاحية المدينة ، وكانت له جنينة تعهدتها ام الياس فنورت ازهارها ، واخضرت اعشابها ، وضحكت المياه في بركتها ، حيث تلعب الاسماك الصغيرة الملونة . وكان لنا جيران اسمهم آل سلامه .

كنت في العاشرة وكانت روز سلامه في الثامنـة . كان آل سلامه فقراء وكنا بالنسبة اليهم اغنياء اذ أن أبي كان يرسل في كل شهر بضعة ليرات لأم الياس ، وكانت ام الياس تعطف على روز كما تعطف عليّ ، لذلك سرها ان اصبحت وروز على وفاق ووداد ، فكانت روز تأتي الى

الجنينة بعد المدرسة فتلعب معي . كنا نلعب على الجبل ونتراكض في الجنينة ، وكثيراً ما اتفق ان التهت (ام الياس) بالحديث مع ام روز ، فبقيت وروز وحيدين في الجنينة . ان الدهر رحمني اذ أبقى امام مخيّلتي صورة تلك الفتاة بالشعر الاسود الكثيف يسترسل على كتفيها ويترافص وهي تقفز على الحبل ، وتلك الجبهة الشامخة الثائرة والعينين الضحوكتين ، والنور والطهر الطائف على ذلك الوجه النضر ، وذلك النقاب الخفي الذي انتشر نبلاً على محياها . حمداً لك ربي ، فلم تحرم خيالي التمتع برؤية ذلك الوجه أي ساعة اشاء ، والعب في تلك الجنينة أبان أردت .

كانت روز تدرس في مدرسة الراهبات ، وكنت أنا أدرس في مدرسة الرهبان ، وكنا نترافق في الصباح فيندر ان لا تستخدمني في امر اذ احكم ربط الأزرار على مريولها الاسود ، أو أحمل لها زادها وكتبها حتى بوابة مدرسة الراهبات ، وكان رفيقنا أبداً كلب اسود التقطناه جرواً وسميناه (طيار) ، وكانت روز مولعة بشكولاطه (نستله) الملوّزة فكنت أشتري لها قطعة كل يوم ، وكانت الشركة تضع في جوف اللفائف صوراً متسلسلة الاعداد من ١ الى ٣٦ ، ومن تجتمع عنده وجبة أعطته الشركة جائزة . وذات يوم نزلنا الى المدينة فاستبدلنا وجبتنا بكأس من معدن يفتح ويطبق . كانت روز تشرب في تلك الكاس كلما عطشت في المدرسة .

وكان في جوارنا لحام له ابن اسمه جرجس ، ولد قذر سيء التربية ، شرس ، سفيه ، غاظه مرآنا وآلمه سعادتنا ، فراح يضايقنا فبدأ « بطيار » اولاً اذ كسر رجل ذلك الكلب الوفي فصار يعرج . ومرة كنت وروز نلعب في الجنينة ، فسمعنا « طيار » ينبح محذراً ، فالتفت فاذا بحجر من

جرجس اصاب جبهتي فادماها . فضمدت روز الجرح ، ولو علم جرجس كم سرني ذلك الجرح لما رماني بحجر .

ومرة جاءني ساعي البريد بعدد من مجلة « الضيـــاء » اشتراك سنة اهدانيه ابي . فاخذت وروز نقرأ « الضياء » بل لا نقرأ منها الا الرواية المتسلسلة . فكلما وصل عدد جديد انادي روز ، فنرتمي على اعشاب الجنينة تحت ظلال الورد نقرأ الرواية المتسلسلة معاً ، وقد كنت انا اسرع بالقراءة من روز فاذا فرغت من مطالعة الصفحة درت نحو ذلك المحيا الفاتن اغرف بعيـني من جماله وكم عبث النسيم بشعرها فنشره على وجهي ، اسلاكاً كهربائية . وقد تقلب روز الصفحة ، وانا مفتتن انظر الى الحال الذي جاور مبسمها . كنا في نعيم لا يكدره إلا جرجس ابن اللحام ، فكلما مررنا بدكان أبيه شتمنا وتفوه بمغامز لم اكن أفهمها في ذلك الحـــين ، ومرة لم أطق صبراً فرددت الشتيمة لجرجس فهجم عليّ وبطحني وضربني ، ولعله كان قتلني لو لم يتفق ان جاءت ام الياس فردته وبخته . وهكذا تهلت الحياة في سيرها نمرح في سعادتها . وكانت أجمل سويعاتنا حين تطل (الضياء) فنرتمي على العشب في ظل الورود ونقرأ . ومرة جاش الشعر في صدري ، انظر وفتح دون كارلوس المجلد فرأيت خطاً صبيانياً بحبر أسود ؟

« يا روز ان الهوى ان الهوى يا روز »

شعر حلو . ها؟! . وضحك دون كارلوس ضحكة عصبية وتابع حديثه :

وكان لأهل روز أقارب في الجبل ، ففي أول الصيف ذهبوا وذهبت معهم روز الى أقاربهم في الجبل ، ولم نشعر إلا وأبي راجع من جزائر « الفيلبين » فباع بيتنا والجنينة ، واشترى قربها غرفة لأم الياس وزودها بشيء من المال ، ثم قال لي يا ابني لا أريدك ان تنشأ يتيما وليس لك في

بيروت مستقبل ، سأذهب بك الى جزائر الفيلبين . هناك عندنا تجـــارة وأملاك ولنا مقام ، واركبني عربة الى المرفأ في ذات صباح ، فتركت بيروت بعد أن ودعت ام الياس وقلت لها — وما ابلغ ما قلت — اخبري روز اني سافرت . فضحكت ام الياس باكية.

جئت « الفيلبين » ، ومات أبي ، وساعدني الحظ ، فجمعت ، وأنا فتى ثروة ، ولا ادري أي بله يغشى المهاجرين ، بل أي جنية سوء تمنعهم من الكتابة الى وطنهم ، هكذا مضت السنوات ولم أبعث برسالة الى بيروت غير اني شببت اعارك الدنيا واليقين يملأ نفسي ان روز لا تزال هناك بانتظاري .

يقول لك أولاد العرب ان شكري كان بخيلاً في أيام غناه وشبابه ، لا يسخو ان يشتري لبمونة ، أو يكتري عربة لنزهة . ولماذا لا اكون بخيلا ؟ كنت اقول في نفسي لا تأكل ليموناً يا شكري ولا تتنزه . بل احتفظ بالمال ففي غد تقتسم الفاكهة والنزهة مع روز فتكون الفاكهة أشهى طعماً ، والنزهة أبهى مناظر .

واخذت ثروتي نقوداً وسافرت الى بيروت من غير ان اعلم أحداً . بل لم يكن في بيروت من يكترث لمجيئي اذا عرف به إلا روز وام الياس.

وربطت الباخرة في بيروت ، عند الفجر ، فقفزت منهـــا وانطلقت ميمماً حيّنا وطرقت باب (ام الياس) فلم يرد أحد ، وقرعت حتى أطلت جارة لها فاخبرتني ان ام الياس في الكنيسة حسب عادتها كل صباح . والتفت نحو بيتنا فاذا هو شاخ وتهدلت شبابيكه ، وفي زاويته آرمة تعلن ان ساكنته مومّضة ، واذا صراخ الاولاد يملأ جنباته بلسان حاد قريب . واقتربت من الجنينة فاذ الورد يبس هناك والجنينة مزروعة ملفـــوفاً ،

فنبحت كلاب ووثبت نحوي تريد القتال . ومشيت الى نحو دكان اللحام ابي جرجس . يا سبحان الله هذا جرجس ما غيره . لم يتغير به شيء إلا أنه كبر وضخم ، وتصلبت إمارات الشراسة على وجهـــه ، وجمحت بي العاطفة فهتفت متحبباً : مرحبا جرجس ، فتطلع بي كذئب جريح وقلب عينين حمراوين وعرعر شتيمة بذيئة ثم صاح بي : من أي جهنم شرفتنا في هذا الصباح اللعين ، ومن انت حتى تناديني باسمي ؟ . وقفزت السنون القهقرى فعاودني الرعب من جرجس ، وتنبهت الآلام التي لقيتهـــا من ضربته ، فاصفر وجهي وقلت متلجلجاً : عفوك جئت اشتري لحماً ـ كم كيلو ، صاح جرجس . كم كيلو ؟.. لماذا اشتري لحـــماً وما حاجتي باللحم ؟ وترددت بالجواب وهممت أن أرجع عن شراء اللحم ، ولكن جرجس كان بدأ بسن السكين فخفت ، وصاح بي : انطق جوهرتك كم كيلو تريد ، أربعة ، أو خمسة ؟! قلت أربعـة . قال طيب خذ خمسة . قلت طيب آخذ خمسة . فزان اللحم ، واقسم اني لم أرَ ميزاناً أعرج مثل ذلك الميزان ، ولا اثقالا حجرية مثل تلك المثاقيل : وكأنما هو سرّ لبيع خمسة كيلو لحماً دفعة واحدة ، فاراد ان يحتفل بذلك . فتناول زجاجة عرق وملا كأساً وقلبه الى جوفه . وكأنما رابه امري فصاح : ارنا لون عملتك ، ادفع . فتناولت محفظتي ونقدته ورقة بخمسة دولارات . فاشتعل غضباً : دولارات !! هاه . الله يلعن ام اميركا كيف تحمل الحمير ذهباً ، ونحن هنا نشتغل كالبغـــال ، ولا ربح . وكان في الحائط الخلفي من دكانه باب يصل الدكان بغرفة لعلها كانت مسكن جرجس وعائلته اذ بدأ يتعالى صراخ اطفال من الداخل . فادار جرجس بوجهـــه وصاح : (يا فقمه) قومي نظفي المصارين قبـــل ان تكسد في وجهي ، الله يلعن

وجهك ومصارينك ويلعن الساعة التي تزوجتك بهـــا . وانا على شدة اشمئزازي من بذاءة جرجس ، لم أملك نفسي ، إذ أطلت زوجته في الباب من الاعجاب بصدق وصفه . فقد كانت تلك المخلوقـة في قميص النوم ، منبوشة الشعر ، قذرة الوجه ، متثائبة ، مرهلة الصدر ، كأنما قطع جسدها الصقت بعضها ببعض الصاقاً وقد تجعد وجهها فهو وهاد وهضاب .

وتوقف (دون كارلوس) عن الحديث فقلت له أكمل . قال : إذ ذلك أشرقت عليّ الحقيقة ، وعلمت أن تلك (الفقمة) كانت روز !! . وتشنج (دون كارلوس) واعاد مجلد (الضياء) الى المكتبة ووجم . وكدت أسمع جدران نفسه تتهدم . فصمت . ثم حاولت تعزيته بأن اغالطـــه ، فقلت لعلك كنت مخطئاً . لعل تلك الفقمة لم تكن روز. قال لا ، لا ، لم أكن مخطئاً . فانني ما أدرت ظهري حتى اسودت الدنيا أمام عيني ثم شع نور ومثلت روز الصغيرة بمريولها الأسود وخديها الموردين في طريقهـا الى المدرسة ، ثم اذا هي مضطجعة على العشب الأخضر ، في ظل الورد تقرأ معي ، ثم خف النور ، وأرمدت الدنيا وبقيت روز مضطجعة على العشب وحيدة لا رفيق ، لا تقرأ ، بل تحدق في افق بعيد . وما زالت كذلك حتى اقترب منها مخلوق نصفه رجل ونصفه حيوان فاحتملها وفرّ بهـا الى مغارة وصيّر منها فقمة تشبهه . واحسست بالقشعريرة كأنني في تلك المغارة ، وجبنت فلم اجسر أن أدور بنظري إلى خلفي مخافة أن أصعق ، ولم أدرِ ماذا جرى بعد ذلك ، فلعلني مشيت ، ولعلني ركضت ، ولكني لم أستفق إلا وام الياس تهزني وتصيح : « أنت شكري !؟ ألست أنت شكري ؟ بلى أنت شكري . أهكذا حق المروءة ؟ لا رسالة ولا علم ولا خبر ؟ لقد زوجوا روز الى جريس يا شكري » . ونفر كلب من خلفه

البيت وركض يعرج نحوي يبصبص بذنبه ، ويمرغ رأسه بين قدمي ، فدفعته ام الياس عني بقولها : اسكت يا (طيار) . ورد الله عليّ وعيي فانتفضت من بين ذراعي أم الياس وصحت من انت يا امرأة ؟! ومن هو شكري هذا ؟ أنا اسمي (دون كارلوس) واني لم أرك قبل اليوم . ومر تاكسي ، فناديته ، وتعلقت به ، وام الياس تناديني : ارجع يا شكري ، وطيار يركض عارجاً من خلفي ونابحاً . ورجعت فوراً الى جزائر الفيليبين !!

وناهضتني الايام فلم تجد بي جندياً مقاتلا ، فانا كما ترى ، اشعر اني مسخت ذلك الملاك روز وجعلت منها فقمة في يدي جرجس ، وقد طمست الايام كل شيء من ذكرى ذلك الماضي ، ولم تستبق الا بحلد (الضياء) واني اضن ان اشوه هذا الخيال ، لذلك قلت لهذه المرأة — واشار الى الزنجية — ان هذا الكتاب هو كتاب عبادة ولا اطيق احداً ان يلمسه . فهل تعذرني الآن يا صاحبي ، وهل تعفو عن جنونها ؟ .

أما انا فلم اجب بكلمة ، ولم استفق من ذهولي الا حين دوى صوت القبطان من تحت شرفة البيت يقول : لقد هدأت العاصفة ، سنرفع المرساة بعد ساعة . »

ونهض (دون كارلوس) فتمنطق بطقانه ورجع بفج جوز الهند . ونهضت قاصداً الى الباخرة غير اني اردت توديع شكري ، فاقتربت منه

— بخاطرك شكري

— هاه !

— بخاطرك (دون كارلوس) !

— هاه !

ـ لقد هدأت العاصفة ونحن مسافرون. ألك في العاصمة خدمة اقضيها؟

ـ هاه !

ـ اشكرك على الضيافة

ـ هاه !

***

يستغرب اليوم اولئك المواطنون الذين كنت اتجنبهم لماذا أتودد اليهم الان . فيزعم البعض انني تبت عن عجرفتي ،ويعتقد اناس انني اضعت ثروتي وركبني الدّين ، واني مشرف على الخراب لذلك نعمت ادابي ، ولكن ليس فيهم من يدري انني حين اتحدث اليهم واستمع الى ثرثرتهم ، انني ابحث في كل شخص منهم عن (روز) !

صورة أم فريد

•

قد يكون بنو لبنان كما يدعي ادباء لبنان - فتياناً انجبتهم مردة ، وتعهدهم قديسون ، وعجن في لحمهم اكسير التفوق . اما فتانا فريد زهنان فمع انه كان من لبنان فقد كان « لا شرف ولا ترف » ، لو انه في انكلترا لسموه (رجل الشارع) حبة رمل في كومة رمال ، وخروف في قطيع ، لا يزهو بقرن ولا يختال بألية . وكذلك كانت قريته (عين الحسكة) في جوار (سوق الغرب) من لبنـــان . اقتربت منها طريق السيارات و (كوّعت) عنها . والدهر ، والناس ، والسيارات (كوّعوا) عن عين الحسكة ، ولولا الانتخابات ، والضرائب لما فطن لبنان ان في عين الحسكة ٤٧ نسمة !

هناك نشأ فريد زهنان ، يتيم الاب ، فأبوه سافر الى اميركا حين كان فريد في سن الرضاع . وفطم فريد ، وفطم الاب رسائله عن ام فريد !.

وقد يكون اجداد اللبنانيين مردة ، وقد لا يكونون . على انه من المحقق ان جدّاتهم كنّ ماردات. وما ذكر التاريخ اي عظيم امر قام به المردة ، غير ان في وسع التاريخ ان يذكر الكثير عن « ام فريد » كيف

كانت تحطّب ، وتحرث ، وتزرع ، وتحصد . وكيف قدّرت على نفسها ، واضطهدت جسدها حتى يسرت لفريد اقساط المدرسة في مدرسة سوق الغرب ، اولاً ، ثم في جامعة بيروت الاميركية . وها هو فريد قد اعوجّ طربوشه ، ولمع حذاؤه ، وتدلت من يساره شهادة مدرسية ، كانوا يسمون حاملها في الزمان القديم « معلم » حتى اخترعت صحف بيروت لفظة « مثقف » — ان فريداً من « الشباب المثقفين » . ولحين تاريخه اعلاه ما افصحت الثقافة على اتساع ابحاثها عن معنى الشباب المثقف . فاذا قيل فلان (دكتور) علمنا انه طبيب او بيطار . او سموه (صيدلياً) عرفنا ان في وسعه تركيب الادوية ، او تزوير الكينا . اما الشباب المثقف — من يفهم ما معنى الشباب المثقف ؟

وكان ممن جهلوا معنى « الشباب المثقف » الشاب المثقف فريد زهنان . فها هو يشعر بازدحام الافكار ، والارقام ، والتواريخ ، والحقائق في رأسه . وبنشوة المعرفة ، ووقار المعلومات ، وبنزوة الى شيء مبهم لا يدري ما هو . وها هو قد تخطّى بوابة الجامعة الاميركية الى الخارج فوجد الشارع يعج بامثاله . واكتشف انه ارتكب في الحياة غلطتين — الاولى انه لم يدرس اللغة الافرنسية ، ، فات بذلك امله بدخول دوائر الحكومة المتفرنسة . والثانية انه لم يسقط رأسه ، حين ولد ، في بيت « شيخ » او « بيك » من اقطاعي لبنان فاستحال عليه ان يقتعد كرسياً في قصور الحكومة ، لذلك عزم على السفر الى اميركا ، واميركا بلاد الثروات ، والعجائب والفرص ، والمغانم . ولكنّ احلام اللبناني ضخّمت في مخيّلته كل شيء عن اميركا ، ولوّنتها بالوان زاهية . ومن عاد الى لبنان من المهاجرين فهو مثر منظور ، ورمز النجاح في المهجر . ومن فني منهم

معدماً في اميركا فهو منسيّ يجهله اللبنانيون ، لذلك لا يعرفون ان في المهجر تعساً وفشلاً .

وهرم الصيف في « عين الحسكة » واستحالت العناقيد الى دبس ، وخمر ، وتأهب فريد للسفر ، وذابت نفس ام فريد دموعـــاً تستعطف وحيدها الا يهجرها قبل ان تموت ، والا يتركها ميتة مدفونة ، والا يجعل من ذلك البيت قبراً لها مفتوح الباب ، موحش الجوار . وفريد عـــلى السفر مصرّ ، تذكي مخيلته امال الثروة ، ويقفز به خوف الفشل في مكانه وحاضره الى التعلّل بالفوز في مستقبله ومهجره .

ومثّلت فاجعة في ذلك الكوخ تمثل في لبنان كل يوم وليلة ، اذ فارق الوحيد امه — آه ما اعقّكم يا امهاتكم يا بني لبنان !!

وكان ان الحرص ، والجد ، والتقتير الذي يسّر لفريد ان يطلب العلم في المدارس العالية ، وقدّر له ان يكون في الباخرة التي اقلته من « بيروت » من ركاب الدرجة الثالثة ، في حين ان جمهور المهاجرين اللبنانيين — ويزيد عدّهم عن المئة - في الدرجة الرابعة التي يسمونها « على الظهر » وكان اولئك المهاجرون من الفلاحين الذين خشنت مظاهرهم وافتتلت اثوابهم مـــع اجسامهم ، وخرست السنتهم الا عن لغة جبلية ، همسها مباح . وكان من الطبيعي ان يزهو فريد على مواطنيه — فريد الطلق اللسان بالانكليزية ، الانيق الثياب ، الذي يتحدث الى ضباط الباخرة بفصاحة وأنس . غير ان زهوه هذا ، كان في خفايا نفسه ، واما في الظاهر فقـــد كان متواضعاً لمواطنيه ، وركاب الدرجة الرابعة ، يترجم بينهم وبـــين ضباط الباخرة وخدمه . وكان اكثر الركاب اتكالاً على انكليزية فريد رجل من جرود لبنان اسمه عباس الجعفري ، يحلّي الشاي بالملح ، ويمخط على الارض ،

ويعجز عن طلب الطعام .

« من وراء البقر » كان فريد يحدث نفسه اذ يتطلع الى عباس الجعفري ورفاقه ثم يتمشى ، ويتطلع في البحر وافقه ، ويحلم بالغنى والسعادة .

اما ام فريد فكانت تتطلع الى البحر فتراه امواجاً ، وحيتاناً ، وعواصف ، واهوالاً . وترى فريداً على سفينة تتراقص بين الماء والسماء ، وتحاول الصلاة فتعصاها الكلمات ، وتدير نظرها في البيت ، والضيعة ، فترى الحياة فارقتها .

وذات يوم جلست تنوح فلا تبكي . وكأنما وتر الحياة فيها بتر ، فتقززت عيناها ، وجف جسدها ، وسكن ذلك القلب .

وظل فريد في احلامه وسفره . بل ارهفت احلامه ، فقد احبه كل من عرفه ، وتوثقت صداقته مع ضباط الباخرة ، فاراهم ذات يوم محفظة نقوده ، تزينها صورة امه — صورة شمسية ، كان استاذه الاميركي ، المولع بالتصوير ، قد اقنع ام فريد ، في صيف خلا ، ان تجلس على عتبة الكوخ ، امام آلة التصوير ، ايام كان فريد في اوج تلمذته ، يقترب من يوم الشهادة . والحياة في عيني ام فريد آمال توشك ان تتحقق . فجلست امام الكوخ بجلها تاج شيب مهيب ، ويشع من عينيها حب الامومة ، ينيره الزهو بابن نجب فلا عجب اذا سحر ضباط الباخرة بتلك الصورة — من يقدر ان يصف الام المبتسمة !؟ — تلك النظرة العميقة الصافية ، والاثواب الجبلية الساذجة ، والوجه الفطري البهي ، امام ذلك الكوخ الآمن الوديع الفخور . امومة تبتسم ، وهرم جليل ، وحب وسذاجة . اي جمال اي فن !!

واراد الضباط ان يحملوا الصورة الى القبطان فاعتذر فريد قائلاً انه حلف لامه ان لا تفارقه الصورة وان لا تبتعد عنه ، فهي كحجاب يقيه المخاطر . فزاد فريد في نظر سامعيه شأناً ، اذ ان الغربيين لا يقدسون شيئاً كالأمومة . وحدّث الضباط قبطانهم عن الصورة ، فنزل بنفسه الى الدرجة الثالثة - حدث في باخرة - وتطلع الى ابتسامة الام ودمعت عيناه . ليت ايفون - زوجته - كانت حية فتنقلها بريشتها وزيوتها الى صورة بدوية .

وبلغت الباخرة نيويورك فتودّع المسافرون . واقبل اولاد العرب - كذا صار اسمهم - على فريد يشكرون له خدماته ، وكان اكثرهم اعترافاً بجميله ، عباس الجعفري ، فلولا فريد لما عرف عباس ان يطلب طعامه ولا شرابه .

وسار المهاجرون - اولئك الذين اتوا من وراء البقر يشتغلون كفعلة وطلب فريد العمل الناعم في المكاتب فوجده .

* * *

والزمان يدبدب في بلد ، ويسير في بلد . اما في اميركا فهو يعدو ، ويثب ، ويجفل . وفريد لم يدر به دولاب الزمان بل مرّ عليه . فقد مرت عشر سنوات عليه ، وهو من عمل الى بطالة ، ومن افلاس الى يسر بسيط حتى نزلت بالدنيا الكارثة المالية العظمى عام ١٩٣٢ وافهمت فريد انه في وسع نيويورك ان تبقى على الدهر من غير ان يساهم فريد في اعمالها . ولولا كرم المواطنين ، ولولا سخاء عباس الجعفري ، لاشتكى فريد الجوع - بلى ، عباس الجعفري الذي حلّى الشاي بالملح صار مليونار !. الظاهر ان البقر امهر بالقاء دروس الحياة من شهادات اساتذة الجامعات !.

والبطالة خالقة الصداقات . ففريد صار يقضي نهاراته في مقهى يحفل بذوي البطـــالة ، واصحاب الآمال المكبوتة امثاله ، الذين يتأففون من الدنيا ، والزمان ، والظروف ، والقدر ، ويلومون الحظ والناس . وكان ان يسرت له المحادثة ، وجمعته المباسطة بيوناني فنان ، مثل فريد ناقم على الدنيا ، يشكو الحظ ، ويلوم الظروف ، فتآلف قلباهما . والذي حرم الغرام بامرأة ، وفاته الشغف بعمل ما ، وفشل ونقم ، وجـــد في العشير مفلتاً لعواطفه ، فلا عجب ان توثقت الصداقة بين اليوناني الفنان وبين فريد زهنان ، وليس بمستغرب ان يبصر الفنـــان اليوناني صورة ام فريد وان يعجب بها ، وان يشير الى مواطن الفن فيها !

وذات يوم بينما الاثنـــان في قراءة الصحف ـ والبطّال « يفلّي » الصحيفة ـ صاح اليوناني بفريد : اسمع ، وقرأ :

« يقيم المستر هنري ويلسون ، صاحب مكنات (هنست) التصويرية ، في الاسبوع القادم سباقاً للصور الشمسية ، ويتعهـــد بأن يشتري بخمسة آلاف دولار اجمل صورة معروضة . » .

واشرق وجه اليوناني !

ـ اعرض صورة امك يا فريد وانا اتعهد لك بالجائزة الاولى . سأضع لها اطاراً فنياً وعنواناً شعرياً . خمسة الاف دولار . ها، ها ، ها . قهوة يا غلام ! أي شيء نعجز عن فعله بخمسة الاف دولار ؟ انا فنان أفهم الفن، واكفل ان (صورتنا) تربح الجائزة الاولى .

اما فريد ففكر زهاء ربع ثانية ووافق على اقتراح صديقه . ولماذا لا يوافق ؟ صحيح ان امه اوصته ان لا تفارق الصورة محفظته ، ولكن امه الآن يعلوها متر تراب . وعلى ... وعد ... لامرأة ميتة !! خمسة الاف

دولار ، تشتري (عين الحسكة) وكل عيون لبنان !

وذهب الاثنان الى غرفة الفنان ، وراح هذا يبني الاطار ويزينه ، ووضع الصورة في ذلك الاطار البديع . وبحث الاثنان في عنوان الصورة ماذا يسمونها : كوخ وأم ؟ ، جمال الهرم ؟ . واخيراً اتفقا على ان يكون العنوان : « أم تبتسم » !

فكل من تطلع الى تلك الصورة في تلك المحفظة ، رأى الابتسامة قبل ان يرى اي شيء آخر .

وازدحم الناس في المعرض ، وطافت اللجنة المحكمة وجلس المثري وراء الطاولة خلف شك بخمسة آلاف دولار ، يدفع لحامله . وكانت الصور المعروضة منوعة بين حيوان وانسان وجماد . اما صورة ام فريد فكان الى يسارها صورة (اجمل ساقين) والى يمينها صورة عاهرة تغمز غلاماً وقد سميت الصورة (غمزة غاوية) ، فلما وصلت اللجنة المحكمة الى صورة (ام فريد) صافح اعضاؤها فريداً وصديقه وتفرسوا بـ (ام تبتسم) مشدوهين ، بل شمل سكون الاعجاب من في القاعة ، ولم يسمع الا دقات قلبين – قلب فريد وقلب صديقه . وفجأة قهقه المحكمون ، وكل من في القاعة ، وغلب الضحك على الجميع ، كأنما نزلت بهم نوبة هستيريا ، وراحوا يشيرون الى صورة (ام تبتسم) .

والشرقي لا يقوى على مواجهة الفشل ، فخطف فريد الصورة وفرّ بها يتبعه صديقه اليوناني .

في صباح اليوم التالي اجتمع فريد والفنان صديقه على عادتهما في المقهى يحدقان في فقرة ظهرت في جريدة الصباح :

(سلّم المثري هنري ويلسون ، تشاك بخمسة آلاف دولار ، ثمن

صورة (الغمزة الغاوية) التي نالت الجائزة الاولى . ولكانت الجائزة نصيب (ام تبتسم) لولا بلاهة عارضها الذي عنونها (ام تبتسم) وقد كان من الواضح لكل من رآها ان الام كانت عابسة ناقمة ، غير انها كانت صورة مهيبة متناهية في جمال الفن) .

* * *

لا يزال فريد يرتاد ذلك المقهى حتى اليوم . ولا يزال يتهم الناس بالجنون .

وهو لليوم لا يفهم لماذا فشل في الحياة وهو من (الشباب المثقف) وكيف ينجح مثل عباس الجعفري الذي جاء الى اميركا (من وراء البقر) ثم يفتح محفظته فيعيد قراءة قصاصة الجريدة (....لولا بلاهة عارضها الذي عنونها (ام تبتسم) وقد كان من الواضح لكل من رآها ان الام كانت عابسة ناقمة .....)

ويعيد نظره الى صورة امه في المحفظة فيراها تبتسم فيهز رأسه من جنون الناس .

حمار الصف

•

تنحنح واستوى ، ذلك المتربع خلف طاولة تنوء بكتب « معرض الخطوط » « ومدارج القراءة» وما اليها. ثم اسند ظهره الى حائط تبودر بالكلس فكاد طربوشه يلمس كعب عصا« الفلق »المعلق فوق رأسه – الفلق الذي يحملق باولئك الخمسة واربعين تلميذاً من وراء ديكتاتورهم المعلم دعاس . فارتجف التلامذة كانهم غطوا في بركة القرية في زمهرير ذلك الشتاء.

ثم تنحنح واستوى المعلم « دعاس » مرة ثانية وهزّ قضيب الرمان وصفع به الطاولة وصاح « يا فريد لقد تفردت بالغباوة. تقدم مني » ووقف فريد ، غلام في نحو الثانية عشر من عمره ، هادىء النظر ، اسود العينين، ترقص على شفتيه ابتسامة دائمة تحار في فهمها ، أهي مفتاح نفس غبية ، ام هي عون المضطهد على الهزء بالظلم ، ام انها شيء جميل خلقه الله لغير سبب معين . وجر فريد قدميه من الزاوية التي قبع فيها ، وانتقل في خمس خطوات الى حيث جثم معلمه فانفجر هذا بخطبة خلاصتها انه يرحم فريداً اذا سلخ جلده ، وكوى لحمه ، وقلع اذنيه ، لما يبديه هذا من الكسل والتبسنة ، وان فريداً لو ملك شيئاً من سلامة الذوق ، لرمى بنفسه تحت حجر طاحون القرية ، فاراح امه من همه ، ووفر عليها الخبز ، وهو لا

يسوى كسرة خبز معفنة بصقها كلب جرب .

واصغى فريد الى تلك الخطبة التي تعود سماعها وعلم ان المعلم دعاس ، سيصمت بعد تلك الرائعة الكلامية ، فيتناول اهراماً صنع من ورق اصفر ويكتب بخط كوفي : « حمار الصف» ويتوّج به رأس فريد على وقع خمس واربعين فهقهة من تلامذة مدرسة « عين الدلب » تلك القرية اللبنانية الكسلى التي انبطحت في وادي الدلب تتثاءب في غفوتها ، لا تسمع من ضوضاء الدنيا الا ضحك « نهر الدلب » الذي يتلوى بين بيوتها .

وتعانق عقربا الساعة فمد المهذب الاكبر يده الى الجرس فدقـــه ، فانطلق التلامذة من تلك الغرفة كانهم شظايا قنبلة وجر فريد من بعدهم قدمين كانهما زورقان ، وتثاقل الى الملعب فانتحى زاوية يرقب منها رفاقه وقد غابت الابتسامة عن شفتيه ، لان فريداً متى اجتمع بنفسه وحيداً فتح فاه واسمع اذنيه صوتاً جميلاً هو ، ذاك ما يعتقده الناس ، الشيء الثمين الوحيد الذي يملكه ذلك المخلوق العجيب . اما رفاقه فكانوا يغنون ايضاً اغنية اشتهرت في القرية وانتقلت الى القرى المجاورة ، وتعددت الحانها ، اما كلماتها فهي :

شد العود وهـــات الدف
واسمع مني لحن جـديـــد
تغرّد باسم حمـــار الصف
نابـغـة ضيعتنـــا فريـــد

ويبتسم المعلم دعاس اذا سألوه من نظم النشيد . اذ من ينظم الاناشيد في الضيعة الا المعلم دعاس؟ اذا شرف القائمقام فمن غير المعلم دعاس يرصف عبارات الترحيب ؟ « اشرقت شمس المعالي ، وطلع بدر المجد »، من غيره

يجود بتلغرافات التهاني لموظفي الحكومة في بيروت « السنة الشكر تنوب بتهنئتكم بالنيابة » وحينما رجع احمد بك من منفاه من سطر تلك العبارات الخالدة ، « نحمد من ليس لغيره الحمد على العود الاحمد برجوع بيكنا احمد » ؟ من يحرر المكاتيب للمهاجرين عن لسان ذويهم ، من يقرأ لهؤلاء رسائل الغياب ، من يرثي في المآتم وينظم القصائد في الاعراس ، الا استاذنا دعاس ؟

اذاً فهو ناظم نشيد « حمار الصف » والنشيد لم ينظمه معلمنا طوعاً لسليقة شعرية امّارة ، بل للمودة الخفية التي تربط المفترس بفريسته لان التعذيب يسهل للمعذب الافصاح عن سادیتـه ، لذلك تلاعب الهرة الفأرة قبل الفتك بها . كم من سيدة تموت حزناً على فراق خادمتها البلهاء . اذ اين للسيدة ان تجد خدماً تصفع ، وشعراً تشد ، وامرأة تشتم . « لقد احببته فقتلته » عبارة كم نطقت بها من امرأة اميركية ! كذلك الناس يحبون من هم دونهم . خف الناس في زمن قوتك لا في ايام ضعفـك . من في وسع الناس ان يسخروا به فهو حبيبهم اذ ان ضعفه يظهر ما في نفوسهم من تفوق .اذاً فكيف لا تعطف نفس المعلم على تلميذه فلو لم يكن في المدرسة « حمار الصف » لبقيت فصاحة المعلم دعاس مكبوتة ، ولما تدفق بالوعظ والارشاد ، ولما اشبع سادية نفسه بضرب ذلك الغـلام بقضيب الرمان ، على قدمين شدتا بفلق . اما فريد فلبـله في نفسه او قوة ، او استسلام ، ما عاد يأبه للضرب او الهزة ، بقي يبتسم لكل تحقير وسخرية ، وصار يلبس قبوعة « حمار الصف » كما يلبس اذنيه . وكان لفريد خال في الشرق الاقصى – مدينة هنكون – على مراسلة مستمرة مع اخته ام فريد. وكان الخال يعرف عن فريد غباوته فاصر على اخته ان ترسل بابنها اليه .

وبالطبع استشارت ام فريد المعلم دعاس فاشار هذا عليها بان ترسل بابنها لحاله اذ لا مستقبل له في الضيعة الا ان يشتهر كمغن . واستشارت ام فريد نفسها هل تسلخ عن نفسها وحيدها ولا زوج لها ولا عم ولا خـــال ولا نسيب . فهل تحكم على نفسها بالوحدة في آخر ايامها ؟ ولكم من ليلة سهرت مفكرة تدير نظرها في متاع بيتها الحقير على نور سراج كأمل الصاعـــد درج المشنقة، ثم تلتفت الى بيت جيرانها المتوج بالقرميد الاحمر ، فترى مصباحهم منارة « لوكس » ثرته فلوس المهجر . بلى سيذهب فريد الى اميركا وسيرجع بعون الله غنيـــاً ، وستشتري قنديلاً اقوى نوراً من « لوكس »الاعداء.آه كم غرّب بذخ الجيران من بنيك يا لبنان !...وكان من الطبيعي ان يستمع « حمار الصف » الى خطبة من معلمه مسهبة في يوم وداعه . وكان من الطبيعي ان يموت خال فريد في « هنكون » يوم وصل فريد اليها غير تارك الا ثروة من ديون عليه . وان تنزل بهنكون ازمة تجارية تشتد سنة بعد سنة . كل هذه المصائب شرحها فريد بعبارات هادئة، لا اثر فيها للمرارة او التحسّر . فكانه يتلقى ضربات الزمان ، كما كان يتلقى قضيب الرمان . وصارت كتبه كانها منسوخة عن بعضها فاولها تقبيل يدي والدته ، وتقبيل يدي معلمه ، وتطمين عن صحته ، وانـــه يحصل مصروفه وتقبيل شاربي مجيد سلوم وطلب ابيات « عتابا » اذا وصل لمسمع مجيد نظم جديد ففريد في الهنكون ، كما كان في « عين الدلب » يغـــني العتابا ويطرب نفسه . هذه كانت خلاصة رسائل فريد ، وكان المعلم دعاس يقرأها لام فريد ويهز رأسه قائلاً هذا ما كنت انتظره من « حمـــار الصف » قلت لك يا ام فريد لن يكون لذلك الصبي قيمة في الحياة . ما لك الا الصبر ، وتنصرف ام فريد الى بيتها وتتطلع في منزل الجيران

فيشع من عينيها نار لو كانت نوراً لكسفت شعاع « اللوكس » .

ومشى الدهر الى قرية « عين الدلب » الناعسة فحركها ، اذ نزهـــا ذات يوم اميركي يتكلم لغة عربية هي لتكسرها كانها لوح زجاج وقعت عليه بلاطة . ودخل القرية واذاع انه جاء ليفتح مدرسة واستأجر بيتـاً واتى بمعلم من بيروت ، وعلق جرسه ، ولكنه لم يكن في تلك المدرسة فلق ، ولا ارغم اهل التلامذة على دفع اجرة ، ولا اجبر التلميذ في زمن الشتاء على المجيء بحطبة في صباح كل يوم . وكأن الايام لم تقنع باضطهاد المعلم دعاس بزاحم واحد، فجاء من الطائفة الثانية من فتح مدرسة اخرى نكاية بطائفة الاميركي المستشرق . مدرسة مجانية بالطبع فاين المعلم دعاس وفلقه وقلمه القصبي . واين هو اليوم منه بالامس محتكر للعلم والثقافة ، فاقفرت مدرسته ، وقل تعظيم اهل الضيعة لشأنه . لا ! لا تصدق مـــا تسمعه عن وفاء القرويين وغدر سكان المدن . بل لم يخلُ الامر من القول أن المكاتيب التي كانت ترسل « للغياب » بعضها لم يصل لضعف كتابة المعلم دعاس باللغة الافرنجية . وبعد فمن يريد أن يرسل بابنه الى مدرسة معلمها نكرة سياسية . فمعلم المدرسة الجـــديدة يرسل النواصي الى قنصل بيروت . ومعلم المدرسة الثانية مكاتيبه تهزّ القنصلية الاخرى . المعلم دعاس ؟ ! هاه . هاه . من يحتاجه اليوم ؟

ولقد سمعت بملوك انتحروا اذ خسروا عروشهم . وآخرين التجأوا الى بلدان معادية اذ تقلقل ملكهم ولكنك لم تسمع بعاهل سكن طلول مملكته وعاش بين من كانوا رعيته . لذلك حمـــل المعلم دعاس كتبه واوراقه وفلقه وقضيب الرمان وانصرف مهاجراً الى قرية اكبر من « عين الدلب » اسمها نيويورك .

غريب أمر هؤلاء اللبنانيين .تجد في نيوريوك صاحب مدرسة رقص كانت امه شبه قديسه في بلاده .وتجتمع بصاحب شركة بواخر في البرازيل كان في صباه بقالا في غزير ورب مدير معمل برانيط في جزائر « الفلبين » نشأ بيطاراً يسمّر نعال الحمير على نغم هدير مطحنة ابيه في « الباروك » لهذا لا يستغرب أن تكون الايام دحرجت المعلم دعاس الى معمل تطريز كلسونات نسائية في نيويورك ثم نقفته الى مدينة «هانكون » الصينية على شواطىء نهر « اليانتزي » فاذا استاذنا مدير معمل يشتغل فيه مئات من بنات الصين يطرزن اثواب النساء الحريمة فيرتبها الاستاذ ويشحنها الى اميركا صناديق صناديق من حرير لماع « مزركش » ممرّك بالعلامة الشهيرة د.ر.ج. (دعاس رشيد)الجنيناتي . والرجال في نيويورك حبوب من رمال صحراء شاسعة واغنام في قطيع لا يعدّ . ولكن الرجل الابيض في مدينة صينية ، الرجل الابيض الذي يملك مصنعاً ، بحسفه من الاجلال ما يحفّ الموظف في لبنان . لذلك استرجع المعلم دعاس شيئاً من وقاره وعاودته لذة العيش الى أن سطا على الشرق الاقصى قانون الناب والمخلب . وهاجم اليابانيون ابناء عمهم بني الصين ، وامطروهم القنابل والمفرقعات ونوغلوا في بلاد الصين حتى قاربوا « هانكون » ففرّ من المدينة اكثر أهليها ، ومعظم الاغراب ولكن المعلم دعاس لم يهرب . ذلك لأن اللبناني في قلبه مستسلم للقضاء . كذلك المعلم دعاس يحلق شاربيه ويصبغ شعره ، ولم يعد في شبابه . فالجرأة أهون عليه من الحركة ، لذلك لم يهرب • زد على ذلك ان صاحب ذلك الشيء الموهوم الذي يسمونه الوقار ان وقاره يقيه حتى من شرّ القذائف . وفي ذات صباح فاجأ سرب من طيارات اليابان وفرغوا احمال الموت على المدينة ،

ولم يحم معمل المعلم دعاس وقار المعلم دعاس فوقعت قذيفة عـــلى معمله واشعلت به النار . سبحان المقدر فقد كان صاحب المعمل بعيـــداً عنه اذ لطمته القذيفة فلما رجع رأى جهود السنين واحـــلامها ، تتحول الى نار ودخان ، والناس في رعب والاجانب البيض على أبواب قنصلياتهم تحميهم جنودهم فاين جنودك يا لبنان وأين قنصلك ؟ !

مستر د.ر.ج. صاح به صديقه الاميركي إن كان جـلدك من فولاذ لا تمزقه شظايا القنابل فابق مكانك امانحن فسائرون في قطار يترك «هانكون» بعد نصف ساعـــة . ضرب الاستاذ دعاس أو المستر .د.ر.ج. يديه الى جيوبه فاذا فيها أربع دولارات ، ومحرمة ، وعلبة دخان ، ومسبحة ، ونسخة قصيدة عنوانهـــا « أهـــوال الصين » .تلك ، وشعره المصبوغ وشيخوخته ورماد مصنعه أمست كل ممتلكاته في الحياة .

– عجل يا مستر .د.ر.ج. فالقطار يسافر بعد قليل ، واحسب أن جلدك ليس من فولاذ صاح به الاميركي مرة ثانية .

وتردد المستر الاستاذ ، وغص بدموعـــه ، وكاد يصرخ « لن ابرح مكاني » لو لم يسمع حجة قاطعة نطقتها طيارة يابانية اقنعت بلاغتها الاستاذ دعاس وكادت تصم أذنيه إذ صفرت وهبطت على بناية قريبة فاشعلت النار فيها . ومشى الاستاذ الى الجمع الاميركي المزدحم على باب القنصل ، غائب الوعي ، ذاهلا . وقد تخدرت عقليته ، وانتبهت غريزته البهيمية ، فتلاشت ارادته وصار خروفاً في قطيـع يمشي مع القطيع غير مفكر لا يفقه ماذا يفعل ، فوقع أوراقاً واجاب على اسئلة لم يفهمها ومشى مع القطيـع الى حيث قاده راعيه القنصل وصعد القطار والمعلم لا يدري ماذا يفعل واسرعت عجلات القطار في دورانها ومضى وقت لم يعرف أستاذنا مداه، أكان خمس

دقائق ، أم خمس ساعات أم عشرة أيام . وربما كان هو خلال ذلك طاوياً أو متخما بالاطعمة . وربما قد شرب بحراً من ميـــاه . وربما بقي جافاً كصحراء . ويكلمه الرفاق فيبتسم ويصادق على ما يقولونه . وكثرت تمتمته باللغة العربية ، فصار يقص على نفسه أحاديث هي مزيـــج من صلوات وشتائم .

وكف القطار عن اللهاث ، ووقف في محطـــة كأنها غابة من نساء ورجال واولاد — أيد ترتفـــع ، وقبعات ترقص في الفضاء ، وأصوات فرحة تنادي القادمين ، ثم اشتبك القـــادمون بالمرحبين بمعركة قبلات لو كانت قنابل لاردت من الضحايا ما لم ترده مواقع « المارن » .

واقترب من الاستاذ صديقه الاميركي وسأله « طبعاً لك اصدقاء هنا؟» أجاب المعـــلم دعاس « طبعاً لي اصدقاء هنا بخاطرك » « بخاطرك » . وفرغت عربة القطار من المسافرين والحقائب واستاذنا لاصق الى مقعـده يتمتم فجاء خادم العربة وابتسم وسأل الاستاذ اذا كان يود النزول فناوله هذا دولاراً وترجل سائراً في الاسواق فاذا المكان يعج بالجماهير كأنهم في يوم عيد ، والشمس لا تعلو عن الافق كثيراً فالزمان اذن باكر الصباح أو باكر العشية . وسار من شارع الى شارع وبدأ ذهوله يفارقـــه اذ همزه الجوع والعطش . الى أين يسير ؟ وأين هو القنصل اللبناني ؟ فتذكر أن ليس في الدنيا مدينة تخلو من سفراء لبنانيين وقناصل فسأل الناس في الطريق اذا كان في البلدة لبنانيون فاجابوا نفياً . وسوريون فهزوا برؤوسهم . الى أن التقى ببوليس ذكي اخبره أن ليس في المدينة لبنانيون ولا سوريون ولا يدري أن في الدنيا بشراً هكذا اسمهم . ولكن في طرف المدينة « تركو» غني قصره يكلل تلك الرابية ، وأشار اليها — لعله مواطن لك ايها الشيخ

« تركو » قال المعلم دعاس في نفسه « لعـــله لبناني » ومشى نحو القصر . وكان القصر كالهدف العظيم تحسبه قريباً حتى تحاول الوصول اليه . مئـة متر ، كيلو متر ، اثنين والقصر لا يزال بعيداً . وتطلع الاستاذ فاذا على جانب الطريق حمارة على بابها جمع فحدثته نفسه أن يستريح فيها هنيهة ، وسأل صاحبها عن ذلك القصر. وتفرس بالجمهور فاذا بعضه مشدوه واخرون يقهقهون . وقد توسطه رجل يكاد يكون أفرع، كأنه لكثرة الغبار الذي طغى عليه قد خرج من كيس كلس ، وهو كأنه يخطب في الجمع أو يقص عليهم . فاقترب المعلم دعاس منهم وحملق بالمحدث الخطيب. يا سبحان الله.

— « حمار الصف ؟ ! ! ؟ »

— « المعلم دعاس ؟ ! ! »

وتعانق الاثنان واهوى فريد على يدي معلمه يقبلها . وهدأت ثورة العواطف وقفزت السنون القهقرى فاستعاد المعلم لهجتـــه التأنيبية وراح يطرح السؤالات من علُ .

— « يا حمار الصف بعلمي انت في الهنكون » .

— « هذه هي الهنكون يا معلمي » .

— كنت أعرف من مكاتيبك الى امك انك في ضيق غير اني لم اتصور أن تكون في هذه الحالة . هذه رائحة الخمر تفوح من فمك وهـــذه ثيابك كجلال حمار تمرمغ في ساحة عين الدلب، في زمن الصيف وها انت... ما صنعتك ؟ مضحك السكارى في الحارة ؟ فاطرق فريد خجلاً وقال « ان لازمة شديدة يا معلمي و ...

— لا عجب اذا قال لي الناس أن ليس في المدينة لبنانيون ، فلو انّ مهاجرينا مثلك لكنا نكرة . يا خجلي بك يا حمار الصف . ولعل الاستاذ

اشفق على حمار صفه – وهو بتلك الحالة الرثة – او لعل حنينه للبنانه اماع قلبه ، ولعل استشعاره بالوحدة والضعف وحاجته الى فريد – على ما في هذا من واضح المسكنة – اثار رواغه ، فتأبط الاستاذ ذراع تلميذه ومشى به . فسأل فريد معلمه الى اين هو سائر . المعلم – قيل لي ان صاحب القصر هو « تركو » غني • وما دمنا في المنكون ، فأريد ان استدين مالا يوصلني الى اقاربي في اوستراليا . هل تعرف صاحب القصر يا « حمار الصف » وما هي قوميته ؟ اجاب فريد ان ليس في المنكون من يجهل صاحب القصر ، اما جنسيته فمن يعرفها؟ هو يتكلم العربية وقد يكون سورياً ، او تركياً ، او ارمنياً ، او مصرياً ، ولكنه لغز من الالغاز ، اذ ليس في القصر من يسكنه سواه . وفي القصر خيول وسيارات ، وخدم ، وبحيرة اصطناعية يقال ان اصدقاء صاحب القصر وصديقاته يسبحون فيها عراة في الليالي المقمرة . وذلك « التركو » رجل طيب ، ولكنه رجل تغمره الالغاز ، أما علاقة « حمار الصف » به فهو ان فريداً كلما احتاج الى مال يقصد القصر فيستعطيه ، فيتقاضاه صاحب القصر ثمن عطاياه اصوات غناء ، ففريد لا يزال شجيّ الصوت . بل ان المعلم دعاس لم يجد ان فريداً تغير بشيء ، فهو لا يزال ذلك الغلام الذي يعهده ، متواضع الحديث ، هادىء الخطوات ، براق العينين السوداوين ، الا ان تلك الابتسامة الهازئة انتقلت من شفتيه الى حديثه ، فصارت كلماته غمازة مزدوجة المعاني ، ولهجته مستخفة ساخرة . وعاودت العظمة المعلم فقص على تلميذه نبأ نكبته في « هانكو » ، ولقد يحسب المصغي الى الحديث ان الحرب كانت في حقيقة الامر بين الامبراطورية اليابانية والاستاذ دعاس . ثم تنحنح المعلم وسأل اذا كان في وسع فريد ان يعاونه على استلاف ثمانمائة او الف دولار على الاكثر من « التركو » تعاد

اليه مع الفائظ والشكر في المستقبل. فاجاب فريد انه يعرف عن «التركو» فيا يعرف انه سويعاتي قد يعطي الالوف حين تطلب منه المئة ، وقـــد لا يعطي فلساً حينما تطلب منه الالوف ، ولكن « حمار الصف » سيبذل جهده في اقناع صاحب القصر . وكانا اذ ذاك على بوابة « التركو » فدخلاها ، وتخطيا الدار الى بهو حافل بالتحف والرياش وغالي الاثاث ، فغاص المعلم في مقعد حسبه محشواً باحلام الحشاشين . ونادى فريد اسماً ظهر على اثره خادم تبادل واياه حديثاً بلغة عجرية ، كأنها ازيز الدبابير خلط بنهيق الحمير ونقيق الضفادع ، ينفخ من بوق في بئر ذات صدى . وكانت بالطبع تلك اللغة غريبة على الاستاذ ؛ فما ان ادار الخادم ظهره حتى صاح فريد بلهجة جزعة « حظك عاطل يا معلمي » فالرجل غارق في لعبة بوكر مع انـكليز ، ويقول لي الخادم سراً انه خاسر الالوف، وانا لااجرؤ على الدنو منـــه . فحمق المعلم وصاح انا لم آت لأختلس فماله يرجع له مع الفائظ . يا خامل ، يا جبان ، يا حمار الصف انا المعلم دعاس ، انا مستر د . ر - ج . قل له ان يسأل عني البنك الفلاني في شنهاي . وما زال بفريد حتى اقنعه ان يصعد الى صاحب القصر في الطابق الاعلى ، فراح هذا يصعد الدرج متثاقلاً يقدم رجلا ويؤخر رجلا . وما غاب حتى جاء الخادم فأشار الى غرفة تحاذي البهو صفت عليها الاطباق الشرقية، واصناف الطعام ، والفواكه النادرة، فجلس عليها الاستاذ كأنما مرت عليه سبع سنين عجاف وكأنه يخشى دنو سبع سنين عجاف . ومضت نصف ساعة فاذا بفريد يـــنزل الدرج مشرق الوجه ، فيقترب من الاستاذ واجفاً ويقول ، لقد جلست الى يمين صاحبنا فأتاه الحظ وربح ، فطلبت منه الفاً لك فأعطاني الفين هاكها . انما يا معلمي قد احتفظت منها بمئتين — عشرة بالمئة عمولة (حمار الصف) لا اعتقد انها

كثيرة ، اليس كذلك يا معلمي ؟ فنظر المعلم الى تلميذه نظرة احتقـــار وصاح ، ثم انفجر فصاح :لا ليست كثيرة الله يبارك لك بها . ولكني اريد مواجهة هذا الغني . فما انا بمتسوّل حتى ترسل الي العطية . فقال فريد لن ينزل الى مقابلتك ولو نفخت له ببوق جبريل . ألا تعرف تقاليـد لاعبي البوكر ؟ اجاب المعلم طيب ، اعطني ورقة . هذا سند مني . كمبيالة عليّ بالفي دولار . تدفع بكاملها حين الطلب مع فائظ ١٢ بالمئة اوصلها اليه ، واسأل لي عن باخرة تسافر الى استراليا .

فاخذ فريد الكمبيالة وقفز الدرج صعداً الى الطابق الاعلى ، ثم رنّ تلفون . وهبط فريد متوفزاً يعلن انه سلم السند لصاحبه، وان من حصافة الرأي ان يسرع الاستاذ بالمسير ، فان الحظ عاف صاحب القصر فبـــدأ يخسر . وان في الميناء باخرة تقلع الى اوستراليا بعـد ساعات معدودة ، وان «التركو» قد تلطف فامر بسيارة من سياراته الخاصة توصل الاستاذ الى الباخرة . وفعلاً خرج من الاسطبل اتوموبيل لمّاع يتهادى كأنه بعير خارج من خدر ناقه . وقفز عبد مرتد بدلة عسكرية بيضاء من وراء مقود ففتح بابها ودخله الرفيقان . وقبل أن تتحرك السيارة استوقف فريـد السائق وقفز منهـــا وغاب في باب المطبخ ورجع ضحّاك الوجه وسار الاتوموبيل فسأل المعلم تلميذه لماذا نزل من السيارة وما سبب فرحه فمدّ فريد يده الى جيبه وانتشل بضع ملاعق فضيّة وقال « لقـــد سرقتها من المطبخ يامعلمي.عند الحاجة تشتري أكل اسبوع وسكره » فجن جنون دعاس وصاح بالسائق ان قف ولو كان قضيب الرمان قريباً منه لراح يلسع جـــلد فريد ، ولو ان الفلق في متناوله لشد قدمي ذلك الحرامي . وحلف ليرجعن الى القصر يعيد الملاعق ولم يهدأ روعه حتى اقسم فريـــد

بضريح امه أنه يعيد الملاعق للمطبخ حين ترجع السيارة .

والمعلم دعاس امتلأ بطنه وانتفخت جيبه ، وأتاه الموضوع ، فرجع الى وعظه وفلسفته يا سبحان الله لقد تنبأت عنك انك لن تكون شيئاً في الحياة . هذا غريب عن البلدة – ارمني . او مصري . او سوري . يأتيها معدماً فيصير غنياً ، وصاحب اكبر قصر فيها . وانت ايضاً غريب عن هذه البلدة . ولكنك تصبح ، مضحك الحجارة وسرّاق الملاعق . وبلغ الاثنان الباخرة فقيل لهما لن تسافر الا في صباح اليوم التالي وكان المعلم دعاس منهوكا فقال أنه سينام حالاً وودع فريد ووعظه ، بل دمعت عيناه ، وكفّ عن ندائه « يا حمار » وكانت آخر كلماته له «الله معك يا فريد ، وفقك الله يا ابني » .

* * *

فاتني أن اخبرك انني محام في الهنكون وأنني – ولا مباهاة – من الاهمية بحيث لا اذهب الى مكتب احد من موكلي ، بل انهم كلهم مهما عظم شأنهم ، يأتون الى مكتبي ، كلما ارادوا استشارتي ، يشذ عن هذه القاعدة رجل واحد – هو صاحب القصر – الذي اتناول منه عشرين الف دولار مرتباً سنوياً رسم استشارة ، عدا ما اتقاضاه منه اجرة دعاوى وهو صديقي اتنادى واياه برفع الكلفة . لهذا دخلت عليه في مكتبه في صباح الاثنين من غير ان ارسل اليه بطاقتي ، فالجمع الذي دائماً ينتظر مقابلته على بابه ، يعرف اني من الاهمية بحيث لا احتاج الى ارسال بطاقة ، واني في الاخوة معه بحيث لا اقرع بابه قبل ان ادخل . لذلك شدّ ما كانت دهشتي إذ دخلت فاذا به ليس وراء طاولته كالعادة ، بل كان في يمينه منظار صوّبه الى باخرة تاركة البور ، وقد امسك بيساره منديلا يلوح به .

— ما بك يا فريد ؟

وقصّ علي فريد حكاية المعلم دعاس — ولكن كيف اتفق ان تفوح من فمك رائحة الخمر وانت لا تشربه ، وتكون زريّ الثياب وما رأيتك الا انيقها . قال فريد لقد اصرّ علي طبيبي ان اتروض بركوب الخيل فامتطيت حصاناً ركض بي قرب الحارة فوقعت وتغبرت ثيابي وكاد يغمى علي ، فتناولني صاحب الحارة كأساً شربتها ، وفيما انا اقص على الذين تجمهروا كيف وقعت عن الحصان فاجأني المعلم دعاس . قلت ألم يكن من الظلم ان تهزأ بالمعلم هكذا ؟! اما كان ينشرح قلبه لو انك اخبرته انك صاحب القصر ؟ قال فريد لكان من الظلم ان افجعه بنبوته . فالمعلم دعاس يعتقد انه يعرف كل شيء ويتنبأ عن كل شيء وطالما تنبأ واخبرني اني « حمار الصف » في المدرسة وسأبقى « حمار الصف » في العالم . ولقد هممت ان اخبره الحقيقة فاشفقت ان اكذبه بنبوته وافجعه باعذب فلسفياته . وافتقد فريد كرسيه خلف طاولته ، ففارقته عاطفته واستعاد حذق التاجر وحذره وسألني وانت ما وراءك ؟ قلت : لقد صادفت مهندس البلدية وحدثته طويلاً فلم يقبل ان يسمح لك بان تبني تلك التسع بنايات كل واحدة عشرة طوابق لان الهنكون في زنار الهزات الارضية والقانون لا يسمح ان تكون البناية اعلى من ثمانية طوابق على ان يكون فولاذها ميادا »

فتناول فريد « حمار الصف » قلماً رصاصاً وحسب على ورقة امامه قائلاً نخسر طابقين في كل بناية اي ٥،٠٠٠ قدم مربعة × ٩٠ — خمسة واربعين الف قدم مربع . ستكون خسارتنا ١٣،٥٠٠ دولاراً اجاراً شهرياً . الله يلعن دين قوانينهم . وكبس على زرّ فظهر « لبيك عبدك بين يديك »

اي عريف امناه اسراره فقال فريد : تلفن لمهندسنا ان يبدأ البناء .

وخرجت وما ادري ما الذي خطر على بالي ان اقوله لفريد فقفلت راجعاً الى المكتب فوجدت فريداً قد عاد الى النافذة ولكن المنظار لم يكن في يمينه بل كان في يمينه منديله يلوح به ، وهو ينظر الى باخرة تكاد تغيب وهو يجهش بالبكاء .

فتراجعت من غير ان اكلمه .

حمّود

•

عوى زمور اوتوموبيل في مدخل بلدة (بعقلين) فانتصب « عساف الاقلعي » في حانوته ، وكان متكئاً على كيس قمح ، مسنداً رأسه بكفّه يكشّ الذباب عن طبق بندورة بالكف الاخر . وهرع اليه جاره اللحام ضاحكا وامسك كل ببندورة مهترئة وخبأها وراء ظهره . وافاقت الحياة في سوق البلدة وقد كانت تتثائب ، لان عواء ذلك الزمور اعلن رجعة « ابي دخنة » من بيروت . (وابو دخنة) هذا هو الشوفير علي الاقلعي ، اخو عساف. وقد سموه ابا دخنة لانه كان اول شوفير اقتنى سيارة للاجرة في بعقلين في زمن كانت السيارات فيه اندر من الغيلان . وماذا تريد ان يسموه غير ابي دخنة وهو ما سرى باوتوموبيله في الضيعة إلا واثار خلفه غيوماً من غبار دخان .

واقتربت السيارة من دكان عساف متمهلة بسيرها ، صخّابة بزمورها ، وانحنى (ابو دخنة) من نافذة سيارته فرمى بحزمة جرائد بيروتية الى اخيه عساف وصاح « اقرأ واشرح صدرك » . اجاب عساف واللحام معاً : كثر الله خيرك يا علي باشا ، هذا ثمن الجرائد ! ـ وصل الثمن . اجاب ابو دخنة اذ مسح البندورة المهترئة عن جبينه وصدره... كذا هو دعاب القرى!.

وغاب بسيارته وركابه . اكبّ عساف واللحام والبيطار وجمهور من الناس كان مبعثراً في حوانيت السوق على حزمة الجرائد يلتهمونها بعيونهم .

كان ذلك عام ١٩٢٦ وكان تلهف الناس على قراءة الجرائد على أشده يتبعون ذكر المواقع بين « دروز حوران ، والفرنساويين » . اسمعوا ، صاح عساف اذ تجمّر وجهه ، ورقص شارباه ، ولمعت عيناه ، وقرأ متعثراً بالحروف : « ... في موقعة السويدا التي جرت امس بين جنودنا والدروز هجم على الدبابة ببطقانه رجل من الشوف اسمه (حمود) و ...

هذا حمودنا ـ صاح الجمهور ـ . حيا الله ذكر حمود ـ صاح عساف ـ . وكيف لا يجبون ذكر حمود ، وقد عرفوه فتى في بعقلين يكاري على بغلين وحمار . فلما نشبت الحرب وحاصر الاتراك لبنان يجبون القوت عن اهله اخذ الناس يموتون جوعاً ، وكانوا يضيقون الحصار على قرى المسيحيين في الشوف ، والمسيحيون اخوان الدروز فنهض حمود وألّف « قافلة بعقلين » المسلحة فخرقوا حصار الجنود، وصدوا غزوات البدو ، وانطلقوا الى حوران يرجعون منها بالغلال تشبع الجياع .

من لم يسمع (بحمود) الفتى العنتري ، الهـاديء ، الجبار ، المتضع ، اللطيف ، السكوت ، الذي يقبل ايدي المتقدمين بالسن ، المحيي الناس بالطف التحيات ، المفرق على الصغار التين والزبيب . اسأل اياً كان من الناس عن مروءة (حمود) وبأسه تعرف اخبـــاره . اسأل من أردت إلا (حمود) فهو لا يطيق التحدث عن نفسه . كانوا يسألونه اذ ترجع القافلة بعد ثمانية ايام وليال : حدثنا اخبار القافلة . فيجيب حمود : « عليم الله سلمان قبضاي . علي ذو بأس ، قاسم صاحب مروءة » ... ينشد بالجميع ويروي اخبارهم اما هو .... تحسب من حديثه انه لم يكن مع القافلة .

كان (حمود) فتى بعقلين عام ١٩١٦ فامسى في عام ١٩٢٦ بعد وقعة السويداء بطلها .

***

بعد عشر سنوات – في عام ١٩٣٦ – كانت الشمس أطلت على جنوبي لبنان من وراء (جبل الباروك) تنحدر الى البحر بغنج ودلال ، تاركة فوق أفق البحر غمامات كأنها اثواب حسناء همت تبترد ، فبعثرت باثوابها الحميمة في خدر السماء ، وارسلت من خدرها بألف اصبع من شعاع تجسّ حرارة البحر قبل ان تغطس . تغمز ضياع لبنان بألف عين وكان جمهور من اهالي بعقلين يرقبون ذلك المشهد الرائع شأنهم كل عشية متربعين على مقاعد من حجارة ملساء ، تحت سنديانة باسقة على هضبة تعلو عن سائر هضاب البلدة كأنها جبينها . وكان يتوسط الجمهور (اسعد بك الاخرس) يقرأ صحيفة بيروتية بينما يتشاغل ضيوفه بالاحاديث وبالتمتع بمشهد المغيب . (واسعد بك) مضى عليه زمن كان فيه يتباهى على ضيوفه بان يقرأ لهم الصحف بصوت عال . اذ ما حيلته اليوم وبين اولاده واولاد اصدقائه من ينظم الشعر ، ويجيد الكتابة ، ويبتسم خلف كفه كلما سمع اسعد بك يرفع المجرور او ينصب المرفوع ، لذلك حينما استوى البك اسعد في مجلسه وشدد نظارتيه على ارنبة انفه وصاح : اسمعوا يا شباب ، أصغى الشباب والشيوخ ، فاسعد بك لا يغامر هذه الأيام بالقراءة بصوت عال إلا اذا كان الخبر ذا شأن . قرأ البك : ... وأحاط بنا الانكليز من كل النواحي فوجهنا مفرزة فدائية تثقب لنا منفذاً في جناح العدو الايسر فكان النجاح نصيبها وقد جرح من المفرزة بوجهه حينما هجم على الدبابة وقتل بسيفه سائقها ، رجل من «الشوف» اسمه « حمود » ...

هذا « حمودنا » — صاح الجمهور الذي سمع بلاغ قائد الثورة السورية في فلسطين (فوزي القاوقجي) . قال اسعد بك ضاحكاً : اخاف ان يطل علينا حمود يوماً من الايام وعلى ظهره دبابة ليحرث بها « القليعة » فضحك القوم وراحوا يسردون من جديد احاديث حمود ، مايعرفه الناس من يوم ان الف القافلة ، الى وقعة السويدا ، الى ان التحق وعشرات من فلول الثورة « بسلطان الاطرش » في خيامه « بالازرق » على حاجب الصحراء السورية ، الى ان ثارت فلسطين ، الى واقعة نابلس ، الى الهجوم على الدبابة من جديد .

وردد اسعد بك — والشرقي ولوع بالتكرار — نكتته عن الدبابة وحرث القليعة . فحمود ترك في الضيعة غالبين : ابنه قاسم وارضه القليعة وحمود لا يدري ايهما احب الى قلبه ، فالقليعة — تلك القطعة من الارض التي ورثها عن اجداده ، يفتديها بروحه ويحرثها باصابع يده ، بل باهداب عينيه . قطعة الارض للبناني هي المرساة التي تربطه الى مرفأه الامين ، فان قطعت المرساة تاه . وحمود نصب في القليعة التوت ، وهذب اشجارها ، وأنق مظهرها . من اهمل في لبنان ارضه ، فكأنما اهمل .... لا ! ليست الارض كالعرض ، ولكنها ليست دونه بكثير . وحمود لم يهمل ارضه ولا ولده . فهذه مكاتيبه الى عمه الشيخ تبدأ بالسلام وتقبيل الايدي ، وتقفز الى القليعة ، فهل دفع عمه الشيخ عنها الضرائب واكترى من يحرثها ؟ ويستفهم عن كل شجرة ، وكل غصن . وكيف لا يعرفها شبراً شبراً وقد حرثها ، وقطفها ، وزينها ، وداواها ، خمسة عشر عاماً . وهل ينسى كيف كان يبدأ الحراثة من الجل الذي تحت بيته الى ان ينتهي الى آخر شبر في اخر جل ، حيث جثم مدفن العائلة . فاذا دقت « سكة الحراثة »

بحائط القبر اوقف ثوريه وتنهد . عند ذلك الحائط تنتهي الحرائة وتنتهي الحياة ...لا – من يقدر ان يتهم حمود بانه غير ذي مروءة؟ ففي كل رسالة اوراق ملونة ، تارة فلسطينية وتارة سورية ، تشتري قسط المدرسة لقاسم في بيروت ، تتعهد القليعة بضروراتها ، وتموّن عمه الشيخ وتفيض ، بل هو في آخر رسالة اكثر من عدد الاوراق الملونة لتدفع رسم تسجيل (صك) القليعة باسم ابنه قاسم ، حتى اذا وافاه المقدر انتقلت القليعة الى ابنه كما انتقلت من ابيه اليه من قبل .

*

ونزع ثوار العرب الرصاص من صدور بنادقهم ، وودعهم القاوقجي ، وتفرقوا . ووقف حمود في عمان حائراً يسائل نفسه اين مكانه من الدنيا ، فلا دوي البارود يدعوه الى الميدان ، ولا لمعانه يغمزه الى واجب ، فاين يذهب ؟ الى « الأزرق » على حاجب الصحراء ، في خيمة سلطان ؟ ان لسلطان عشرات الرجال يحسنون صنع القهوة مثل حمود . ام هو يرجع الى .... وهنا ذاب قلبه – لبنانه وبعقلينه ؟. وفي بثقة من حنين استأمن بندقيته صديقاً له في عمان وراح يذرع الطريق الى بعقلين .

*

قبل ان حلم السنيور ماركوني باللاسلكي ، او بدأ مستر بل باختراع التلفون كان في « الشوف » من لبنان – ولا يزال – محطات خفية ترسل الاخبار على اسلاك غير منظورة ، وما كانت اذاعاتها قط كاذبة . تسمع ان حسين مسعود الرقاص مات في جبال المكسيك . من نقل الخبر ؟ لا تدري ، ولكن الذي تدريه ان حسين مسعود الرقاص وصل نعيه بعد ان شاع خبر وفاته باسابيع . تسري اشاعة ان العصابة الفلانية تنوي الفتك بالضابط الفلاني . ومن نقل الخبر ؟ كيف ذاع ؟ اين مصدره ؟ من يدري؟

ولكنه لا يمضي الاسبوع الا والضابط الفلاني صريع . هكذا تكهربت « بعقلين » بخبر عودة « حمود » في صيف ١٩٣٧ .

*

وكان الخبر ، على عادته ، صحيحاً اذ ان « حمود » قطع سهل البقاع وانحدر من الجبل الى ان بلغ نهر « الباروك » فنزع عن رأسه عقاله وكوفيته ورمى بهما الى الارض ، وركع على ضفة النهر كالمصلّي وانحنى يقبل الماء بشفتيه ، ويشفق ، على ظمأه ، ان يشربه . ثم استوى يمرغ في نسيم تلك الصفصافة التي تخفر الماء ، وادار فيما حوله عينين وسّع الحذر احداقهما واسودت ، وماجت فيهما عزة السؤدد في نظرة النسر اذ يحسب انه يملك كل ما يرى . وراح ينشق النسيم خطفاً خشية ان يمر به النسيم من غير ان يملأ صدره . وتطلع حوله فكان المكان خالياً في تلك الظهيرة فرفع « حمود » صوته وتغنّى : « هذه ارضي» وكأن اوراق الصفصاف المتبعثرة سمعت الغناء ، وافرحها رجوع ابن تلك الارض فتعلقت باذيال نسمة وتوافعت على قدميه فصارت لها اجنحة خفّت بخطاه . وكان ان وضع على حافة النهر عقالاً فاستعاده تاجاً ، ونفض عن كتفيه عشرين عاماً – تلك التي مرت به من يوم ان طهّر شفتيه بنهر الباروك لاخر مرة ومشى بارز الظهر ، باسماً ، نحو تلك الهضبة التي تطل على معظم «الشوف» وراح يغرف بعينيه من مناظر تلك القرى . واهتزت نفسه بالذكريات فحك لحيته الاسطنبولية القصيرة التي ارادها حجاباً يستر بها جرح فلسطين وأخذ يفكر . لماذا تركت لبناني ، ولماذا هجرت قليعتي ؟ ما هي فلسطين وماذا يهمني من امرها ؟ وعلام شاعت في آخر هذا الزمان كلمات « الوطنية » و« العرب » ؟ اذا قطعوا شجرة من اشجار « بعقلين » فعلينا

ان نقطع عشرة قبل ان تغيب شمس ذلك النهار . هذه الوطنية كما كنا نفهمها . والعرب ؟ من كان يعرف عن العرب شيئاً الا انهم اعداء دروز حوران ؟ سبحان الله كيف تغير الزمان وصار القبضاي يدعى مجاهداً ؟ لا ! لا جهاد « لحمود » بعد اليوم. لماذا لا يكون له مأوى مثل سائر الناس وتطلع الى الجنوب فلم يرَ « بعقلين » ولكن قلبه خفق اذ انه لأروع من رؤية المكان الذي تعشق تطلعك نحوه ، وشعورك انه لا يزال هناك . بلى ! لينعم صديقه العماني بتلك البندقية، فحمود لن يبرح « القليعة » بعد اليوم. بل هو سيرسل لحيته على مداها ، ويستبدل العقال بالعمامة ، ومن يدري فربما على مرّ السنين تصبح العمامة الملساء ، مدورية ضخمة رمز التقى والتدّين . الدين ؟ شعر حمود بوخز في ضميره . لقد اهمل الدين وهذا زمن التوبة . بلى . فسيكون بيته خلوة يتقاسمها مع اجاويد قومه في نشوة روحية . الله له على العبد حقوق وحمود اهمل ربه . يا ويله من يوم يلاقي به ربه فيسأله كم من حياتك كرّست لي يا حمود. فيغضي هذا بنظره ، وأغضى وحاول أن يستعيد كلمات صلاة فادرك أنه نسي من كتب العبادة حتى « الفاتحة » . يا ويلك من الديان يا حمود . لا لن يترك « بعقلين » ولا « القليعة » بعد اليوم . ولكن من أين يعتاش ؟ يا عيب الشوم ؟ من يخشى الفقر ؟ ! تراب « القليعة » خبز وحجارتها اثمار شهية . يعيش ؟ يعيش على المروءة والذكريات . في زمن جاعت به الدنيا ما جاع بنو بعقلين . فمن يخاف الجوع اليوم والدنيا بالف خير ؟ وكأن ذكرى الجوع اعادت اليه ذكرى الحرب« والقافلة » فشعر كأنه يتبجّح امام نفسه فخجل وقطع على نفسه تأملاتها وقطعها عليه صوب من الشتائم تدفق من الناحية المقابلة ، سمعها ولم يقدر أن يرى صاحبها ولكنه عرف أنه لا يفصل بينه

وبين صاحب تلك الشتائم إلا منعطف الطريق . فنهض واسرع ماشياً نحو صاحب الصوت لأن الشتائم كانت عليها ماركة « بعقلين » . فقد يتوحّد اللبنانيون ثم يندغمون في وحدة سورية ، وتتوحد سورية مع سائر اقطار الضاد فتمسي وحدة عربية . وقد تتلاشى الوحدة العربية في وحدة آسيوية ، وتفنى هذه في وحدة عالمية ، قبل أن تتوحد لغة الشتائم . فالشتيمة هي أقرب الالفاظ الى قلب الانسان والصقها بلسانه ، لهذا لم يصعب على « حمود » أن يعرف من الفاظ الشتائم التي سمعها أن صاحبها « بعقليني » . ودار مع منعطف الطريق ففاجئه منظر سيارة انيقة ، لماعة ، واقفة على ثلاثة دواليب ، رابعها رسم داثرة على غبار الطريق ، اهوى فوقه سائق انيق الثياب كأنه صفحات من كاتالوك خياط ركبت معاً، ينفخ الدولاب بقليل من الهواء وكثير من الشتائم وهو يهوي ويرتفع بذراعين كأنهما مسواكان ، وكتفين تحدّبا فكأنه شاب هرم وهو دون الثلاثين . حقاً أن اكبر خدّاعي الدنيا هم الخياطون . الا تراهم يفصلون البدلة توهم الناس أن لابسها كتلة من عضلات وعظام فاذا تعرى وجدته ... من « شبان اليوم » ؟ تنحنح « حمود » وسأل متأدباً . هل تريد مساعدتي يا ابني ؟ .

السائق — والله يا عمي الشيخ لهجتك حورانية ، وانتم اصحاب مروءة ، ، فاذا نفخت الدولاب كم نفخه اكون ممنوناً .

حمود — تكرم يا ابني . واقبل « حمود » على المنفخ بقبضتين من فولاذ ، فاذا بالمنفخ كأنه اسفنجة بين يديه فاطلق من قبضة المنفاخ يمينه ووضعها خلف ظهره ، وراح ينفخ الدولاب بيسراه كمن يتشاغل بأمر يسير ويتحدث مع السائق. لا ، لم يعد في « بعقلين » قافلة ولا اكّارون. رجال القافلة ؟ سلمان ،وفارس ، وسعيد سافروا الى اميركا . محمود واحمد

وعلي ماتوا . حسن في السجن. حكموه عشر سنوات . قاسم ورشيد اولاد عمهم في بيروت – فعلة . وكان الدولاب خلال ذلك قد حبل ، فركبّه السائق في مكانه . وانتزع من الاوتومبيل سترة رماديّة بطّن اللبّاد كتفيها، فلبسها وفرش بنطلونه واحكم عقدة رقبته ، واستشار المرآة وابتسم . ثم ادخل محرمة بنفسجية في جيب الصدر، وتناول من السيارة زجاجة كونياك امتصّها وسأل عمه الشيخ اذا كان يريد « دمعة » . ومشط شعره ، وعطر شاربين كأنهما دبور جثم تحت انفه ، وغلب الهزء على كلامه بعد ان استقام اوتوموبيله. « وانا هاجر بعقلين يا عمي الشيخ ، سأشتغل على هذه السيارة بين بيروت وزحلة . اذا نزلت بيروت فاسأل عن « غاستون » يدلوك عليه . »

حمود – غاستون ، يا ابني ؟! ما بعلمي اهل « بعقلين » يسمون اولادهم غاستون .

السائق – اسمي في بيروت « غاستون » ، اما في « بعقلين » فانا الكلام بسرك ، « قاسم » ابن حمود هل سمعت به ، ذلك الذي يأكل الدبابات ؟ كان عندي شقفة ارض اسمها « القليعه » بعتها لرجل عائد من اميركا وتركت الضيعة . من يقدر ان يقتني مثل هذه العروس – واشار الى السيارة – ويقنع بـ ١٤ جلّ من تراب واحجار؟ وانت يا شيخ ، لهجتك وهيئتك حورانية . لقد اكثرت الاسئلة عن « بعقلين » . لعلّ لك بهـا اقارب او علاقات .

حمود – لا . ليس لي في « بعقلين » اقارب ولا علاقات . انا عن هذه الارض غريب يا ابني – بل يا « غاستون » . وجلس « غاستون » خلف مقود سيارته ، وتراجع حمود عن السيارة كأن فيها حمل برص ، فأطبق

السائق الباب ومجّ من القنينة ثانية و « حمود » يحملق به . ودوى محرك السيارة فالتفت « غاستون » بابيه وصاح ساخراً « بخاطرك يا ابو لحية » ووضع ابهامه على انفه وارقص اصابعه متهكما وانطلق بسيارته بعد ان انبعثت من السيارة نفحة من الزيت المحروق عبقت بانف « حمود » رائحة نشقها من قبل مرتين ، مرّة في السويدا وثانية في فلسطين .

وترامت الاجنحة عن قدمي « حمود » فوقف مسمّراً في الطريق ، وعلت كتفيه السنون من جديد فهدّلا وتراخى فكه الاسفل ، ولم يبصر من الدنيا إلا خيمة في الازرق يتوسطها سلطان الاطرش بين نخبة من رجال . وصمت اذناه إلا عن نداء « هل عندنا قهوة يا حمود ؟ — حفنة يا مولاي .

— ابقها للضيوف واغل لنا نقالة قهوة الامس .

— أمرك يا باشا ، امرك يا سلطان .

« يسير يوماً للبقاع . ويوماً لجبل الدروز . ويوماً لعمان . يصل الى تلك الخيمة في خمسة أيام . قريبة قريبة » فكر حمود . وقطع عليه تفكيره زمور اوتومبيل من خلفه ، وصوت سائق يصيح به « لماذا تعرض في الطريق ؟ لعل هذه الارض ملك ابيك ؟ » . اجاب حمود بانكسار « لا يا افندي » هذه الارض ليست ملكي ولا ملك ابي . انا غريب عن هذه الديار . وكان الى جانب السائق فتى غث شجعه خنوع ذلك الملتحي الواقف في الطريق فلوح بسوط يحمله وصاح : تنح عن الطريق وإلا اشبعت جلدك خيزرانا .

تنحى حمود عن الطريق فلم يسمع السائق يقول لرفيقه « خاف من سوطك » فيجامله رفيقه بقوله « خاف من صوتك » .

وجر الغريب قدمين بطيئتين راجعاً من حيث اتى ، حتى اذا بلغ نهر « الباروك » ابصر جمعاً اغراباً على ضفافه يهرجون. وجرح النفس كجرح الجسم يتطلب الماء ، فاهوى يريد ان يشرب ، فاعترض نظره رجل ضخم البطن ، يلبس « البيجامة »، يغسل اركيلته في الماء في اعلى النهر، فرجع حمود عن النهر وبصق ، صرت مغسلة الاراكيل يا نهر « الباروك » . وطفر الى الجبل يصعده ، في طريقه الى الخيمة في « الازرق » ، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً . ولا يتغنى ويحدي ، ولا يشتم ، ولا يتأوه ، بل يتمتم ، « ابق القهوة للضيوف واغلِ لنا تغالة قهوة الامس يا حمود » .

*

اليوم تجد في بعقلين شيخاً معدماً، يعيش على المروءة، على الذكريات، يمشي الى طرف البلدة ، ويزين القبر الذي في آخر « القليعة » ، ويصرف بنظره عن البيت الذي يسكنه صاحب « القليعة » الجديد — ذلك الشيخ هو عم حمود يجلس على مدفن العائلة كل عشية ، ويتطلع الى ناحية جبل الباروك ويسأل نفسه : ترى لماذا لم يرجع حمود حتى اليوم ، ولماذا انقطعت اخباره ؟

شيخ القافلة

•

امسك « ابو سلمان » بذنب دابته « الغبراء » وصاح « على مهلك يا عروس » ، ثم نفض الثلج عن فروته وزفر زفرة تجمّد بخارها امام عينيه في تلك الليلة الباردة القارسة وتنهد « الحمدلله ، وصلنا » . ولقد يحسب من يسمعه ان ابا سلمان هذا اصبح على عتبة منزله حيث ينتظره حمام حـــار وفراش وثير . غير ان الامر لم يكن كذلك فالدنيا ظـــلام وثلج وبرد واريا ح . وصاحبنا في اول الليل على قمة جبل الباروك . بينه وبين اقرب منزل مسير ساعات شاقة على ثلج وجليد ، وليس له من رفيق إلا دابتـه الغبراء ، وبارودة موزر في جوفها كلمات خرساء خمس ، فصيحة ولكن في الموقعة .

اما ابو سلمان فلم يشعر بالوحدة ، فها هو على القمة ، قد اجتاز سفح جبل « الباروك » صعداً من ناحية « البقاع » وهذه « عين اللبخة » تجمدت مياهها الى يمينه ، وها هو بدأ ينحدر نحو قرية « الباروك » وهـا هو ارز « الابهل » يتباين بعمائم من ثلج ، وهذه « بلاد الشوف » قد انبسطت تحت عيني ابي سلمان ملتحفة بظلام ، وابو سلمان ابن « الشوف » بل هو شيخ

قافلة « بعقلين » اميرة « الشوف » . ولقد تكون « عين اللجه » في شتاء ذلك العام – ١٩١٧ – مربط الشذاذ ، ومسرح قطاع الطرق ، غير انها تشرف على « الشوف » – لذلك تنهد ابو سلمان وربط بارودته على جلال حمارته وصاح جذلا « الحمد لله ، وصلنا » . وراح ينزل الجبل في طريقه الى « بعقلين » .

ومن ذا الذي يلوم ذلك الشيخ إن كان جذلا . فالحرب العظمى التي اجاعت بني لبنان ، استثنت ابا سلمان ، وعياله ، وقومه ، وها هو قد ترك « بعقلين » في قافلة عددها ثلاثون مسلحاً – تركوا ضياع الشوف خالية الكوارات هزيلة . وهم يرجعون الان من « حوران » محملة دوابهم حنطة ، وابو سلمان شيخ القافلة ، اذا فشلت بتهريب الغلال فهو الملوم ، واذا وقعت بين فتيان القافلة فتنة فهو القاضي ، واذا هلك منها شخص فعليه المسؤولية . وها هم بعون الله راجعون الى الشوف سالمين ، إلا احدهم شاهين قاسم ابو علي ، فقد رقدت رصاصة في اعلى ذراعه ، ما عليه شرّ باذن الله . الحق على شاهين . لماذا لم يستمع الى عمه ابي سلمان في الموقعة ؟!

وذكر ابو سلمان الموقعة فشعّت عيناه « قلت للملعون لا تقوس وانت واقف ، اركع وقوس . يا سبحان الله ما احمق فتيان هذه الايام ، متى سمعوا ازيز الرصاص جنّوا . ماذا اقول لأم شاهين عن جرح ولدها ؟ الله يحقك يا شاهين . ما عليه شر باذن الله » . وراح ابو سلمان يصرخ : يا غبراء ، على مهلك يا عروس .

وكان ابو سلمان يتحدث بهذه الكلمات مع نفسه بصوت مرتفع ، فمن ألف العزلة اكتشف في نفسه احسن رفيق .

وابو سلمان الليلة تهزه نشوة الظفر ، فراح يجر افراحه الماضية ،

فها هي اربعون سنة من عمره قـــد غابت فهو يرى نفسه على طرّ شاربه يهاجر لبنان مع ابيه ليرتزق في حوران . يغزو « ممدوح باشا » بالجيوش التركية جبل حوران فيشترك فتانا في معاركها ، ويشهد فيها مصرع ابيه . وتنشب بين دروز حوران و «عشيرة دحام » فتنة فيخوض فتانا معامعها . ويرجع إلى لبنانه يحرث ويزرع . ثم يدخل صف الاجاويد ـ العقّال من الدروز ـ فينعم ويحلق رأسه . الى ان تنزل الكارثة الكبرى في الحرب العالمية ، وتحبس الغلال عن لبنان فيجوع اهله . ويقف الجيش التركي باسلحته بين حوران الجبلي بالغلال ولبنان الجائع . فيدير ابو سلمان عينيه فيمن حوله ويهز رأسه ويتنهد . ثم يحدث بني قومه « ان الله عظيم قدير ، سبحانه ، سبحانه . لقد كفرنا بانعامه فانزل بنا الجوع والامراض . هذه خلواتنا تقفر من العبّاد . وهؤلاء فتيان هذه الايام همهم شرب « العرق » والمماحكة . في حوران غلال . وعندنا اسلحة وبغال ، ولكن اين الرجال تخترق صفوف الجنود اين ؟ . وسمع فتيان هذه الايام بأحاديث ابي سلمان وهم يحترمونه ويحبونه . ولقد يتهمهم بالكسل والسكر فيسكتون . وينهاهم عن الكفر والتدخين فيحتملون . اما ان يتهمهم بالجبن — هـذا كثير — . فجاء منهم وفد يقول : ماذا على ابي سلمان ، وهو موقن بأن في الشوف اسلحة وبغالاً ، ماذا عليه لو ترأس قافـــلة تحاول السير الى « حوران » والرجوع منها بالغلال ، وليختبر ان كان في الشوف رجال

وتألفت القافلة وسارت ، وساو ذكرها في الناس ، واصبحت مواقعها تاريخاً ، بل اصبحت « قافلة بعقلين » من شهرة الباس بحيث تجنبتهـــا عصابات البـــدو ، والجنود ، وصارت سفراتهم ، بعد أن كانت سلسلة معارك ، آمنة كأنها نزهة مدرسية .

أما هذه المرة فلم تكن السفرة نزهة مدرسية ، اذ أن ضابط المخفر في « تل ابو شجرة » واسمه شريف افندي » وهو جندي ذو بأس ،كبر عليه أن يستنيم لقافلة اكارين ، فنزل « دمشق» واستعان برئيسه ،فعزّزه هذا بدفع وخمسين جندياً مجرباً ، ففاجأوا القافلة في « تل ابي شجرة ». وذكر ابو سلمان المدفع وشريف افندي والكمين فضحك وقهقه ، ورفع صوته بالحداء :

خبر « شريف » الجند في يوم المكيده
لا مدفعه ، لا القدر ، ولا العسكر يفيده
ربك كتب للشوف تحميه اسوده
وهوذي شباب الشوف ساروا بقافله

بلى فشيخ القافلة كان شاعرها أيضاً ، واعاد الحدا بصوت غلب على الريح ، حتى ليعجب السامع كيف اختبأ ذلك الجهر الصوتي في مثل ذلك الجسد النحيل . وذكر « شريف افندي » من جديد فقهقه ثانية . ذلك أن حصان شريف افندي « الازرق » يمتطيه الان شاهين قاسم ابو علي ، الله يحقك يا شاهين . لولا جرحه لكانت السفرة موفقة ، وعزّى « ابو سلمان » نفسه فقال الله قدر لشاهين الجرح ومن ذا الذي في وسعه أن يرد المقدر . حينما سكبت الرصاصة في المعمل كان اسم شاهين عليها . وحينما ولد شاهين كان على ذراعه علامة خفية حيث ترقد الرصاصة الآن . المقدر يسيّر الناس في شؤونها والله يستبق مسالكها ، وما على العبد إلا الطاعة والشكر .

وشعر الشيخ الستيني بالجوع ، وكان قد تصدق بزوادته على فقير في الخان . وقد انهكه السير والبرد والانفعال ، ووتر عواطفه الحداء . ولقد

أحسّت الدابة بقرب المأوى فاسرعت في تزحلقها على الجليد لا يصدها إلا ذراع أكارها ، ولو أن تلك الذراع كانت « فران » اوتوموبيل لتعبت، فمر الشيخ بيده الثانيه على لحيته وقال الحمد لله فمنزل « ابي حمد » قريب . بلى لقد أصبح منزل ابي حمد قريباً ، وهـــذا نور السراج في ضاحية « الباروك » يغمز . فسكت ابو سلمان عن الحـــدا ، وراح يخمّن اي شهي طعام طبخت ام حمد هذه الليلة . اذ ان من عادة ابي سلمان ان يستضيف صديقه ابا حمد في عودته من حوران وطبعاً ابو حمد يعرف ان صديقه يرجع الليلة فهو قد استعد واكثر اصناف الاطعمة والانمـــار المجففة . وزاد تصوره للاكل في شوقه للطعام وارهف التخيّل جوعه ، وشعرت الدابة بدنوها من مكان مبيتها فاسرعت واسرع الاكار من خلفها.

وفجأة وقفت الدابة ، كأن قد عقد في كل حافر مرساة ، وتصلبت اذناها ، فعلم ابو سلمان انه في جوار عدو من وحش او انسان ، فقفز يريد ان يتناول بارودته ، فاستوقفته قهقهة من خلف عليقة وصوت يصبح ؟

— ابو سلمان ؟ !

— ابو حمـد ؟ !

وتعانق الصديقان واشتبكت اصابعها .

ذاك ان ابا حمد كان في منزله المنعزل عن قرية « الباروك » قد رأى شبحاً ينحدر في سفح الجبل فرابه امره . ثم قال في نفسه لـئن كان ذلك الشبح من « قافلة بعقلين » فلعله ابو سلمان ، فشيخ القافلة، دائماً في الطليعة ولئن كان عدواً فمن الرأي ان نتروقه قبل ان يتعشانا .

وسار الشيخان نحو منزل « ابي حمد » وابو سلمان يداعب صديقـــه « ابعد هذه الكبرة تربط الجبل يا ابا حمد ؟! » ثم يقص عليه انباء القافلة ،

وموقعة « تل ابي شجرة » وحصان شريف افندي ، سفرة موفقة والحمد لله لولا حمق شاهين قاسم ابو علي. الله يحقك يا شاهين، انما هكذا المقدر — اسمه كان على الرصاصة في المصنع حيث سكبت .

اما ابو حمد فلم يكن في جعبته من الاخبار الا انبـــاء « التيفوس » تلك الحمى التي اردت كل من اصابته ، والتي ، على زعم طبيب الحكومة ، تسببها عقصة البراغيث يا سبحان الله من يصدق ان ابن آدم تقتـله عقصة من برغوث،ان الله لم ينزل كارثة الحرب بالبشر الا حينما اعوّجت عقلياتهم وامسوا يدينون بمثل خرافات البرغوث « والتيفوس » .

تفضل يا اخي « ابا سلمان » .

ودخل الاثنان المنزل فاستلفت نظر الضيف غياب اثنين — ام حمـد والشمعدان الفضي الذي كان مضرب الامثال في « الشوف » ، فقـد كان ذلك الشمعدان من الفضة الخالصة ارسله لابيه من المكسيك «حمد» المهاجر. بل شعر ان في البيت جواً موحشاً ، مبهماً ، مشبعاً بالالغاز . وانزل الحمل عن العروس « الغبراء » وعرّاها من جلالها ، وأحكم المخلاة في رأسها وعاد الى البيت ، فاذا ابو حمد يتلعثم بالكلام حائراً، يلح في دعوته الى الطعام، قلت عليك يا ابا سلمان ، اتركني اصنع الطعام . سأفتح « المخدع »واجلب قليلا من اللبن ، والزيتون ، وصحن « مجدّره » . وابو سلمان يعرف انهم في « الشوف » متى الحوا في الدعوة للطعام فهم لايريدونك ان تستضيفهم . ترى ماذا جرى ؟! ابو حمد لا يدعو الى طعـام ، ابو حمد لا « يعزم » ، ابو حمد يضع الطبق حالا ثم يشد بكتفك برفق ان اجلس ويعتـذر عن حقارة طعامه ، مع انه شهي متعدد الالوان. وراح ابو حمد يشدد بالدعوة وابو سلمان يستكثر المعاذير ويشرح الاسباب التي تصده عن قبول الدعوة .

- لقد أكلت منذ زمن غير بعيد . نفسي لا تشتهي الاكل الان .

– اسمع لي ان افتح « المخدع » و ...

ولو كان لذلك « المخدع » فم يضحك لهزّت البيت قهقهاته ، فلقد كان خاوياً حتى من رائحة الطعام .

– خيرك وافر يا ابا حمد .

- قلت عليك يا ابا سلمان ...

وبعد ان انتهت طقوس الدعوة والرفض ، ولم يحضر طعام ولا ظهر طبق ، تناول ابو حمد من ثقب في الحائط يخفيه ستار ، مخطوطة دينية ، فقبّلها وامرّها على جبينه ثم فتحها ووضعها على مقعد خشبي خاص بها ، وجلس الاثنان يقرآن من كتاب الدين، ويترنمان بصوت موحّد النغمة ، عميق ، وينتايلان يمنة ويسرة على لحنه « سبحانك ، سبحانك ، ما اعظم ملكك، واكبر شانك» ولبث الاثنان في مأدبة روحية استملكت قواهما، الى ان انتصف الليل فتودعا وانقلب كل الى مضجعه .

اما ابو حمد فقد اذاع على من يهمه الامر انه نام بشخير يفيق الموتى ، وامـــا ابو سلمان فراح يتقلب في فراشه يسامر البراغيث التي تألبت عليـه وأقامت الولائم في مختلف انحـــاء جسده . ثم شردت افكاره في غوغاء من التفكير . الله يحققك يا شاهين ما هذا « التيفوس » وهـذه الكوارث التي نزلت بالعباد ؟ ! اين هي ام حمد وكيف اختفى الشمعدان الفضي ؟ هل ذهبت ام حمد بالشمعدان لبيعه ؟ سبق وسرى في القوم همس ان ابا حمد في عسر ، ولكنّ هذا كان دائماً يحمد الله ويقول « الدنيـــا بالف خير » وفجأة نهض ابوسلمان من فراشه ومشى الى الكوارات فنزع كمامة كوارة القمح واجرى يده في نواحيها فاذا هي فارغة ... وكوارة

العدس ، كذلك ، وكوارة الطحين ... وكل الكوارات . وكذلك المخدع . فاشرق ابو سلمان بدموعه وتطلع الى مضيفه خانقاً . لماذا كتم ابو حمد عنه بؤسه ؟ ! وقفز به الفكر الى منزله في « بعقلين » فحمد الله وشكره ، فكواراته ملأى بانواع الحنطة تكفيه ابداً اسبوعين . فانه ابداً يخشى ان يصيبه مرض او ما يعيقه عن سفرة الى حوران فهو دائماً يختزن مؤونة اسبوعين ، حتى اذا تخلف عن سفره بقي عنده ما يكفيه حتى السفرة الثانية . وتطلع الى حيث وقفت دابته فاذا حواليها كيسان ونصف الكيس من قمح وعدس . لماذا يكون عندي مؤونة اسبوعين فائضة ، وابو حمد معدم ؟ سأبقي هذا الحمل هنا ، ونحن عندنا ما يكفينا حتى نسافر الى حوران ونرجع بحمل جديد انشاء الله . واصغى فاذا ابو حمد لا يزال يرسل الشخير ، فنهض الى دابته فوضع على حوافرها اللباد ، ذلك « الكالوش » الذي كانت تلبسه الدابة كلما اقتربوا من مخفر . ثم قادها الى الخارج وما ابتعد عن البيت قليلاً حتى اعتلى ظهرها وسار الى «بعقلين»

وكأنما شخص امسك ابا حمد فهزه وهتف به « قم » فاستفاق فلم يجد ضيفه في فراشه . وراح الى مربط الدابة فاذا ليس في المكان الا حملها . فاشرقت الحقيقة على ابي حمد فهرع الى خارج البيت ، وكان الفجر بدأ يبتسم ، وصاح : « يا ابا سلمان ماذا فعلت ؟! ارجع وخذ الحمل ،الدنيا بالف خير » . فادار ابو سلمان وجهه نحو مضيفه واجاب بصوته الهدار : « الدنيا قرضه ووفاء ». ورددت اصداء « الباروك » الدنيا قرضه ووفاء .

*

حينما أطل ابو سلمان والغبراء على « بعقلين » كان اكثر رجال البلدة وصبيانها في الانتظار يهزجون ويطلقون الرصاص في الفضاء. وانتهى السلام

والكلام فقفز احد الصبيان الى ظهر (الغبراء) وراح يرمح ملاقياً بقية القافلة . ثم احاط بشيخ القافلة بعض الشيوخ وراحوا يداعبونه « اين حمل الغبراء ؟ » قال بعضهم ان ابا سلمان راح الى حوران وسعى عن باله ان يشتري قمحاً . وظن آخرون ان في (عين اللجة) حورية تستبدل القمح بالابتسامات . وحكى آخرون ان ابا سلمان لقيه بدوي واغتصب منه حمل القمح . واكد غيره ان الغبراء لها بطن كمطحنة ، اكلت الحمل في الليل من غير ان يدري ابو سلمان .اما هذا فبقي يبتسم ولا يجيب على الدعاب. وكان البرد لا يزال قارساً ولكن ابا سلمان لم يشعر به ، بل مشى رأساً الى منزله فلاقاه توحيب زوجته . وبعد السلام والكلام سألها عن الاخبار فقالت ام سلمان ليس من جديد الا التيفوس ، فكل من وقع بتلك الحمى الخبيثة مات . وحسبت انها اعطته تقريراً مسهباً عن كل الاخبار ، إلا انها استدركت وقالت : بلى جاءتني البارحة ام حمد من الباروك واخبرتني سراً انهم في فاقة ، ولقد اوهمت زوجها انها ذاهبة الى (عاليه) لتبيع الشمعدان الفضي وتشتري قمحاً ، ولكنها في حقيقة الامر اتت اليّ تريد رهنه عندي لانها توقن انها تقدر ان تستورده مني متى انتهت الحرب وعاد حمد يرسل الفلوس لهم ، اما انا فبعلمك يا ابا سلمان ان ليس عندنا مال ، ولكنني كنت متحققة انك عائد بحمل جديد ،فاعطيتها كل ما في الكوارة من مؤونة وقلت لها ان تستحي ان تذكر امر رهن الشمعدان . سبحان الله كيف كفرنا به ، فصار الانسان لا يعطي ولا يطلب شيئاً الا لقاء رهن وكمبيالة .

– وهل اخذت منها الشمعدان ؟

اجابت ام سلمان : بالطبع لم آخذ الشمعدان ، بل اعطيتها كل ما في

الكوارة وقلت لها : يا ام حمد سيأتي يوم باذن الله ترجعين ما تقترضين . الدنيا قرضه ووفاه ، أليس كذلك يا ابا سلمان ؟

– صحيح الدنيا قرضه ووفا ، اجاب ابو سلمان ، اذ علق عمامته على مسمار في عمود المنزل ، وارخى اثوابه قليلا ، واراح رأسه على مسند ، وتمدد على البساط ونام محموماً – بالتيفوس !

الكتاب العظيم

•

مسكين سامي حميدان .

الشيخ سامي حميدان !

كنت الوم اهلي وانقم على ابويّ ، اذ لم يوسلاني الى مدرسة عالية ، حتى اجتمعت بسامي حميدان . سامي — الشيخ سامي — معلم ، مثقف ، صاحب شهادة طويلة عريضة ، فصيح ، عميق التفكير ، حلو الحديث ، مجيد اللغات العربية ، والفرنساوية ، والانكليزية ، واسع الاطلاع ، ذو شخصية تثير الاحترام .

كنا جارين في مدينة « مانيلا » . حانوتي يلاصق حانوته ، ولا يفصل بينهما إلا حائط من خشب . كنت ادعو حانوتي « الدكان » وكان يسمي حانوته « المحلّ » ، وكان الناس يدخلون حانوته فينادونه « مستر حميدان » بخشوع ، ويدخلون دكاني فيصيحون « هاي ـ تركو » ولكنهم كانوا لا ينصرفون من حانوتي إلا محملين رزماً رزماً من بضائعي ، أمـا من محل جاري فلا يشترون إلا الشيء اليسير .

وها نحن في عام ١٩٣٧ ، وقد تكدست البضائع في دكاني ، وعندي في البنك ١٤٧١ ريال . أدفع ما عليّ في يوم الاستحقاق ، ولا أهرب من

دي في يوم السبت . انام في الدكان، واطبخ في الدكان وارضى بما عندي ولا أحمل همـــاً . أما جاري « السنيور حميدان » فليس في حانوته من البضائع باكثر مما في قفص الكنار ، ان استمر على هـــذا المعدل ، فقد يمضي عليه ١٤٧١ سنه قبل أن يصير معه في البنك ١٤٧١ ريال .

ولكن لا تحسبنّ أن سامي غبي . سامي شاطر . يفهم تقلبات السوق أكثر مما افهم . خبير بالبضائع أكثر مني بكثير . وسامي عريف بالحسابات وما هو بالمبذر ، ولا بالمقامر ، ولا بالمتهتك ، فلماذا يفتقر هو واغتني انا ؟ لا أدري ! !

كنت أراه في ذلك الحانوت الزريّ فيموج قلبي عليـــه . مثل ذلك الفارس ، حرام أن يمتطي حماراً أعرج . تلك الشخصية الفخمة الجذّابة حرام أن لا تقتعد كرسياً وراء طاولة في مصرف ، أو سراي ، أو أن تنتصب على غير منبر أو دكة استعراض .

لماذا يفشل « سامي حميدان » ؟

كنت اسائل نفسي ذلك ، فلا اجيبها الا بكلمة واحدة – الثقافـة . تلك الشهادة التي يحملها كانت « حرزاً » عليه ، فهي سبب متاعبه .

واعود فاحمد الله الذي الهم ابوي ان لا يرسلاني الى مدرسة عالية .

وتوثقت الصداقة بيني وبين الشيخ سامي . إذ عرف كلٌ حـدوده ، وما انتحل شخصية سواه . فانا اعرف من نفسي اني اكاد اكون اميّاً لا احسن الا توقيع اسمي « سليم الصيداوي » ، فكان سامي يكتب لي رسائلي ، وكنت في صداقتي معه لا اتعدى منزلتي ، فما داعبته وما هزئت به . وكان يوم السبت يوم دفع الديون للتجار ، ففي كل مساء يوم جمعه ، احمل الى سامي ما يفيض معي من النقود – مئة او بضع مئـــات من

الريالات ، فيستعين بها جاري على دفع بعض ديونه يوم السبت ثم يرجعها الي ، كما يفتح لاعب البوكر ورقاته الخمس ، رويداً رويداً — وعلى مهل، وكم من مرة عرفت ان بعض التجار يحبسون البضاعة عنه فهرعت اليهم اكفل حساباته من غير ان يعلم .

وكان قليل العشراء ، كثير المطالعة ، فما رأيته مرة إلا وفي يده كتاب . وان اتفق ان رأيته لا يقرأ ، فهو يرسل نظرات تائهة غريبة ، او اسمع منه تمتمة عرفت فيما بعد انها حديثه مع نفسه . وقد ادخل حانوته فأرى على الاوراق التي تلف البضائع عبارات يقرأها لي بعض الاحيان :

« التاريخ كالافيون — قليله ينبه ، كثيره يخدر » .

« قصة عن رجل اراد ان يولم وليمة لاصدقائه الحقيقيين ، فراح يفتش عنهم بعد ان اوصى امه ان تهيء الطعام ، فلما رجع الى بيته وجيداً استغرب ان يجد امه ما اعدّت طعاماً . سألها متعجباً . ضحكت وقالت علمت انك سترجع وحيداً حينما ذهبت ، في طلب الاصدقاء الحقيقيين » .

« رواية ذات فصل واحد ، قروي ينزل الى العاصمة . نصّاب يؤجره غرفة الوزير في السراي . يدخل القروي غرفة الوزير ، فيكون هذا خائفاً من غوغاء تتظاهر في الشارع امام السراي، فيسر بان يعطي كرسيه للقروي المجنون ، يهرب الوزير . تدخل الغوغاء ، يحكم ويتكلم القروي المجنون بكلّ بساطة ، وصدق فطري، فيعبده الشعب . حينما يرجع الوزير ليسترد كرسيه يطرده الشعب حاسباً اياه مجنوناً »

وكان سامي بخيلاً مع اولاد العرب في صداقته اذ ان هؤلاء سموه فيما بينهم « الفيلسوف » وراحوا يهزأون به . لذلك كان يتدرج معي في افصاحه عن عواطفه . وبدأ يحدثني بما سيؤلفه: « ما رأيك يا سليم في كتاب

موضوعه ...؟ رواية تبحث بـ ...؟ » .

ما رأيي – انا سليم الصيداوي – بكتاب ؟ ! انا الذي لم يقرأ من الكتب الا « مدارج القراءة » . وكان يدعوني الى دار السينما فلا اراه يقهقه مع الجمهور ولا يطرب الا نادراً . فان اظهرت له استغرابي يجيب « هذه نكتة ؟! سمعتها من سنين ! هـذا مشهد ؟! مسروق عن الرواية الفلانية » فاحمد الله اني لم اتثقف ، بل اطرب لكل مشهد واقهقه لكل نكتة فلم تحرمني المدارس لذة الافراح العادية ، والطرب لتوافه الامور .

وتأتينا جرائد بيروت فيجيل نظره بها بضع دقائق « تعال يا سليم انظر الى هذا الـ ... سرق عني التعبير الفـلاني » . ويهوي الي كتبه فينبش قصاصة جريدة قديمة ، فاذا فيها تلك اللفظة التي اليها اشار . وفي ذيـل المقال توقيعه .

وقد تصدر الصحف وفيها انباء قرب وقوع الحرب ، واعلان النفير العام في اوروبا ، فيطويها سامي ويسخر : « مجانين !! الحرب لن تقع هذه السنة ، ولا السنة القادمة ! » ثم ينهال عليّ بسيل من حجج وبراهين ، ثم يأتي بمجلات لها شهرة عالمية يرجع تاريخ صدورها الى سنوات خلت « انظر ماذا قالت هذه المجلة عن موسوليني عام ١٩٢٩ ، المجلات تطبع للسّوقة . مراسلو المجلات والصحف مأجورون او معتوهون . لا تخف يا سليم . لا حرب هذه السنة » .

وتجيء الايام مصداقاً لنبوءته .

وكان شغفي به يزداد ، وكذلك اشفاقي عليه فكلما زاد اعجابي وايقاني بنبوغه ، كلما زاد تحرّقي على ضعة حاله .

وفي ذات صباح دخل سامي حميدان الى دكاني وكأنه قد سهد الليل

فهو حانق ، متوفز ، ثائر فناداني « سليم . ان لي ما اقوله لك » ، فتقدمت اليه مستغرباً . ترى هل افسد نمـــام ما بيننا ؟ وصاح بي سامي « سليم ! انت نكبتي ! » :

قلت « وكيف ، يا الشيخ سامي ؟ » .

قال لا تدعني « شيخ » بعـــد اليوم . بل لا تكلمني ، فانت سبب فشلي ، اذ انك لو لم تسعفني باقراضي المال وكفالة حساباتي لانكسرت ، وحطمت هذا القفص — وأشار الى دكانه — ان عظيم النجاح يعقب عظيم الفشل . وما تشمخ القصور حتى تشاد على الانقاض . أما في أدبي فلم تكن انت نكبة عليّ بل كارثة . كنت جمهوري ، ونظارتي ومشبـــع جوعي العاطفي. لو لم تستمع لي وتعجب بي ، لكانت الدنيـا لي ملعباً ، ونظارة وجمهوراً . لقد انصرفت ، عن ملايين القراء ، وجماهير المستمعين، وقنعت بسليم الصيداوي . ولا تقل « شيخ » . إن هـــذا اللقب الفارغ خدّر أنانيتي وصرفني عن طلب التفوّق الحقيقي . أنا عنوان ضخم لكتاب صفحاته بيضاء غير مخطوطة .

وأردت مقاطعته فاستوقفني ، بل ارعبني نظره ولو لم اكن على يقين من سمو مداركه لقلت إنه مجنون ، وأردف قائلا ، اني والنجاح عـــلى موعد . وسنرى . لا تكلمني بعد اليوم . أفهمت ؟ .

قلت « الامر لك . لا كلام بعد اليوم » .

قال هذا خطأ . فيجب أن نتبادل « صباح الخير » مرة واحـــدة في النهار . فصباح النهار ، كطفولة العمر ، يجب أن يكون جميلا . ومرّت الايام والشهور ، ونحن لا نتكالم إلا حينما نفتح حانوتينا .

— صباح الخير يا سليم الصيداوي .

– صباح الخير يا سامي حميدان .

ولم أعد أعرف بعد ذلك من أموره إلا التوافه ، اذ مر اجيره ببابي في طريقه الى الرستوران فيغمز اجيري ويضحكان « قهوة . قهوة » . وقد جاءني صاحب الرستوران ذات يوم وقال « الظاهر أن جارك كثير الزوار . فما من يوم إلا ويطلب ما يزيد عن عشرين فنجان قهوة .

وإن اتفق أن مررت ببابه فلا أملك أن أراه والقلم في يده يكتب او يفكر . ولعلّ حديثه مع نفسه زاد ، وعلا صوته فكنت أسمع أقوالا بعضها عربي ، ولكن اكثرها افرنجي :

« آكل التوم لا تفوح منه رائحة الكولونيا ...

« ما أقدر أن أشتريه ، لا أستعطيه ...

« خفيّ كوجع الضرس ...

« ارخص من موال عتابا في بعلبك ...

« الدهر دولاب تديره يداك ...

« من جدّ وجد . وجد ماذا ؟؟

«ووقع مجهوداً جهد جذل ، كبعير خارج« من خدر نافقة» .

ويأتي يوم السبت ، وتزغرد التلفونات في اذن الجار . « ادفع لك متى صار معي . اخرج من هنا ... قلت لك لا تكثر الكلام » .

والمديونون تنعم احاديثهم ، وتلين كلماتهم ، الا سامي حميدان،فكلما غاص في الدين ، واختنق ، كلما علا صوته ودنا من الشراسة في حديثه .

وذات يوم اقبل علي خادمه وقال « انا في طريقي الى البوسطة لأرسل هذه الصرة ، وقد امرني السنيور حميدان ان اريكها قبل ان اودعها البريد . قلت اقرأها لي اذ ان معرفتي بالافرنجية ... فقرأ الخادم .

صموئيل جولدوين

هوليوود

كاليفورنيا « الولايات المتحدة »

وانصرف الغلام الى البريد، وانصرفت انا الى احلامي – بلى انا العديم الخيال الذي لا احلم حتى في الليل – انصرفت الى احلام النهار . بـــلى ستشتري هوليوود كتاب سامي و ... تطلعت الى الحائط الذي يحجبني عن سامي وابتسمت ابتسامة خيّل الي انها نفذت من الحائط . وذرفت دمعتين ظننت ان الحائط لم يحجبهما عن عيني سامي . ولبثت ثلاثة اشهر يتأكلني الشوق الى محادثة جاري ، ولكن هذا لم يتجاوز :

– صباح الخير يا سليم الصيداوي .

فأجيبه : صباح الخير يا سامي حميدان .

*

كنت في بناية البوسطة بعد ظهر ١١ اكتوبر سنة ١٩٣٧ . وكان الحشد كبيراً في اروقة البناية . اذ ان اليوم التالي كان عيداً – عيـــد الجمهورية الفيليبينية – والمدينة ، حكومة ، وبريداً ، ومصارف ، ومدارس مقفلة . والناس على عجل في تسلم بريدهم فلا تبقى الرسائل في البوسطة الى اليوم الذي يلي يوم العيد . وجال نظري في الجمع فاذا بسامي امام نافذة بريد اميركا المسجل وعيناه تلمعان – تلك اللمعة التي اعتدت رؤيتها كلما نطق بعبارة فذة يحسب نفسه مبتدعها . فثارت حشريتي وحاولت الدنو منه لولا ان اصطدمت بنظرة منه دفعت بي الى خارج بنـــاية البوسطة اركض نحو حانوتي . فدخلت توّاً الى المطبخ فاشعلت النار وطفقت اهيىء العشاء . وفيما انا انفخ النـــار واتطلع باللحم فابلع بريقي ، اذا بصوت فرح كزغردة

الاعراس ينادي : سليم !! فتطلعت نحو الباب فرأيت سامي حميدان يشع وجهه ، وقدعاوده رواء الصبى ، وانتصبت قامته كالرمح استقامة ، يبتسم ابتسامة مسيحي ورع ظهرت له العذراء البتول . « سليم » !! صاح بي ، تعال اليّ يا جهوري ونظارتي ، ان الدنيا دفعت لي ما عليها من دين . سيمر الناس بحانوت جارك بعد اليوم ويشيرون ، هنا ألف سامي حميدان الكتاب العظيم »

وتدافعت العبارات الوفاً الى شفتي اريد ان انطق بها دفعة واحدة ، في صيحة : هاه !. فقهقه سامي وقال : هاه والف هاه ! . كيف ترفض هوليوود روايتي ؟ . انهم قبلوها وارسلوا لي مئة الف دولار ، وهم يعرضون عليّ مئة الف ثانية ان انا قدمت لهم رواية ثانية خلال ستة اشهر ، على ان يكون موضوعها ... يا لحمقك ياهوليوود !! ويا لتبذلك !. أيحسبون الفنان صانع احذية . اريد حذاء كذا لونه ، وكذا قياسه ، قبل يوم الاحد .. هاه ، هاه !.

واقفل سامي حانوته ، واقفلني حانوتي . وفرّق مبيع النهار على اجرائه ورحنا نذرع اسواق المدينة . « لعلك غاضب عليّ يا سليم ؟! ان اخوّفك من اجمل الامور التي مرت بي في هذه الحياة . على اني لو ابحت لنفسي ان اقصر جهودها على الاطمئنان الى مؤاخاتك لما كان لي هذا الفتح . انظر اليّ ألا ترى قامتي استطالت وصارت اكتافي اطول منّ اكتاف الناس ؟ ترى أيدري هؤلاء اذ تمس اثوابي اثوابهم ، بأي فنان يحتكون !. تعال نقم الافراح لهذا الفوز . لن نشتري سيارة ولا ثياباً . تعال نشاطر الناس قطاف بستاننا » وحمل دفتر الشكات ، واخذنا نطوف على المواطنين . فندخل بيت الواحد منهم فيفاجئه سامي بنكتة ، او سلام مبتدع ،

ويحادثه دقيقة ثم يترك بين يديه تشكاً بالف دولار او ما يزيد . ويفعل ذلك بلباقة من غير ان يشعر المواطن ان سامي يحسن اليه . فلما انتهى تطوافنا قال سامي ، كان المواطنون يسمونني « الفيلسوف » اما بعد هذه العطايا فسيطلقون عليّ لقب « المجنون » وضحك بل قهقه فقهقهة كانت صدى تصفيق جوانحه ، وقد اعيش مئات السنين فلا اسمع موسيقى اطرب من تلك القهقهة .

ولا انكر ان الاثرة في نفسي استفاقت ، وصرت احدث نفسي ترى متى يأتي دوري باستلام التشاك ؟ ولعل سامي شعر بما يجول في خاطري فصاح بي « لا يا سليم ، لن اعطيك فلساً . اني قليل الذوق ان انا طمست معروفك بحفنة من المال . لا اريد ان احرمك من لذّة تذكر مروءة بذلتها لي . لن اشوه بالمال جمال افعالك نحوي ... »

فقاطعته « انني لا انتظر منك مالاً ... »

قال « الاحسن ان لا تنتظر » .

وكنا قد اعيانا التجوال فمشى سامي بي الى رستوران وطلب مبرّداً ، فجاء الخادم بقدحي « بوظه » واعطى ورقة الحساب لسامي . فدفعها هذا نحوي وقال ، ادفعها انت ، ان من التبذل ان يختال المرء بماله ، فنقدت الخادم ثمن البوظة ونهضت فاستوقفني سامي وقال « تعال نحسن الى جرائد المدينة . فينتشر الخبر في «مانيلا» غداً تعال ندعو مخبري الجرائد فمن العار ان تنقل « مانيلا » مثل هذا الخبر عن اميركا ، وتلفن الى صحف المدينة التسع ان يرسلوا مخبريهم الى الرستوران الفلاني لاستماع خبر هام .

واقبل مخبرو الجرائد علينا كغزاة البدو ، فقص عليهم سامي الخبر ، بلباقة وتواضع طبيعي ، وراح يقرأ عليهم بعض مقاطع من روايته .

وانكمشت انا في مجلس استمع لكلام سامي ونكاته وعيناي تسبحان في الدموع . لقد اصدرت الايام حكماً عادلاً .

مثل سامي حميدان ، خلق لمثل هذا الميدان . حاضر النكتة ، ذرب اللسان ، يتراشق والصحافيين الكلام المزدوج المعاني ، المضمّن الغمزات. ويضحكون ويشربون .

واني احاول ان اعيد احاديث تلك الجلسة ، فلا اقدر ان اردد منها اكثر مما يقوى أن يردد من الحان « الاوبرا » رجل بسيط سمع موسيقاها الساحرة . على أني اذكر انهم سألوه :

— صف لنا فرحك بهذا الفوز . فاجاب فوراً :

— فرح البخيل بستوفي مبلغاً من مديون ماطله ، وسوّفه ، فهو فرح بالمال نافٍ على المديون — لماذا لم يدفع قبل اليوم ؟ .

وانصرف مخبرو الجرائد نصف سكارى ، وبقينا في شوارع المدينة وحاناتها حتى بشرت بالفجر أصوات باعة الجرائد . فاختطفنا من ايديهم اعداداً فاذا بصورة سامي ، ومقالات عنه في أعمدة كثيرة ، فابتسم سامي وابتسمت وانصرف كل الى فراشه ، وما استفقت حتى بعد الظهر اذ دق سامي باب حانوتي . وطاف بي من جديد ينثر التشكات ، ويجود بالفكاهات ، والناس تشير اليه حيث سار . بل سمعنا هتافات « يحي النابغة » وصارت النساء تبتسم له ، بل هجمت عليه امرأة اميركية واغتصبت منه قبلة. وامسكت رفيقتها برأسه فقصت خصلة من شعره .

وبقينا حتى مطلع الفجر ، ثانية ، نتحدث ، ونجول ، حتى اوصلته الى منزل صغير يسكنه في حي الاغنياء ، ورحت الى فراشي في حانوتي .

وكأن سهد ليلتين متتابعتين انهكني ، فغطست في نومي ولم استفق

في اليوم الثاني إلا حوالي الساعة العاشرة صباحاً على صوت قرع شديد ، وصوت آمر يصيح « افتح » فنهضت احسب أن زبوناً ملحاً أيقظني ، ففتحت الباب فاذا ببوليس يأخذ بذراعي ويقول « امشِ » فذهبت معه حتى وصلنا الى منزل سامي حميدان فاذا حوله طوق من الجنود وجماهير غفيرة . فحرت في امري ولم يجبني البوليس على اسئلتي حتى دخلت البيت ففتح البوليس لي غرفة النوم فاذا بسامي حميدان ، متمدد على سريره ، يبتسم ، والدم يصبغ صدره وفراشه .

« ما الامر ؟ ! » صحت مدعوراً .

« انتحر » اجابني الطبيب .

وتلطف مدير البوليس فخاطبني « لقد نادينا عليك لان رسالة الانتحار ، وأشار الى ورقة في كفه ، تعينك وصياً على شؤونه . ثم نحن نريد اليك أن تترجم لنا هذه الورقة فقد وجدناها معلقة على مكتبه » .

فتناولت الورقة وقرأت في العربية :

(الى اخي وجاري سليم الصيداوي .

اما اجمل للنجم ان يطفأ من ان ينطفي ؟ !

فتش في المكتبة ، تجد في القعر (الكتاب العظيم)

سامي

ورحت ابحث في المكتبة حتى القعر ، فاذا هناك ورقة مطوية فنحتها وقرأت :

(سليم ، لقد عشت حلمي يوماً وها انا استفيق .

لقد كان آخر هزئي بالناس هذه الضحكة على ذقنك يا سليم .

فتش ما شئت ، فليس في هذه المكتبة كتاب عظيم ، ولا كتاب

حقير) .

وتطلعت الى الغرفة حيث تمـــدد سامي ، فاذا هو لا يزال يبتسم ، فابتسمت ثم قهقهت . انا موقن ان سليماً سمع قهقهتي وسرّ بها . فلقد اراد اضحاكي بتلك الوصية .

(لماذا تضحك ؟) صاح بي مدير البوليس .

اجبت : ان الناس في بلادنا متى غلب عليهم الحزن ضحكوا . وهذا الرجل كان صديقي الحميم . قال : وما في هذه الاوراق ؟ قلت : ان بلادنا كثيرة اللغات . ولقد كتب صديقي هذه الصفحات بلغة لا افهمها . قال : ان بلادكم بلاد الغرائب .

ودخل علينا بوليس فالقى التحية العسكرية على رئيسه ، ودفع اليه بصرّة مختومة كتب عليها :

(انا كلارك شروود ، كاتب العـــدل ، اشهد بان مكتب صموئيل جلدوين في هليوود اعاد هذه الصرة لمرسلها بالبريد المسجّل من غير ان يفتحها) .

قال البوليس ان مدير البوسطة اذ علم بانتحار هذا الرجل تلفن بخبرتا ان هذه الصرة وصلت في بريد اول امس ، وقد جاء سامي حميدان الى البريد ، فلما قرأ ما على الصرة ابى ان يستلمها .

وتسلمت الصرة في جملة ما تسلمت من اوراق سامي حميدان .

* * *

اليوم في « مانيلا » تجد محل سامي حميدان (برسم الايجار) ولكن ليس في مانيلا من يستأجره . بل ان الناس يرسمون علامة الصليب اذ يمرون به . اما انا فالتفت كل صباح نحو جاري وابتسم واقول : صباح

الخير يا سامي حمدان .

***

ليت ابويّ ارسلاني الى مدرسة عالية ، فافهم قيمة الكتاب اذ أتصفح الكتاب .

ليت ابويّ ارسلاني الى مدرسة عالية فاقوى على الحكم .

من يدري ان سامي حمدان حين اراد الهزء بالناس لم يهزأ بنفسه ، وان ذلك الكتاب العظيم ، لم يكن كتاباً عظيما ؟

الملك فرنشدس

•

البحر الصيني في ١ اذار سنة ١٩٢٦ .

ضاقت بوجهه الدنيا منذ وسعت بوجه الانكليز فقد كان قبل ان فتح البريطانيون جزيرة سيلان موفقاً في عمله لا يحمد الله على الغنى ولكنه لا يكفر بالله من اجل الفقر .

استفاق ذات يوم فاذا في المدينة — كولومبو — عاصمة سيلان ، اناس اغراب يشبهون النساء بانهم لا ينبت الشعر في وجوههم ، متشابهون بالهيئات والملابس ، في ايديهم اخشاب طويلة كالعصي ، ولكنها ليست عصياً ، قيل له ان اسمها « بنادق » ترسل الموت لمن يجسر ان يناوىء حاملها ، وان هؤلاء الاغراب اسمهم « انكليز » وانهم جاؤوا على اثر صداقة وهدايا تبودلت بينهم وبين جلالة السلطان ليتكرم فيأذن لهم بانزال كتيبة ترابط في المدينة لتحمي بواخرهم اذا اجبرتها امواج الاوقيانوس الهندي الى الالتجاء لميناء كولومبو الهادئة الفسيحة .

دهش لرؤية اولئك النازلين ولكنه لم يتألم . غير انه لم تمض برهة حتى كثر « الرجال — النساء » اي الرجال الحليقون ، وبعضهم ابتنى بيوتاً ، وآخرون فتحوا مخازن . ومرة كان « ياشاوا » — بطل قصتنا — سائراً في

السوق الى يمينه بدلا من اليسار فصرخ من ضربة سوط اصابت وجهه وكان مرسل الضربة احد اولئك الاغراب الذين يقفون في وسط الشوارع ويأمرون الناس بالمسير الى اليمين او اليسار او الوقوف لاسباب لم يفقه « ياشاوا » معناها .

وامست المدينة كأنها بنيت من جديد . لم تعد القذارة تملأ اسواقها ولا الحيوانات تقلق المارة باصواتها . بل اصبح كل شيء هادئاً ونظيفاً . وشيدت البنايات الهائلة ، وفتحت المخازن وفيها من كل فن خبر . واغرب من هذا ان اولئك الافرنج حبسوا بعض الحيوانات في اقفاص فصار السواح يقصدون الى ما يسمونه « جنينة الحيوانات » .

ورتبوا الاعشاب في ضاحية كولومبو ، وزرعوا الاشجار وجاؤوا بالمياه فاصطنعوا بركة كبيرة طفت على وجهها الزهور فكان الافرنج يأتون بعد ظهر كل يوم معروف ليتفرجوا على « جنينة النبات » وليسمعوا اصوات زمامير وطبول .

هذه الامور دقت عن فهم صاحبنا . ولكن الذي فهمه انه كان له نول (منوال بالقاموس) ينسج عليه في الاسبوع عشرة اذرع من الكتان فيبيعه ويعيش مع عائلته بخير . اما اليوم فمنذ جاء اولئك الرجال المرد اخذوا يبيعون الكتان باسعار رخيصة فسكتت طقطقة نول ياشاوا وضاقت الدنيا بوجهه منذ وسعت بوجه الانكليز .

ما عساه ان يفعل وقد تعلق برقبته زوجته واولاده؟. خطر له رأي . في المدينة كثيرون من الرجال يجرون عربات خفيفة يركب بها شخص واحد وكثيرون من السواح الافرنج يحبون ان يركبوا في عربة يجرها رجل اسود . جاره يجر عربة وظاهر حاله يدل على انه « يعيش » .

ياشاوا بلغ الخامسة والاربعين ولكن في عضلاته بقيـة من الشباب ، فاخذ يجر العربة وفارقه العسر .

ومرة جاءه سائح وابنه ، وكان كلاهما ضخم الجثة ، ركب الاثنان في عربة فجرهما نحواً من ساعة . طلبا اليه بعد ذلك — بل امراه ان يصعـد بهما الى قمة الجبل لكي يطلاّ على منظر غياب الشمس . فاطاع ، وراحت نفسه تتطاير مع انفاسه اذ يذرع ذاك الصُعد الحاد .

واخيراً وصل بهما الى اعلى القمـــة فنزل الاثنان واكلا في المطعم الفخم على رأس الجبل. وشربا شراباً اصفر ، فاحمر وجهاهما وياشاوا يتطلع اليهما وقد داخ من الجوع ومن التعب .

واخيراً رجعا اليه وكان الفتى مرحاً بطراً .

نادى الفتى « ياشاوا » لكي يقبل فاقترب منهما ولمح في يد الاب آلة عرف انها تلك الجثّية التي تطبع الانسان على ورقة فتسمي (صورة) كأنها الانسان .

امراه ان يقف فوقف ودنا الشاب يريد ان يقبض على لحيته لكي يتصور قابضاً على لحية رجل هندي اسود يجر عربة . ولعله اراد ان يرسل تلك الصورة لخطيبته او حبيبته او خليلته .

اللحية عندالهندي كالشارب عندالسوري ، كلاهما رمز الرجولة وكلاهما مقدس . وهذا الانسان الذي يجر العربة هو « انسان » وعنده عواطف ، انف ان يشد لحيته غلام ، وخاف من سوط الافرنجي اذا قاتل او قاوم . فامسك بخشبتي عربته وراح يتدهور خبباً من قمة الجبل .

ولكنه قبل ان يبلغ المدينة قبض عليه البوليس اذ كان السائح خاطب الحكومة بالتلفون فامسكوا ياشاوا وحبسوه وغرموه بقليل من المال ،

« والقليل القليل منه كثير » لانه اساء المعاملة مع سائح اوروبي وفي هذا ما يسيء بسمعة المدينة .

باع عربته وعاف تلك المهنة ، وانتظر فرج الله . فالهندي شاعر بطبعه تقي بغريزته ، لا يخاف مايجيء به الغد لانه يعتمد على قوة عظيمة غـــير منظورة تبعث بنفسه الرجاء والآمال .

ولكن الزوجة لا يقينها الرجاء . وفلذات الاكباد لا تشبعهم الآمال . حار بنفسه ولكنه لم ييأس .

وذات يوم كان يتمشى قرب المرفأ حيث ترسو البواخر كأنها الجزائر فوقف امام بابور كبير يعجب من ضخامته بسذاجة وجهل . فبصر ببعض الناس يخرجون تابوتاً حقيراً ثم رأى بعد قليل بعض الاغراب المرد يشيرون نحوه ويتهامسون . واخيراً نزل واحد منهم وسأله ان كان يقبل ان يخدم في الباخرة كجرسون ويأخذ ليرة بالشهر .

فقد كان التابوت يضم رفات خادم ميت ، ما يدرينا ان كان التعب قد اماته .

جرسون لم يفهم معناها . واما ليرة ! جنيه ! عشرون شلن بالشهر ! فهذا ما اسكره . خصوصاً وانه لا يغيب عن بيته كثيراً اذ ان الباخرة تمر على كولومبو مرة كل اربعين يوماً فيرى زوجتـه واولاده ويعطيهم كراءه الشهري .

كل ما عند الفقراء قليـــل وبسيط . افراحهم واحزانهم . وكذلك وداعهم . فبأقل من دقائق عشر ودع ياشاوا عائلته وجمع عفشه المؤلف من قميص — وقميص فقط وراح الى الباخرة بعـد ان اوصاه « غشتانا » صغير اولاده ان يأتيه ببونيطة وبوط متى رجع .

بهر « الجنيه » عينيه ودفعه حب خيـــاله الى ترك عيـــاله ولكن الذي استهواه اكثر من هذين هو روح استطلاع المجهول والتعرف الى الجديد – تلك الروح التي تكون على اشدها في الفتيان وتضعف في الكهول وتكاد تتلاشى في الشيوخ .

* * *

– اسمك يا شاوا ؟ !

وقلب الانكليزي – رئيس الخدم – شفتيه متأففاً متقززاً .

– انه لاسم وسخ هندي. اسمع . ان الجرسون الذي فطس البارحة وشغلت محله كان اسمه فرنندس فليكن كذلك اسمك فهو اهون علينا لفظاً لمرونته الاوربية ثم نحن لا نحتاج الى تغيير الاسم في دفاترنا . وما تقصد بحمل هذه اللحية المستطيلة ؟ اؤكد لك اني لن اسمح للجرسون ان يستعمل غير المكنسة لتنظيف الغرف. هيا احلقها .

اصرّ يا شاوا–او فرنندس على استبقائها واصرّ رئيسه على استطارتها. يا لعنة الله صبّي ! هي كانت بلينه يوم كان بحر العربات وهي الآن علة لبلاء جديد . غير انه ما حرص عليها الا لان قبيلته شديدة المحافظة على ما في الوجوه من ماء وشعر فان هو اذعن الان للموس عيّروا اولاده من بعده . وهو اشفق على اولاده منه على نفسه . انه اب .

– اقطع عنقي قبل ان تفعل بي ما تقول .

ذلك كان جواب فرنندس .

واخيراً فكّر رئيس الخدم واذن باستبقاء المباركة لكي يزيد في أبهة الخدمة اذ انهم يستخدمون الهنود السمر ليبعثوا في المسافرين لذّة السيادة فان سمرة الوجوه وسوادها او اصفرارها في الخدم تذكر صاحب الوجـه

الابيض بسيادته وتفوقه .

يا فرنندس تنهض الساعة الرابعة فتصلح من شأنك وترتدي هـــذا الثوب الذي ارتداه سميك من قبلك فاذا مضى عليك في ذلك نصف ساعة تجمع الاحذية من امام غرف المسافرين فتمسحها قبل ان تدق الساعة السادسة واذ ذاك تذهب الى المطبخ فتأتي بالافطـــار والقهوة لاسيادك . تصبّحهم لا فرق ان ردوا الصباح ام لا . وتكون في خدمتهم حتى ساعة الترويقة واذ ذاك تكون على المائدة. وتقضي سائر النهار بالتنظيف وقضاء حاجات المسافرين كلما امروك والظهر تقـــدم الغداء وفي المساء العشاء وتسهر منصتاً الى الجرس تهرع الى الغرفة كلما رنّ وعندما تصير الساعة الثانية عشرة في الليل تنام ثم تنهض الساعة الرابعة . وفي آخر الشهر تقبض الليرا اذا احسنت الخدمة امّا اذا كان في سلوكك ما يشتكى منه فامامك خصم المعاش . أسمعت ؟ هيا الى عملك .

« يا جرسون » – عبارة نهتف بها كلما دخلنـا مطعماً او مقهى من غير ان نفكر فيما تحمل طياتها من معاني الحقارة والزراية. ويا « جرسون» سمعها فرنندس مئة مرة في اليوم من غير ان يشفعها المسافرون بكلمة تحبب او بابتسامة عطف .

مرّت الشهور فانحل التعب جسم فرنندس وضخم السهر اجفانه وكان كلما زاد في اتقان خدمة المسافرين كلما نفر من عجرفتهم وارستقراطيتهم . الى ان ركب معـــه من بورسعيد فتى في شرخ الشباب شديد احمرار الوجنتين اشقر الشعر ازرق العينين يتكلم الانكليزية بلثغـــة ويظهر من مجمل امره انه روسي . وقد ادهش هذا الفتى فرنندس اذ ناداه « يا اخي » وسأله باطف ان يحذف في المخاطبة كلمة « سيدي » اذ ان الناس اخوان

وان حقت السيادة لفريق فلأولئك الذين يخدمون لا للذين يُخدمون .

ان صحّ ان يتجاوز حب الرجل للرجل العاطفة الهادئة الى الغرام فقد عشق فرنندس مبادىء هذا الروسي وكلامه وديموقراطيته وتلك الابتسامة التي تحمل معاني الثأر لحق مغتصب والتي كانت لا تفارق ثغر الروسي فقد كان يبتسم ابتسامة الوعيد حتى وهو نائم .

وليلة عيد الميلاد احتفل المسافرون الانكليز فاولموا المأدبة الفخمة وفي نهايتها شربوا نخب الملك وهم وقوف فتحمس الفتى الروسي ووقف على الكرسي وصاح « اني اشرب نخب الذين عصروا هذه الخمرة — نخب العمال »

وفي تلك الليلة نزل القبطان ومعه اربعة من ضباط الباخرة ففتشوا حقائب الروسي فوجدوا معه اربعين باسبورت فغلّوا يديه وسجنوه على عجل بحيث لم يستطع ان يودع صديقه فرنندس بغير ان دسّ في جيبه ورقة فيها شيء ثقيل .

ملك الاسى قلب فرنندس لحبه لذلك الفتى ، وغمض عليه السبب الذي من اجله سجنوه . فلما عاد الى روعه من نشوة الدهشة والاستغراب تناول الورقة التي دسّها الروسي في جيبه ففتحها فاذا هي تحوي ليرة ذهبية واذا في الورقة كتابة لم يفهمها لاول مرة ولكنه عاد فراجع تلاوتها حتى استظهرها واذ ذاك وضح معناها اما الليرة فلم يتصرف بها ولم يعطها لعياله بل انه ثقبها وعلقها في رقبته محتفظاً بها كتذكار من صديقه المسجون واما الورقة فكان فيها هذه العبارات النارية :

« تعيش انت لتشقى ، ويعيش سواك لينعم . لولا شقاؤك يا فقير ما تنعم الغني بالحياة . يا صعاليك العالم اتحدوا وانهضوا الى حقوقكم بالسيف وبسفك الدماء . » .

« تعيش انت لتشقى » – هذا صحيح فقد كانت ايامه ولياليه سلسلة اتعاب ومشقات ولماذا ؟ « ليعيش » فقط .

« ويعيش سواك لينعم » – قول حق . كيف لا وهو يرى الآكلين انواع الطعام ، الشاربين ملوّن الشراب ، المستريحين نهارهم ، اللاعبين في لياليهم .

« لولا شقاؤك يا فقير ما تنعم الغني بالحياة » – تلك هي الحقيقة المؤلمة فلولا نهوض فرنندس الباكر ومسحه للاحذية وتقديمه الفاكهة والقهوة وطاعته العمياء لكل ما يؤمر به ، ما توفر الرخاء لاسياده .

اما التحريض على سفك الدماء فهذا ما اقلقه وجعله مشرّد الفكر مشدوهاً .

اخذت هذه الافكار تختمر في رأسه وكان يطارحها رفاقه الخدامين والعملة حتى حفظها الجميع وكانوا يتحدثون بها ويمعناها كلما سنحت لهم لحظة من راحة بل انها صادفت هوىً في نفوسهم التي كادت تمحقها الاتعاب ، واصبح شغلهم الشاغل واحلامهم تلك القنبلة التي القاها فرنندس بينهم .

وكانت الباخرة قد غادرت عدن في طريقها الى الهند . فاتفق ان شغل احد الغرف التي يتعهدها فرنندس بخدمته فتى ماجن اتى من عدن مع امرأة قال انها زوجته . وكان هذا الفتى كثير الضحك مولعاً بالهزء حتى من نفسه . وقد اعجبه فرنندس بهيئته الهندية ولحيته المستطيلة فلقبه « بالملك فرنندس » لزعمه انه يشبه احد ملوك اسبانيا الاقدمين .

وسار هذا اللقب بين المسافرين فصار « الملك فرنندس » اضحوكة المسافرين من كبيرهم الى صغيرهم لا فرق بين الشيخ الطبيب ذي الصلعة الواسعة وطفلهم الذي يتمتم العبارات ويلثغ بالحروف .

فزاد هذا اللقب في آلام صاحبه ومرارة عيشه . اذ ان الهزء آلم انواع الاهانات .

أقبلت ليلة العيد . عيد رأس السنة فنصبت موائد القمار وتطايرت الزجاجات الفارغة فوق الرؤوس التي الهبتها . وحفلت القاعة الكبرى بالراقصين والراقصات وكلهم متزي بالبسة المساخر فهذا لبس رداء قاطع طريق وتلك تنكرت بزي بدوية وراحوا يرقصون ويعربدون حتى اذا دقت الواحدة بعد منتصف الليل هنا بعضهم بعضاً بالعام الجديد بارك الله في سنة تستقبل بالسكر والقمار والعربدة ، وبمـــا يتبع ذلك من فحش وفساد .

وكان بهجة المتنكرين بالبسة المساخر صاحبنا الماجن المزّال فانه تقلد « الملك فرنندس » بلبسه ولونه وحركاته وسكناته . وقد اجاد في التقليد اجادة حملت المحكمين ان يهبوه الجائزة الاولى . امـــا فرنندس الحقيقي ورفاقه « الصعاليك » فقد لبثوا يحملقون بهذا المشهد المهوس من خصاص الابواب التي تطل على القاعة وكانوا يتحرقون اذ يبصرون اولئك الافرنج مترنحين من السكر عابثـــين بالتقاليد الهندية متقلدين كهنتهم وبراهمتهم وساخرين بكل ما في تاريخهم من مقدس . وكانت الضحكات في القاعة تتعالى كلما اقترب « الملك فرنندس » التقليدي مـــع رفيقته البدوية المزيفة وهزّ لحيته وصاح انا « الملك فرنندس » ثم امسك بخصر رفيقتـه وطفق يرقص يجنون بين قهقهة الجمهور وهتافهم .

أرأيت النهر يتخاذل امام السد الهائل برهة حـتى اذا استكمل النهر قوته طغى على السد فهدمه ، أرأيت النار تضطرم في جوف الثرى مضغوطة بثقل ما فوقها فاذا طال الامد شقت الارض واندلعت منها ارياح محرقة —

هكذا نواب الملك فرنندس « وبلاشفته الهنود » على اسيادهم السكارى الراقصين . وكانوا مسلحين بآلات عملهم التي استعبدتهم . فرنندس حمل سكين المطبخ واقترب من الفتى الهزّال الذي قـــلده ثم امسك بلحيته وقال « تعال يا سميي العزيز لقد فزت بالجائزة من اجل هذة اللحية فاسمح لي ان احلقها لك بهذه السكين ولكني لن احلقها من اعلى بل من اسفل . لا تخف سابدأ بالحلاقة من هنا . قرب حنجرتك !.. واذ ذاك حز رقبة الفتى الضحّاك وحزها وظل ممسكاً بلحيته حتى افرغ الوريد آخر نقطة من دم الماجن الفكه فوقـع الى الارض وطرق رأسه بالخشب فصاح الهندي « على بركات الله » .

« وانت يا بدويتي الحسناء ! تفرين ؟! مـــا رأيتك تفرين قط ممن يبتغي تقبيلك أفتهربين من هذا السكين فهو يطلب قبلة من عنقك العاجي. قبلة وانتهى الامر . لا تخافي . لقـــد قلدّت البدويات في كل شيء الا في العفاف . جودي بتلك القبلة يا حبيبة هذه السكين » — وذبحها .

هكذا استمر هول تلك الجزرة البشرية بين نحر وتكسير رؤوس وكان افظع السفاكين لحام الباخرة « هنين » فقد حمل سكينه وكان يطعن الصدور في اليسار طعن الجزّار الماهر اللبق فاذا استخرج القلب صاح « اصنع هذا مع الرز يا طباخ » وهنالك الطباخ ذو الجثة الهائلة فقد كان يحمل على النساء فيطوق العنق باليدين. كبسة واحدة فتخرج العيون من الآني فيومي بالجثة وتبقى العينان محملقتين بالسقف .

راحت السكرة وجاءت الفكرة . اصبح عمال الباخرة في اليوم الثاني وامرهم فوضى لا نظام ولا قانون . الكل متساوون . لا نهي ولا امر ولا طاعة ..على أن ذلك لم يهمهم في البداءة اذ كانت الارزاق كثيرة

موفورة من اللحم والقطا وانواع الفواكه . اما الملابس فقد اصبح في وسع الواحد منهم ان يرتدي بدلة في كل لحظة .

هذه النعم المستجدة بهرت عيونهم واذهلتهم في اليومين الاولين عما يحيق بهم من خطر . غير انهم اكتشفوا في اليوم الثالث ان الباخرة بلغت بهم البحر الصاخب حيث تتعالى الامواج وترجف الارض والعياذ بالله .

حاروا بامرهم فيما يفعلون فالقبطان مختفٍ . البعض يقول انه ذبح وآخرون يؤكدون انه شنق وقد رأوه معلقاً في الساري . وضباط الوابور مرغمون جثثاً متكدسة في قاعة الرقص . والباخرة في عرض البحر وقد خمدت النيران في الموقد فسكنت المكنة . والظلام غطى الدنيا فلا يبصرون الا بعض النجوم تتلصلص من خلال الغيوم ولا منارة بعيدة تلمع لحظة وتختفي لحظة وهم قد افاقوا من سكرة النهب والتقتيل الى صحوة الخطر الذي يهددهم . فماذا يفعلون ؟

قر رأيهم ان ينتخبوا « الملك فرننس » ملكاً حقيقياً . اذ ان الزعامة في الناس امر طبيعي ناتج عن تفاوت القوى بينهم فيمسي في آخر الامر قائدهم من هو اقواهم — عقلاً او جسداً او اخلاقاً —

الزعامة غريزة تتناول المخلوقات الحية من ناطقة وصامتة . تبس الماعز يقود القطيع وخطيب الحزب يرأس الحزب والملك فرننس حرّص العمال على العصيان . فلما احدق الخطر انتدبوه لينقذهم من الخطر . ولكن ما في وسع ذلك العريف المستجد والملك المنتخب — فرننس الاول — ان يقود باخرة للمرفأ الامين بين جبال الامواج في بحر هائج ، وهو لم يختبر الا جرّ عربة في كولومبو والا تقديم الفواكه ومسح الاحذية .

كانت اول اوامر الملك فرننس انه انعم على الطباخ بوظيفة ادارة

التلغراف اللاسلكي فلما دخل الموظف الجديد الى غرفة الادارة مدّ يده لمولد الكهرباء فصعق واسود وارتمى جثة هامدة .

تاهت الباخرة منذ استلم العمال امرها .

وكانت ليلة ليلاء والباخرة ترتفع فيخيل للتائهين انهم لامسوا الغيوم ثم تنحط فتكاد ترتطم بقاع البحر والعمال البلاشفة مكتوفو الايدي امام الالات لا يعرفون اسرارها .

واذ ذاك حدث الدوي المخيف . فقد دفعت الامواج الباخرة التائهة الى جزيرة مهجورة فحطمتها على الصخور .

بعد اسبوع حملت الانباء اللاسلكية الى انحاء الارض ان مدرعة وجدت في تطوافها في الاوقيانوس الهندي باخرة محطمة وبحارتها وركابهـــا قتلى وعليها اعلام بولشفيكة حمراء وبقي امر الملك فرنندس وتفسيره، سراً من الاسرار .

كلمة من الناشر

عندمـــا انتهى المؤلف من وضع « نخب العدو » التفت الى مستقبل السينما العربية ، وهي بعدُ في طور الطفولة ، والى مستقبل مسرحينه وقد برزت الى حيز الوجود فرأى في هذه موضوعاً يليق بتلك .

وكأنه خاف على سيناريو الفيلم العربي « نخب العـــدو » من عبث العابثين فراح في « ذنب الطاووس » يرشد مخرج الفيلم الى كيفية نقل فكرته الى الشاشة البيضاء دون ان يخونها او ان يحوّر فيها .

واما « عهد » التي بها يختم هذا الكتاب فعهد قطعه المؤلف على نفسه امام نفسه وجاء هذا الكتاب يبرّ به امام الناس .

ذنب الطاووس

•

لم يقم بعد في هَلِوُود مَنْ علمه بالسينما يضاهي جهلي به . انا فقير يرى بين يدي طفلته طابة من خِرَق ، ويلمح في قصر جاره الغني غرفة طفلة تموج بالثمن الدمى فلا يتمالك ان يسائل نفسه لماذا لا تملك ابنتي مثلها . ويلتجيء من الم الحقيقة الى نشوة الحَلْقَظَة[1] فيقنع نفسه انه سينفح صغيرته بمثل دمى جارتها وأثمن . هكذا أتطلع الى الفلم السينمائي وله السنون يرقص في مرابعها والسهول والجبال والغابات والبواخر وغرف النوم ، وطرق الشوارع والدنيا ، ملعب ، فاقول لماذا تتعجب « نخب العدو » بستار ، وتنحسر في مسرح كأرجوحة البرغوث ، وتسجن ، فلا بحر ، ولا شلال ، ولا مروج ، ولا ميدان ، ولا ساحة مدينة ، ثم أخدّر نفسي بامل فاقول لئن صَغُر اليوم مسرح « نخب العدو » ، فغداً تزهو صناعة السينما ، وينطلق الكشافون في طلب عروس يتوجونها ملكة السينما ، فتسفر « نخب العدو » وتبتسم ، فيكبرون ، الله ! الله! ما اقوى حادثتها... واروع مشاهدها ... والبق حوارها ... والوّح بعصاي وقبل ان

(١) فعل مشتق من « احلام اليقظة » .

تكسر جرّة السمن امر بيدي على لحيتي واقول ما عساي ان اوصي المخرج السينمائي الذي سيتولى امرهـــا . بل سيحتاج الى نصائحي انا العليم بالسينما ، الخبير بفنه . فاشير بعصاي واصيح اسمع يا غلام ، فاني اريدك ان تثبت المشاهد التالية في هذه الرواية :

١ – بعد ان يهرب وسيم وينسرب الخلل الى دماغ امـه والفقر الى بيتها ، يفاجئها زمرة من الشبان المتفرنجين ، المائعين ، المخنثين ، جبـــاة الضرائب فيدخلون « العلّيّة » متبادلـــين الكلمات السمجة زائنين ١ العربية بالافرنجية ، وفي يد احدهم كتاب ضخم هو جـدول الضرائب ، « فالكوارة » تدفع ٢٠ غرشاً على المتر المكعب ، والسجادة ٢٥ غرشاً عـلى المتر المربع ، والطنجرة ٧ غروش وزيادة ٢٠ بالمئة اذا كانت ذات غطاء ، والهرة نصف غرش على كل سنتمتر من ذيلها ، وبعـد ان يأخذوا علماً ، ويضعوا رسماً عـــلى كل ما في البيت ، يسألون اذا كان في البيت هرة ، فينكر من في البيت ، ولكن مواء يفضحهم ، فيتبعون الهرة فتقاتلهم الى ان يظفروا بها ، ويحملقون – فالهرة قطيعة الذيل ، فيحكم عريفهم ان قطع ذيل الهرة هو حيلة على غشّ الحكومـــة للتخلص من ضريبة عادلة فيضاعفون مجموع الضرائب .

ويسترسل احدهم في الغلاظـــة محاولا مباسطة ام وسيم – ابنك في اميركا ؟؟ في اي بلد من غير شر ؟ في النيرك (مقلداً اللهجة الجبلية) – نيرك ضيعة كبيرة ؟ بل هو يحاول ان يجلس عـلى الكرسي المقدسة التي احتفظت بها لوسيم ، ويجرب ان يقلده ، فتصفعه ام وسيم . هذه الصفعة ، اريدها ان تعاد في آخر فصل اذ يرجع وسيم فتحسبه امه انه الجاني السمج .

(١) من الزوان . يقال حنطة مزوّونة اي مغشوشة بزوان .

وينزل الليل فاذا القرويون يتسامرون على سطح احدهم ويتذمرون ، واذا في ظاهر القرية تزل فخم ترقص انواره ، واذا بالشبه العاريات يخاصرن الخليعين ، فالزمـــان صيف ، ووادي الارز قرية اصطياف واذا بالجباة يتكلفون الظرف للمتبهرجات ويشكون ما يقاسون من مر العيش في التعامل مع « هؤلاء الفلاحين » ويدخل احدهم الى قاعة الرقص ، مورّم العين ازرقها فيسأله احـــدهم ما بال عينك فيجيبه « لقد غمزت بها قروية حسناء » . وفيما يشرح كولونيل لاحدى السيدات عن مغامراته ، وكيف هجم بحصانه الازرق على جماعة من البدو مسلحة ، يسمع دويّ ، ويسود الذعر ، ويغمى عـــلى بعض السيدات ، واكثر السادة ، ويعلو صياح « بُمْبَا . بما » اي قذيفـــة بدوية ، وما ان يسترجع الجمهور رشده حتى يعلموا ان تلك القذيفـــة البدوية لم تكن الا حجراً من مقلاع ظظام . ويخرج الكولونيل الذي هزم البدو راجعاً من بيت الخلاء ، ويسرع اليه مدير النزل بماء وصابونة .

٢ - فيما يسطو الضعف عـلى وسيم بعد ان يغرق مركبه ، يحتاج الى عملية نقل دم . فيسألون الدكتور نجيب اذا كان وسيم وراجي من دم واحد فيجيب « كل اولاد العرب من دم واحـــد » واذ ينقل الدم من راجي الى وسيم ، يرتسم شبح ام وسيم امام ولدهـــا وقولها « ليس من دينك ، يستحيل ان يخلص لك » فيلتفت وسيم الى راجي من خلال دموعه ويبتسم ، فيفهم راجي ويبتسم ايضاً ، ثم يضحك .

٣ – وحينما تغرق باخرة وسيم يشطط في جزيرة قفراء فتحوم عليـــه الغربان ، ناهشة جثة رفيق له ، فيدفعها وسيم عنه بالعصا ، تلك العصا التي لا يستطيع ان يخط حرفاً ان لم تكن بيمينه ، يلوّح بها ، والتي خلصهـا

حين غرق الباخرة لانها في نظره اداة فنه .

٤ – واريد ان ارى مهاجراً في غرانبلا وليس عليه الا قميص وكلسون وشاربان كعصا بوليس السير ، مضطجعاً على الارض ورأسه في حضن الزنجية – زبونته ، أو زوجته ، او وريثته ، او « هذه التي عندي » ، كما يسميها بعض مهاجرينا ، وحوله ١٤ ولداً كقطيع من المعزى انتشر حول راعٍ كسول ، وفي يد المهاجر جورنال قديم ، بل نسخة من مجلة (الضياء) وهو يقرأ ويتغنى بابيات حافظ ابراهيم بالمهاجرين السوريين . « يمضي ولا حلبة إلا عزيمته وينثني ... « وحينما يصل الى « ينثني » ينفخ خدين كأليتي الفيل ويقول « مش رح ينثني » متطلعاً باولاده ، « وتلك التي عنده » . طبعاً عربيته الفصحى اشدّ تكسيراً من حجارة داستها محدلة الطريق . لون اولاده كقهوة امتزجت بحليب .

٥ – واريد ان احمّل شمدص دائماً وابداً صورته كمكاري ، وفي يده رسن بغله الذي يسميه الابجر وهو ينتشلها من صدره ويتطلع اليها متنهداً ويقول مثلاً « آخ . هل اموت قبل ان اقضي معك ليلة في خان ؟!»

٦ – وحرام ان يموت الدكتور نجيب مكبوح الطموح مفجوعاً بآمال كبار يرى قدميه تقتربان من لحده ، وليس بعده وريث من ولده ، يتقدم بعلمه ، ويرث عنه رسالته ، ويودعه آماله ، وينهي الشوط الذي سراه الدكتور نجيب . اذاً فمن الطبيعي ان ينتبى علمياً تلميذ طب من بني قومه السوريين . ومن الطبيعي ان يكون الفتى ذكياً ، نشيطاً ، قلقاً ، لم يتزن بعد . اسمه العربي « رفيق » فهو بالاسبنيولية « رمُوْن » – الدكتور رمُوْن ، يرسله الدكتور نجيب الى مداواة وسيم فيهرع الى البيت ، فيرى « شمدص » فيحسبه وسيا . فيطبق على شمدص صائحاً به :

اريد ان اشقّك » اي اشق عليك ، يعني ازورك . وينصبّ على شمدص بسيل من الاسئلة ، وطوفان من التعابير الطبية اللاتينية « فاحصاً رئتيه ، واضعاً السماعة على قلبه ، مرغماً شمدص على فتح فمه ، وشمدص مذهول ، مأخوذ ، لا يملك روعه حتى يشرح للدكتور رمون انه ليس بالمريض وان المريض هو وسيم في الغرفة الثانية .

٧ – وهل رأيت على الشاشة البيضاء افجع من مشهد قروي وزوجته واولاده باسمالهم البالية . يمشون نحو البيدر بوجوه بطّن الفرح بشرتها . يتضاحكون فرحين . حالمين بالمآكل ، والملابس ، التي يشترونها ، اذ يقتسمون الغلال على البيدر مع « بيكهم » ويمضون نحو البيدر متواثبين ، ليروا البيدر ، ناراً ، ودخاناً اشعله ، اخصامهم من « الجماعة » ؟

٨ – وتسائل نفسك في آخر مشهد لماذا يتصافح بنو الحمصي وبنو الحموي باليمين ، وما بال كل واحد اخفى يساره ، فهذا دفنها في زناره ، وذا خبأها خلف ظهره ، حدّق قليلاً ترى ان في الزنار مسدساً ، وان عصاً يتوجها الحديد خلف الظهر ، وان افواه البنادق من نوافذ الجيران تحملق بالمجتمعين ، وان مشهد الصلح الذي تلعب به اوركسترا المجاملة الكاذبة ، قد ينقلب الى مجزرة ، في ايّ ثانية – اذا نفخ احد الموسيقين نغمة لا تروق لسامع .

٩ – وفي بيروت مكتب محاماة لشريكين ينهبان حليب الرضيع ، ويخطفان تنكة التموّل من يد الأعمى . يقصدهما الحموي ، والحمصي . في المحكمة ينسى المحاميان الشريكان ، مَنْ هو وكيل مَنْ . ذلك هي لكثرة موكليهم . فيدافع كل منهما بكلام موّه . ويتسرب الشك الى رئيس المحكمة ، فيسألهما مَنْ هو وكيل مَنْ . فيتغامزان ، ويتراشقان بقارص

الكلام ، وينسحب كل منهما محتجاً على سفه « الزميل المحترم » ، متظاهراً باقامة الدعوى امام نقابة المحامين ، فاذا انصرفا من الجلسة اشتبك ذراعاهما واستقلا الاوتوموبيل الى مكتبهما .

١٠ – وكم اشتهي ان اظفر بموزع بريد قزم ، رفيع الشاربين ، ويكون اسمر ، عداءً ، يحمل كيس البريد ، كما تحمل النملة حبة القمح . نراه في احدى عربات تلك الدمية التي يسمونها سكة حديد بيروت - دمشق. ويستبطىء الموزع – ولعل اسمه فرحان – سير القطار ، فيقفز منه بكيسه ويعدو نحو الضيعة يفرّق على بيوتها مكاتيب « الغياب » المهاجرين. وكلما سلم مكتوباً لشخص ، ارتسمت على الشاشة البيضاء صورة مرسله . فهذه رسالة من رجل يعتذر عن ارسال المال لأمه ، وتلمع صورته فهو يولع سيكارته بورقة الخمسين ريال . وهذا يطلب يد ابنة عمه ، وهو غارق في سرير فاجرة في المكسيك . وذاك يخبر عن اتساع اشغاله ، وعظمة تجارته ، وفي يده مكنسة ينظف بها الشوارع . ويتناول من فرحان رسالة ، شابٌ يتصدر سيارة ، ذو نظرات فاسقة . مائعة - وابوه في المهجر يحمل كيس البضاعة في قرى جبال المكسيك

١١ – وربما انكشف الستار في اول الرواية عن دكان حلاق اعرج ، كثير الكلام ، نزق الحديث ، يحلق لرجل ضخم الجثة ، تهدل خداه وكأنهما ضرفان – وكادا يختفيان تحت مناشف يتطاير بخارها ، كأنما هي بركان هائج ، والرجل متبرم بحديث الحلاق المهذار ، متألم من تلك الجراح التي حرثتها بوجهه الموسى الكليلة . والحلاق يبحث في حرب الصين واليابان ، وهو متحمس للصين ، يرفع بموساه في الفضاء كمن همّ بطعنة ويصيح بزبونه « اليس الحق معي ؟ » فيجيبه الزبون ، مذعور البصر ،

مفتوح الفم « الحق معك » . ويقص الحلاق كم يتعذب جرحى الصين ، ويبتهل الى الله « ان شفى الله جرحى بلاد الصين » فيمسح الزبون جراح ذقنه بيمينه ، ويشترك مع الحلاق بالابتهال « وسقى الله كل جزع » .

ويرتفع الصياح في الضيعة ، فيترك الحلاق زبونه ويكدح الى ساحة العراك ، فيصلها بعد انصراف المتقاتلين ، وحين وصول الضابط وجنوده. ويرى هؤلاء الموسى بيمين الحلاق الملطخة بالدم ، فيقبضون عليه « بالجرم المشهود » .

١٢ – ويلذ لي ان ارى مشهد مهاجرة الجبليين في بور بيروت . يلتقي بهم رجلان من المدينة يبيعان « سلة الحظ » يقنعان الجبلي المهاجر ان لا غنى له عن تلك السلة ليضع فيها الدولارات التي ستتدفق عليه في بلاد المهجر ، وانه ان لم يفعل فلا أوبة له ولا ثروة ، ويستشهد على صحة قوله ، برفيقه في المؤامرة . ويسأله جبلي كم دولار تسع؟ – « خمسين الف دولار » . – اعطني اثنتين « يجيبه الجبلي حتى اجمع مئة الف مرة واحدة » . فيحذره الصاحبان ، ان لا يؤمن باحد في بلاد الغربة . ويلتقي بائعا السلال بجبلي مهاجر ولكنه انيق الثياب فيحاولان بيعه « سلة الحظ » .

الجبلي – (مشيراً الى خاتم الماس) أتعرفان كم ثمن هذا ؟

الصاحبان – لا .

الجبلي – خمسة آلاف دولار . وهذه ؟ (مشيراً الى ساعته) الف دولار . وهذه كم فيها ؟ (فاتحاً محفظته) عشرة آلاف دولار . أتعرفان كيف جمعت هذه الثروة ؟ كنت في اميركا ابيع سلالاً . بخاطركم .

١٣ – ولا استغرب ان يلتقي ابو مرعي في تجواله بفتى لبق يسلم عليه سلام الاحباب ، ويحاول ان يؤجر ابا مرعي بيتاً – بل قصراً عظيما –

لقاء مبلغ من الليرات قليل . ويقود الشاب ابا مرعي الى ذلك « القصر » فاذا هو احدى دور الحكومة . ويشرح الشاب ان اجار الغرفة في الشهر يوازي كل ما يطلبه من ابي مرعي . ويهم ابو مرعي بنقد اجار القصر الى الشاب ولكنه يلمح في نوافذ القصر بعض وجوه الموظفين فيقول للشاب : « قصرك كبير ورخيص ، ولكني لا احب شراءه لان هؤلاء المستأجرين (ويشير الى الموظفين) وجههم وجه قبض مش وجه دفع ! . » ثم يذهب الشاب بأبي مرعي الى جسر في خارج المدينة ، ويريه كيف ان المستأجر الكوخ في الجانب الغربي من الجسر يجمع ثروة يومية ، بأن يفرض على الداخل خمسة قروش ، فيضمن ابو مرعي الجانب الشرقي ويبـــدأ بقبض الدخولية من بعض سذّج القرويين الى ان بطل اوتوموبيل عظيم فيوقفه ابو مرعي، وينزل منه رجل فخم – هو مدير البوليس .

١٤ – والدرامائي كيهود المانيا ، يصرخ ابداً « النجدة . النجدة » وها انا استغيث الآن بموسيقي يلحّن « نشيد بحارة بيروت » اثبته هنا عارياً على ان يتاح له من يتبرع بتنغيمه . ولعل ملحنه يضع البحّارة في ثلاثة قوارب ، وفي كل قارب اوركسترا، وفي كل اوركسترا لحناً ، انما بعرضك يا موسيقي ، فلا يأتي موحّداً ، كأنما هو في مطرد تموّجه ، سنم جمل سائر في سهل . هذا اللحن يتغنى به البحارة اذ يجرّبون « راجي ورفيقه الجبلي » فقد فاتني ان اذكر لك ان وسيم حين فرّ مع صديقه من « وادي الارز » نزلا بيروت ، وكان من الطبيعي ان يلتجىء راجي بصاحبه الى احضاء ابيه – البحارة ، وكان من الطبيعي ان ينتحي بهما البحارة تلك الجزيرة الصغرى في رأس بيروت التي يسمونها « الروشة »

١٥ – وكيف لي ان ازجّ بين مشاهدها تحذير البحارة لراجي « ان

انتبه لوسيم فهو ليس منا – يستحيل ان يخلص لك»،واخلق للقرية مجنونها بل حكيمها ، في مصرّه (محفظته) أربع ليرات ذهبية ، وثماني ليرات ورق ، يستشير كل من يلتقيه في امر الزواج ، ثم ينفرد بنفسه يدرس ميزانية الزواج ، فيفتح مصرّه : « ليرتان للجهاز ، ليرة للحفلة ، ثمانٍ لأم العروس – اوجعوا ، يصيح بفاوسه : اذ يعيدها الى محفظته » . ومن لي بأن اجمع في خارج القرية – قرب شلال – شاباً يتوهم نفسه شاعراً ، فهو يتمشى مترنماً ، محاولا نظم قصيدة ، وفتى يحسب نفسه صيـــاداً ، « يدكّ » بارودته بخرق من ثيابه . يصيح الشاعر « انا في اثر قصيدة » ، فيجيبه الصياد « انا في اثر طريدة» .وكلما صوب الصياد بارودته الى عصفور صعد من الشاعر ترنيح بيت مثل : « لبنان يا مهد الاسد هـــذا عرينك والوند » ، فيفر العصفور ، وكلما كادت القافيـــة ان تنزل على الشاعر انطلقت بارودة الصياد ، فتفر القافيـــة . وفي آخر مشهد نرى الصياد راجعاً شبه عار وليس في يده طريدة ، ونسمع الشاعر يردد بيته غير راضٍ عن نفسه . ولماذا لا يركب السادة ، جباة الضرائب اوتوموبيلا براقاً يفرقون منه غلاظاتهم على القرويين المشاة فيصيحون بكار نفر حماره من الاوتوموبيل « شد فرام حمارك يا عم . انفخ دولاب حمارك يا عم » « فيجيبهم » «الله يفخ دولاب لسانك » . وتدخـــل الزمرة خيمة الناطور فلا يجدونه فيولعها – بطراً – احدهم بسيكارته . اما الناطور ، فيبصر بهم من بعيد ويفهم تلك المداعبة ، فيفكك دولاب اوتوموبيلهم ويطيره. فعندما ترجع الزمرة يقول له احدهم «ان ابناء هذه الضيعة اشرار. انظر لقـــد حرقوا خيمتك . الناطور – اشرار هي الكلمة الصحيحة – انظر لقد سرقوا دولاب اوتوموبيلك . وهل للمخرج السينمائي ان يضيف

الى مصائب وسيم مصيبة فيجعل خادمه الزنجية في غرانبلا توقد النار بنسخة من رواية كتبها بدم قلبه .

وهذه الاناشيد بل الاهازيج التي نكبّ بها صديقنا الملحن ينشدها البحارة ليلة يفرّون براجي ووسيم الى الباخرة التي تنتظرهم في عرض البحر .

نشيد بحارة بيروت

هدِر ودحرج جبالك يا بحر ، نحنا رجالك
من يوم خلقت يا أزرق عالشاطي خلق خيالك

*

يصفق للريح شراعنا ويغلب الموج ذراعنا
ومهما توسّع ما تساعنا يا بحر نحنا رجالك

*

تجمد وبجن جنونك يا ويل من يركن لسكونك
ان كان الغير يخافونك نحنا يا ازرق فرسانك

*

كم كان لك جار وأخو اشمه كان يحسب جيرتك نعمه
نزل يصطاد اللقمه صار لقمه بجوف حيتانك

مجذافنا سيف يتألق بحاره من يوم ما نخلق
لا تتجبر وتتخلق انت نقطه ببحر بارينا

*

الله بارك قواربنا وفولذ شبانا وشيبنا
وبساعة السو ما يسيبنا ولا يرضى تغوص سوارينا

*

يوم هز « القدس » مدفعهم وإفتوا بالموت لفتيها
لا خوف الله يردعهم ولا الأقصى يحمي حاميها

*

مين غير فتيان «الشختوره» صانوا للعربان نورا
وما بين اهوال « الناقوره » افدوا بالروح فاديها

*

يا حيف نطوّف بالاخشاب اضحوكة اسطول الاغراب
احتلوا الثغر والمرفأ ساب من يدفع عنك من غالك

*

اصغوا للصوت الينادينا الداء الداء هو فينا
لكان اسطولنا يحمينا لو في من يجمع رجالك

*

بحلف بالفضّض امواجه بالتوّج « صنين » بعاجه
بالليل والنوّر سراجه وباليعلي ويخفض جبالك

*

ما كانت الريح تشيلنا ولا القارب كان يعيدنا

لو ما تكون خلقت إلْنـا ولو ما نكون خلقنالك

*

جدّف يا بحري جـدّفْ
لا تتشكّى ولا تجـــدف
معما تشبـــع معما تجوع
معما تطوف وتشدْ قلوع
آخر سفرة بالتـــابوت
ليش منخلق ليش منموت
نحنـــا والبحر سيـــان
لا منفهم ولا هو فهمان

*

الحقيقـــة كالأوهـــام
والانوار شعلة ظـــلام
زهر العرس ، وزهر الرمس
مقطوف من فرد بستـــان
كلـــه لغز ما بينحـــل
ما حـــدا منا دريان
المفتـــــح كالأعمى
والصاحي اخو السكران

*

يكنز بالقعر اللولو ويبصق عالشط الاصداف
يسلم مـن يهزا بهوله ويهلك مَن مِن هو وخاف

يغدر بأوفى خلانـــه ويبلـغ نخبة سكانـــه
ويهدم مـــكن جيرانه الظاهر كان "جدو انسان
مـا اشبهك يا انسان

*

نروي ونسرد اخبارا بس مـين بيفهم اسرارا
دنيـــا خلقت غـداره برهـــا والبحر سيان

*

جـذف يا بحري جـــذف
لا تشكى ولا تجـدف
اسأل النبـع كيف يفور
اسأل الدنيا كيف تدور
ليش منكدْ وليش منجدْ
وليش منبني وليش منهـــد
وليش في مهد وليش في لحـد
وليش في قبل وليش في بعد

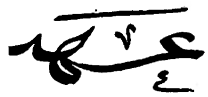

•

ايها الساهي على مضجع الامال كسولا ، الثمل بخمرة الرؤى ، المائو برجك العاجي بدخان أفيون احلامك ، هلم انزل الى دنيا الناس ، فان في بني الانسان من هم لحم ودم وحقيقة ، يفوقون في واقعيـة عظمة اعمالهم كل ما بناه خيالك من عظمة نفسك الموهومة !

ايها الجبان المخدر عزمك بالاحاديث الخفية الصامته ، هيا حدث الناس بما تحدث به نفسك .

قل لهم انك ما قرأت كتاباً إلا وقلت في نفسك إن في صدرك كتباً أعظم منه .

اخـــبرهم انك ما انصرفت من دار سينما إلاّ وابتسمت هازئاً ، مملقاً نفسك أن في مواد دوائك روايات ابدع . لا تذكرهم بما تدعيه .

لا تقل لهم : اني أول من ألف « درامة » عربية .

حذار ان تشير الى مقالاتك الصبيانية ،وتخبرهم انها هي بدأت « الادب الشخصي » الذي تبدّل اليوم الى « ادب التوافه » اياك أن تعسعس في مقبرة اوراقك وتستشهد بتواريخ وتؤدهي : انا أول من كتب « قصة »

دع الزمن يحكم إن كنت في نخب العدو قد خلقت مدرسة ادبية ، ولئن كنت انت البادىء بفبركة الكلمات فلا تستبقنّ الحوادث وتتنبأ أن فبارك الكلمات ستغني العربيـة بالمفردات ، وأن ستشيع موضة التشابيه المعكوسة ، وتشيع بعدها عن « نخب العدو » الف موضة .

لينهمك الناس بالقحة ، ولتنزل على رأسك لعنة القرود .

انتفض من غلائل التقاليد ، وقل لهم من ستصير . ولتكن هذه الكلمـــات عهداً عليك وميثاقاً،ولترتد في وجهك ناراً ان انت حنثت.

اقرأها على نفسك صباحاً وعشية . ولتكن في اذنيك صـدى يمسي قهقهة هازئة ساخرة ان انت نكثت . احلف بكل جميل في الحياةوشريف انك ستغزو قوماً ليسوا هم قومك ، ولغـــة ليست هي بلغتك ، وانك ستقهر وتنتصر .

لا تهيىء المعاذير ، فقلم الرصاص بسنتيم ، والاوراق كذلك رخيصة ، وان استمر اضطهاد الناس لك فعريت إلا من قميص ممزقة ، فسلّ من عروقك حبرك واكتب به رسالتك على قميصك الممزقة .

اما وقد لملمت من رجولة نفسك الجرأة ، أو القحة ، ان تذيع هـذا العهد على الناس .

فلتكن هذه الكلمات طبقاً يتأثرك فيهمزك الى مرماك .

ولا تطلب من الحياة شيئاً يعينك – لا هدنة ولا ثروة ، ولا قصراً ، ولا كتباً ، ولا رخاء . لا تطلب من الحيـــاة شيئاً الا ان تستبقيك – عشرة اعوام .

والى الملتقى – بعد عشرة اعوام .

انتهى